

الإصدار رقم (١٣٠)
آثار الإمام ابن القيم
سلسلة الطبعات الميسرة (١)

الداء والدواء

طبعة محققة مهذبة الحواشي مجردة من المقدمات والفهارس

تأليف
الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
المعروف بـ «ابن قيم الجوزية»
(٦٩١هـ-٧٥١هـ)

الطبعة الثانية






الداء والدواء

ⓒ دار عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٥هـ
الجوزية ، ابن قيم
الداء والدواء. / ابن قيم الجوزية – ط ٢. .– الرياض ، ١٤٤٥ هـ
٣٦٢ ص ؛ ..سم
رقم الإيداع: ١٤٤٥/١٥١٣٨
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤١٠-٥٢-٣



الطبعة الثانية
١٤٤٥هـ / ٢٠٢٤م



info@ataat.com.sa
00966 559222543
@ ataat11





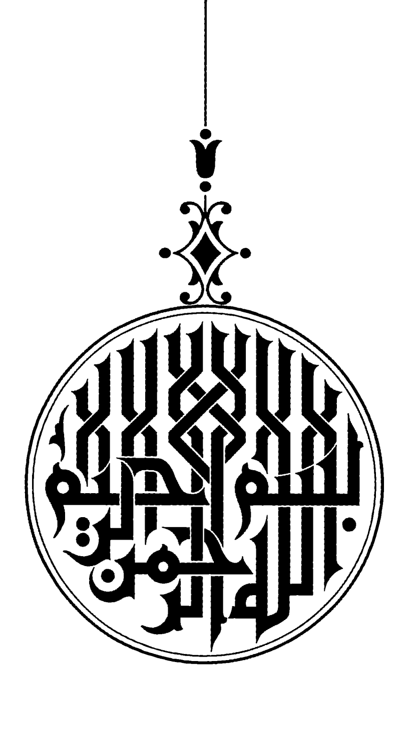
الإصدار رقم (١٣٠)
آثار الإمام ابن القيم
سلسلة الطبعات الميسرة (١)

الداء والدواء

طبعة محققة مهذبة الحواشي مجردة من المقدمات والفهارس

تأليف
الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
المعروف بـ «ابن قيم الجوزية»
(٦٩١هـ - ٧٥١هـ)




بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإنّ العناية بالتراث العلمي لأئمة السلف تحقيقًا وتيسيرًا ونشرًا من أشرف المقاصد وأنفع الأعمال وأجل القربات، لا سيما العناية بآثار العلماء المشهود لهم بغزارة العلم وحسن الاختيار وبراعة التصنيف، ممّن كتب الله تعالىٰ لمؤلفاتهم القبول في مشارق الأرض ومغاربها عبر القرون.

وإنّ من فضل الله ﷻ علىٰ «عطاءات العلم» وتمام توفيقه أنْ بوّأها مراتب السَّبْق ومنازل الريادة في عديدٍ من المجالات العلمية، فأثْرَت الساحة العلمية بدراسات محكمة وبحوث متخصصة ومناهج دراسية، وكان لتقريب التراث ونشره أوفىٰ نصيب؛ إذ عملت علىٰ تحقيق ونشر العشرات من أمهات كتب التراث لنخبة من العلماء.

وفي طليعة هذه الأعمال تأتي العناية بنشر آثار الأئمة الأعلام (شيخ الإسلام ابن تيميّة، والعَلّامة ابن قيم الجوزية، والعَلّامة المُعلِّمي، والعَلّامة الشِّنقيطي) رحمة الله تعالىٰ عليهم أجمعين، امتدادًا لمشروع علمي ضخم انطلق منذ عقدين من الزمان، ولا يزال أهل العلم وطلابه يتفيؤون ظلاله، وينهلون من موارده.

هذا ويَطيبُ لـ«عطاءات العلم» تدشين مرحلة جديدة في هذا المشروع المبارك، بتقديم سلسلة: «الطبعات المُيَسَّرة» لمختارات من مؤلفات ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالىٰ مما سبق نشره ضمن أعمال المشروع، وكانت الحاجة إليها ماسّة، من أجل تيسير الانتفاع بهذه الكتب، وتوسيع دائرة نشرها، وتعظيم أثرها، وتسهيل

اقتنائها، وزيادة قرائها؛ بطبعات أصغر حجمًا وأقل تكلفة، وذلك وفق خطوات التيسير الآتية:

١- الاعتماد علىٰ الطبعات المحقّقة التي تنشرها «عطاءات العلم» تحت مسمىٰ (آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال).

٢- إثبات نصِّ كلام ابن القيم كاملًا دون تصَرُّفٍ أو اختصار، كما جاء في طبعته المحقّقة.

٣- تجريد الكتاب من المقدمات الدراسية والفهارس التفصيلية، خلا مقدمة محقق الطبعة المحقّقة وفهرس موضوعات الكتاب.

٤- تهذيب حواشي التحقيق، وتجريدها من فروق النُّسخ وما إليها.

٥- اختصار تخريج الأحاديث والآثار، مع بيان درجة الحديث بإيجاز.

٦- الإبقاء علىٰ بيان معاني الألفاظ الغريبة، مع ضبط ما يلزم بالشَّكل.

٧- الإحالة بجوار العناوين الرئيسة إلىٰ ما يقابلها من صفحة الطبعة المحقّقة.

واللهَ نسألُ أن يبارك في هذه السلسلة، ويتقبّلها بقبول حسن، وأن ينفع بها الأمة، ويجزل الأجر، ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية الرائدة علىٰ الرعاية المباركة التي أثمرت هذه السلسلة الجديدة وما سبقها من أعمال.

والحمد لله أولًا وآخرًا



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ علىٰ رسوله نبيّنا محمَّدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد،

فإنّ هذا الكتاب الذي اشتهر بعنوان «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، وطبع مرّات باسم «الداء والدواء» من أنفع الكتب في تهذيب النفوس، واستثارتها للكفّ عن المعاصي والتوبة النصوح.

وقد أُفْرِد لمعالجة مرضٍ من أخطر أمراض القلوب -مخالفٍ لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكّن واستحكم عزّ علىٰ الأطبّاء دواؤه، وأعيا العليلَ داؤه- وهو مرضُ العشق الذي قال فيه الشاعر:

الحبُّ داءٌ عُضالٌ لا دواءَ له … يَحارُ فيه الأطبّاءُ النَّحاريرُ

قد كنتُ أحسَب أنّ العاشقين غَلَوا … في وصفه فإذا بالقوم تقصيرُ

ومؤلِّفُه رحمه الله من أطبّاء القلوب البارعين الذين لا يرجعون في مداواتهم لأمراض القلوب إلىٰ حكماء اليونان، وإنّما يصدرون عن كتابِ الله الحكيم، الذي فيه هدًىٰ وموعظةٌ وشفاءٌ لِما في الصّدور، وسنّةِ رسول الله ﷺ الذي إنّما بُعِثَ لتعليمِ الناسِ الكتابَ والحكمةَ، وإصلاحِ عقيدتهم وسلوكهم، وتزكيةِ نفوسهم، وهدايتِهم لمراشد الأمور، فكانت الجماعةُ التي تخرّجت علىٰ يديه خيرَ أمّةٍ أُخرجت للناس، لم يُعرف في التاريخ البشري لها نظيرٌ.

وكان أصلُ الكتاب استفتاءً ورد علىٰ المؤلف، فسُئِل عن رجلٍ ابتليَ ببليّةٍ إن استمرّت به أفسدت دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكلِّ طريق، فما

تزداد إلّا توقّدًا وشدّةً، ونظر المجيبُ إلىٰ الحالة المستعصيةِ، وعموم البلوىٰ، فرأىٰ أنّ التفصيلَ أولىٰ في هذا المقام من الإيجاز، ومقتضىٰ النّصحِ للسائل والشّفقةِ عليه وعلىٰ أمثاله أنْ يستوعبَ القولَ في أسباب المرض وعواقبه الوخيمة، وأنْ يرشدَ إلىٰ طُرُقِ الوقايةِ وسُبُلِ الخلاص، فكتب فصولًا نفيسةً في الدّعاءِ وشروطِ قبوله، والأسبابِ المانعة من ترتّب أثره، وفي الفَرْقِ بين حُسْن الظنّ بالله والاغترار برحمته، وفي أضرار المعاصي وآثارها في حياة الأفراد والأمم وعقوباتها في الدنيا والآخرة، وحقيقة التعبّد لله والإشراك به، والسرِّ في كون الشرك لا يُغفر من سائر الذنوب، ومضادّة عشق الصور للتوحيد، ومفاسده الأخرىٰ العاجلة والآجلة، وهكذا أصبح الجواب عن ذلك السؤال كتابًا مفصّلًا.

ولئن كان المجتمع الذي عاش فيه المؤلف رحمه الله بحاجةٍ إلىٰ هذا الكتاب -علىٰ ما فيه من تمسّك بالدين، ومحافظة علىٰ الأخلاق والآداب- فإنّ مجتمعاتنا إليه لأحوج؛ إذ صارت تمور بأسباب الفساد، بعد ما نجح الغواة في كثيرٍ من البلدان الإسلامية في استدراج المرأة المسلمة تحت شعاراتٍ خادعةٍ إلىٰ نزع الحجاب، والاختلاط بالرجال؛ فصار المعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا، ثمّ تفنّن إخوانُ الشياطين في إيجاد وسائل جديدة لإثارة الغريزة الجنسية، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فقد علموا أنّ الانحلال الخلقيَّ هو أقرب طريق إلىٰ تدمير الأمّة، والله المستعان.

وبعد، فإنّي أحمد الله ﷻ علىٰ أن وفّق لإخراج هذه النشرة العلمّية من الكتاب، وهو المسؤول أن يتقبّل هذا العمل، وينفع به، ويبارك فيه.

ورضي الله عن مؤلّفه الإمام ابن قيّم الجوزيّة، وأعلىٰ درجاتِه في جنّات النعيم.

وصلىٰ الله وسلّم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

محمد أجمل أيوب الإصلاحي/ الرياض

٩ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ما تقول السادة العلماء أئمّة الدين -رضي الله عنهم أجمعين- في رجلٍ ابتليَ ببليّة، وعلم أنّها إنِ استمرّت به أفسدت عليه دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكلّ طريق، فما تزداد إلّا توقّدًا وشدةً؛ فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلىٰ كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلًىٰ، **«والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»**[(١)]، أفتونا مأجورين.

فأجاب الشيخُ الإمامُ العالمُ شيخُ الإسلام مفتي الفِرَق، شمسُ الدين أبو عبد الله محمَّد بنُ أبي بكر بنِ أيّوب، إمامُ المدرسة الجوزية بدمشق المحروسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

الحمد لله، ثبت في صحيح البخاري[(٢)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: **«ما أنزل الله داءً إلّا أنزل له شفاءً»**.

وفي صحيح مسلم[(٣)] من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»**.

وفي مسند الإمام أحمد[(٤)] من حديث أسامة بن شريك، عن النبيِّ ﷺ قال: **«إن الله لم يُنْزِلْ داءً إلّا أنزل له شفاءً، عَلِمَه مَن عَلِمَه، وجَهِله مَن جَهِله»**.

وفي لفظٍ[(٥)]: **«إن الله لم يضع داءً إلّا وضع له شفاءً أو دواءً، إلّا داءً واحدًا»**،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) برقم (٥٦٧٨).

(٣) برقم (٢٢٠٤).

(٤) (٤/ ٢٧٨) (ح١٨٤٥٦).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٣٨)، وأبو داود (٢٠١٥)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٥٤)، والطبراني (١/ ١٧٩-١٨٤)، وغيرهم.

قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**الهرَم**»، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وهذا يعمّ أدواءَ القلب والروح والبدن، وأدويتَها.

وقد جعل النبيُّ ﷺ الجهلَ داءً، وجعلَ دواءَه سؤالَ العلماء: فروى أبو داود في «سننه»[(١)] من حديث جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلًا منَّا حجرٌ، فشجّه في رأسه، ثمّ احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجدُ لك رخصة، وأنت تقدرُ على الماء، فاغتسل، فمات، فلمّا قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال: «**قتلوه، قتلهم الله! ألَا سألوا إذ لم يعلموا! فإنّما شفاء العِيّ السؤال، إنّما كان يكفيه أن يتيمّم ويعصِر -أو يعصِب- على جُرحه خِرقةً، ثمّ يمسح عليها، ويغسل سائر جسده**».

فأخبر أنّ الجهلَ داءٌ، وأنّ شفاءَه السؤالُ.

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنّه شفاءٌ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، و«من» ههنا لبيانِ الجنس لا للتبعيض، فإنّ القرآنَ كلَّه شفاءٌ، كما قال في الآية الأخرى؛ فهو شفاءٌ للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاءً قطُّ أعمُّ ولا أنفعُ ولا أعظمُ ولا أنجعُ في إزالة الداءِ من القرآن.

وقد ثبت في الصحيحين[(٢)] من حديث أبي سعيد قال: انطلق نفرٌ من أصحاب

---

(١) برقم (٣٣٦)، وأخرجه الدارقطني (١/ ١٩٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٣١٣)، وصحَّحه ابنُ السَّكَن.

(٢) البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

النبي ﷺ في سَفْرة سافروها حتىٰ نزلوا علىٰ حيّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يُضَيّفوهم، فلُدِغَ سيّدُ ذلك الحيّ، فسعوا له بكلّ شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهطَ الذين نزلوا، لعلّه أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: أيّها الرهط إنّ سيّدنا لُدِغ، وسعينا له بكلّ شيء لا ينفعه، فهل عند أحدٍ منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إنّي لأرقي، ولكن والله استضفناكم فلم تُضَيِّفونا، فما أنا براقٍ حتىٰ تجعلوا لنا جُعْلًا. فصالحوهم علىٰ قطيع من الغنم، فانطلق يتفُل عليه، ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، فكأنما نُشِطَ من عِقال، فانطلق يمشي، وما به قَلَبة[1]، فأوفَوهم جُعْلَهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسِموا، فقال الذي رقَىٰ: لا نفعل حتىٰ نأتي النبيَّ ﷺ، فنذكرَ له الذي كان، فننظر بما يأمرنا، فقدِموا علىٰ رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك، فقال: «**وما يدريك أنّها رقية**»؟ ثمّ قال: «**قد أصبتُم، اقتسِمُوا واضرِبوا لي معكم سهمًا**».

فقد أثّر هذا الدواءُ في هذا الداء، وأزاله حتىٰ كأنْ لم يكن، وهو أسهلُ دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداويَ بالفاتحة لرأىٰ لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء.

ومكثتُ بمكّة مدّةً تعتريني أدواءٌ، ولا أجد طبيبًا ولا دواءً، فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة، فأرىٰ لها تأثيرًا عجيبًا؛ فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألَمًا، وكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعًا.

ولكن ههنا أمرٌ ينبغي التفطّن له، وهو أنّ الأذكار والآيات والأدعية التي يُستشفىٰ بها ويرقىٰ بها، هي في نفسها نافعةٌ شافيةٌ، ولكن تستدعي قبول المحلّ، وقوّة همّة الفاعل وتأثيره؛ فمتىٰ تخلّف الشفاءُ كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانعٍ قويٍّ فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية

(١) القَلَبة: الألم والعلّة.

والأدواء الحسية، فإنّ عدمَ تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانعٍ قويٍّ يمنعُ من اقتضائه أثره؛ فإنّ الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبولٍ تامٍّ كان انتفاعُ البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلبُ إذا أخذ الرقىٰ والتعاويذَ بقبولٍ تامّ، وكان للراقي نفسٌ فعّالةٌ وهمّة مؤثّرة، أثّر في إزالة الداء.

وكذلك الدعاء، فإنّه من أقوىٰ الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلّف عنه أثره، إمّا لضعفه في نفسه بأن يكون دعاءً لا يحبُّه الله لما فيه من العدوان، وإمّا لضعفِ القلب وعدم إقباله علىٰ الله وجمعيته عليه وقتَ الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جِدًّا؛ فإنّ السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإمّا لحصول المانع من الإجابة مِنْ أكل الحرام والظلم، ورَين الذنوب علىٰ القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها.

كما في صحيح الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنّ الله لا يقبل دعاءً مِن قلبٍ غافلٍ لاه**»(١).

فهذا دواءٌ نافعٌ مزيلٌ للداء، ولكن غفلةُ القلب عن الله تُبطِل قولَه.

وكذلك أكلُ الحرام يُبطلُ قوّتَه ويُضعفُها، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: قال قال رسول الله ﷺ: «**أيّها الناس، إنّ الله طيّبٌ، لا يقبل إلّا طيّبًا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، «**ثمّ ذكر الرجلَ يُطيل السفرَ أشعثَ أغبرَ يمدّ يدَه إلىٰ السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنّىٰ يستجاب لذلك**»!

(١) أخرجه الحاكم (١٨١٧)، والترمذي (٣٤٧٩)، وغيرهما.

وذكر عبدُ الله ابنُ الإمام أحمد في «كتاب الزهد» لأبيه[١]: أصاب بني إسرائيل بلاءٌ، فخرجوا مخرجًا، فأوحىٰ الله ﷻ إلىٰ نبيّهم أنْ أخبرهم: تخرجون إلىٰ الصعيد بأبدانٍ نجسةٍ، وترفعون إليّ أكُفًّا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم، ولن تزدادوا منّي إلّا بعدًا.

وقال أبو ذرّ: يكفي من الدعاء مع البِرّ ما يكفي الطعام من الملح[٢].

فصــل

ص(١١)

والدعاءُ من أنفع الأدوية، وهو عدوُّ البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخفّفه إذا نزل.

وهو سلاح المؤمن، كما روىٰ الحاكم في «صحيحه»[٣] من حديث عليٍّ ابن أبي طالب قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«الدعاءُ سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض»**.

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوىٰ من البلاء، فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوىٰ عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كلّ واحد منهما صاحبه.

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع، وأخرجه أبو داود في «الزهد» (١٣)، وفي سنده ضعف.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٨٨)، وابن المبارك في «الزهد» (٣١٩)، وغيرهما.

(٣) برقم (١٨١٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٧٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٣) وغيرهم.

وقد روىٰ الحاكم في «صحيحه»[١] من حديث عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«لا يغني حَذَرٌ من قَدَرٍ، والدعاء ينفع ممّا نزل وممّا لم ينزل، وإنّ البلاء لينزل، فيلقاه الدعاء، فيعتلجان إلىٰ يوم القيامة»**.

وفيه أيضًا[٢] من حديث ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: **«الدعاءُ ينفع ممّا نزل وممّا لم ينزل، فعليكم عبادَ الله بالدعاء»**.

وفيه أيضًا[٣] من حديث ثوبان: **«لا يردّ القدرَ إلّا الدعاءُ، ولا يزيد في العُمُر إلّا البِرُّ، وإنّ الرجلَ ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»**.

فصـــل ص(١٣)

ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء:

وقد روىٰ ابنُ ماجه في «سننه»[٤] من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَن لم يسأل اللهَ يغضَبْ عليه»**.

وفي صحيح الحاكم[٥] من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ: **«لا تعجِزوا في الدّعاء، فإنّه لا يَهْلِكَ مع الدعاءِ أحدٌ»**.

وذكر الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

(١) برقم (١٨١٣)، والطبراني في «الدعاء» (٣٣)، والبزار (٢١٦٥) وغيرهم.

(٢) برقم (١٨١٥)، والترمذي (٣٥٤٨)، وغيرهما.

(٣) برقم (١٨١٤)، وابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد (٢٢٣٨٦)، وابن حبان (٨٧٢)، وغيرهم، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) برقم (٣٨٢٧)، والترمذي (٣٣٧٣)، وأحمد (٩٧٠١)، والحاكم (١٨٠٧) وصححه.

(٥) برقم (١٨١٨)، وابن حبان (٨٧١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ١٨٨)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٣) وغيرهم.

«إن الله يحبُّ الْمُلِحِّين في الدعاء»[١].

وفي «كتاب الزهد» للإمام أحمد[٢] عن قتادة قال: قال مُوَرِّق: ما وجدتُ للمؤمن مثلًا إلّا رجلًا في البحر علىٰ خشبة، فهو يدعو: يا ربُّ يا ربُّ، لعلّ الله ﷻ أن ينجيه.

فصــل ص(١٥)

ومن الآفات التي تمنعُ ترتُّبَ أثرِ الدعاء عليه: أن يستعجلَ العبدُ، ويستبطئَ الإجابة، فيستحسرَ، ويدَعَ الدعاء، وهو بمنزلة مَن بذر بَذرًا، أو غرس غِراسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلمّا استبطأ كمالَه وإدراكَه تركه وأهمله! وفي صحيح البخاري[٣] من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يُستجاب لأحدِكم ما لم يعجَلْ، يقول: دَعوتُ فلم يُستجَبْ لي**».

وفي صحيح مسلم[٤] عنه: «**لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحم، ما لم يستعجلْ**»، قيل: يا رسولَ الله، وما الاستعجال؟ قال: «**يقول: قد دعوتُ وقَد دعوتُ، فلم أرَ يستجيب لي، فيَستحسِرُ عند ذلك ويدَعُ الدعاء**».

وفي «مسند أحمد»[٥] من حديث أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل**»، قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: «**يقول: قد دعوتُ ربّي، فلم يَستجِبْ لي**».

---

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٤٥٢)، والطبراني في «الدعاء» (٢٥)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ١٦٤)، بإسنادٍ ضعيفٍ، والصحيح أنه من قول الأوزاعي.

(٢) برقم (١٧٦٥)، ورجاله ثقات.

(٣) برقم (٦٣٤٠).

(٤) برقم (٢٧٣٥).

(٥) برقم (١٣٠٠٨، ١٣١٩٨)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٢٨٦٥)، والطبراني في «الدعاء» (٨١)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢١٤) وغيرهم.

ص(١٦)

فصل

وإذا جمع الدعاءُ حضورَ القلب وجمعيتَه بكلّيّته علىٰ المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة علىٰ المنبر حتىٰ تقضىٰ الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم؛ وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الربّ، وذلًّا له، وتضرّعًا ورِقّةً؛ واستقبل الداعي القبلة، وكان علىٰ طهارة، ورفع يديه إلىٰ الله تعالىٰ، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثمّ ثنّىٰ بالصلاة علىٰ محمَّد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبةَ والاستغفارَ، ثمّ دخل علىٰ الله، وألحّ عليه في المسألة، وتملَّقه، ودعاه رغبةً ورهبةً، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة = فإنّ هذا الدعاء لا يكاد يُرَدّ أبدًا، ولا سيما إنْ صادف الأدعيةَ التي أخبر النبيّ ﷺ أنّها مظنّة الإجابة، أو أنّها متضّمنة للاسم الأعظم: فمنها ما في السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول: اللهم إني أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «**لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أَعطىٰ، وإذا دُعي به أجاب**»[١].

وفي لفظٍ: «**لقد سألتَ الله باسمه الأعظم**»[٢].

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك أنّه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا، ورجلٌ يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إنّي أسألك بأنّ لك الحمدَ،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٨٩٢)، وأحمد (٢٢٩٦٥، ٢٢٩٥٢)، وصححه ابن خزيمة والحاكم.

(٢) سنن أبي داود (١٤٩٤).

لا إله إلّا أنت، المنانُ بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أَجاب، وإذا سُئل به أَعطىٰ**»(١).

وأخرج الحديثين الإمامُ أحمدُ في «مسنده»(٢).

وفي جامع الترمذي(٣) من حديث أسماء بنت يزيد أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**اسمُ الله الأعظم في هاتين الآيتين:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، **وفاتحةِ آل عمران:** ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:١-٢]. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وفي مسند أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة، وأنس بن مالك، وربيعة بن عامر عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «**أَلِظُّو بيا ذا الجلال والإكرام**»(٤)، يعني: تعلّقوا بها، والزموها، وداوموا عليها.

وفي جامع الترمذي(٥) من حديث أبي هريرة أنّ النبيَّ ﷺ كان إذا أهمّه الأمرُ رفع رأسَه إلىٰ السماء، [فقال: «سبحان الله العظيم»]، وإذا اجتهد في الدعاء قال: «**يا حيّ يا قيوم**».

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، والترمذي (٣٥٤٤)، وابن حبان (٨٩٣)، وأحمد (١٢٢٠٥، ١٢٦١١، ١٣٧٩٨) وغيرهم، وصحّحه ابنُ حبان والحاكم.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) برقم (٣٤٧٦)، وأبو داود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وأحمد (٦/ ٤٦١)، والطبراني في «الدعاء» (١١٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣٨ - ٣٩)، وصححه الترمذي.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٥٩٦)، والحاكم (١٨٣٦)، والطبراني في «الدعاء» (٩٢) وغيرهم، بإسناد صحيح عن ربيعة بن عامر.

(٥) برقم (٣٤٣٦)، وقال: «هذا حديث غريب».

وفيه أيضًا[١] من حديث أنس بن مالك قال: كان النبيُّ ﷺ إذا كَرَبه أمرٌ قال: **«يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث»**.

وفي صحيح الحاكم[٢] من حديث أبي أُمامة عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: **«اسم الله الأعظم في ثلاثِ سور من القرآن: البقرة وآل عمران وطه»**، قال القاسم: فالتمستُها، فإذا هي آية: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبيِّ ﷺ قال: **«دعوةُ ذي النون إذْ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾** [الأنبياء:٨٧] **إنّه لم يدعُ بها مسلمٌ في شيء قطّ إلّا استجاب الله له»**[٣]، قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي صحيح الحاكم[٤] أيضًا من حديث سعد عن النبيِّ ﷺ: **«ألا أخبركم بشيء، إذا نزل برجل منكم [كربٌ أو بلاءٌ من بلايا الدنيا] فدعا به يفرِّجِ الله عنه؟ دعاءُ ذي النون»**.

وفي صحيحه أيضًا[٥] عنه أنّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: **«هل أدلّكم على اسم الله الأعظم؟ دعاءُ يونس»**، فقال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصّةً؟ فقال: **«ألا تسمع قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنبياء:٨٨]، **فأيّما مسلمٍ دعا بها في مرضه أربعين مرّةً، فمات في مرضه ذلك؛ أُعطي أجرَ شهيد، وإنْ برأ برأ مغفورًا له»**.

(١) برقم (٣٥٢٤)، وقال: «وهذا حديث غريب».

(٢) برقم (١٨٦١)، وابن ماجه (٣٨٥٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٨٢)، وفي إسناده مقال.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والحاكم (١٨٦٢، ١٨٦٣)، وأحمد (١٤٦٢)، وغيرهم.

(٤) برقم (١٨٦٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٦٠).

(٥) برقم (١٨٦٥)، بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.

وفي الصحيحين(١) من حديث ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلّا الله العظيم الحليم، لا إله إلّا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلّا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض ربُّ العرش الكريم**».

وفي مسند الإمام أحمد(٢) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: علّمني رسول الله ﷺ -إذا نزل بي كرب- أن أقول: «**لا إله إلّا الله الحليم الكريم، سبحانَ الله، وتبارك اللهُ ربُّ العرش العظيم، والحمد لله ربِّ العالمين**».

وفي مسنده(٣) أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما أصاب أحدًا قطُّ همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهم إنّي عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيّ حكمُك، عدلٌ فِيّ قضاؤك، أسألك اللهمّ بكلِّ اسمٍ هو لك، سمّيتَ به نفسَك، أو علّمتَه أحدًا مِن خلقِك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك: أنْ تجعل القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذَهاب همّي، إلّا أذهب اللهُ عز وجل همَّه وحزنَه، وأبدله مكانه فرحًا**»، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلّمها؟ قال: «**بلىٰ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها**»(٤).

وقال ابن مسعود: ما كُرِبَ نبيّ من الأنبياء إلّا استغاث بالتسبيح(٥).

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «المجابين في الدعاء»(٦) عن الحسن قال: كان

(١) البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠)، وغيرهما.

(٢) برقم (٧٠١،٧٢٦)، وابن حبان (٨٦٥)، والحاكم (١٨٧٣، ١٨٧٤) وصححه.

(٣) برقم (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٩)، والحاكم (١٨٧٧)، والطبراني في «الدعاء» (١٠٣٥)، وغيرهم، وصحَّحه غير واحد.

(٤) انظر تفسير هذا الحديث في «شفاء العليل» (٢٧٤).

(٥) لم أقف عليه.

(٦) برقم (٢٣)، ولا يثبت سنده.

رجلٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ من الأنصار يكنىٰ أبا مِعْلَق، وكان تاجرًا، يتّجر بمالٍ له ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان ناسكًا ورِعًا، فخرج مرّةً، فلقيه لصٌّ مقنَّعٌ في السلاح، فقال له: ضَعْ ما معك، فإنّي قاتلك، قال: ما تريد إلىٰ دمي؟ شأنك بالمال، قال: أمّا المال فلي، ولست أريد إلّا دمك، قال: أمّا إذ أبيتَ، فذرني أصلي أربع ركعات، قال: صلِّ ما بدا لك، فتوضّأ، ثم صلّىٰ أربع ركعات.

فكان من دعائه في آخر سجدة أنْ قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعالُ لما يريد، أسألك بعزّك الذي لا يُرام، ومُلكك الذي لا يُضام، وبنورك الذي ملأ أركانَ عرشك: أن تكفيَني شرَّ هذا اللصّ، يا مغيثُ أغِثْني، يا مغيثُ أغِثْني، ثلاث مرّات، فإذا هو بفارسٍ قد أقبل، بيده حَرْبة، قد وضعها بين أُذُنَي فرسِه، فلمّا بصُر به اللصُّ أقبل نحوَه، فطعنه، فقتله، ثم أقبل إليه، فقال: قُمْ، فقال: من أنت، بأبي أنت وأمّي؟ فقد أغاثني الله بك اليوم، فقال: أنا ملَكٌ من أهل السماء الرابعة، دعوتَ بدعائك الأول، فسمعتُ لأبواب السماء قعقعةً، ثمّ دعوتَ بدعائك الثاني، فسمعتُ لأهل السماء ضجّةً، ثمّ دعوتَ بدعائك الثالث، فقيل ل: دعاءُ مكروب، فسألتُ الله أن يُولّيني قتلَه.

قال الحسن: فمن توضأ، وصلّىٰ أربع ركعات، ودعا بهذا الدعاء، استجيب له، مكروبًا كان أو غيرَ مكروب.

فصل

ص(٢٥)

وكثيرًا ما تجد أدعيةً دعا بها قومٌ فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورةُ صاحبه، وإقبالُه علىٰ الله، أو حسنةٌ تقدَّمت منه جعل الله سبحانه إجابةَ دعوته شكرًا لحسنته، أو صادف وقتَ إجابة ونحو ذلك، فأجيبت دعوته، فيظن الظانّ أنّ السرّ في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجردًا عن تلك الأمور التي قارنَتْه من

ذلك الداعي؛ وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعًا في الوقت الذي ينبغي علىٰ الوجه الذي ينبغي، فانتفع به، فظنّ غيره أنّ استعمال هذا الدواء بمجرده كافٍ في حصول المطلوب، كان غالطًا، **وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس**.

ومن هذا أنّه قد يتّفق دعاؤه باضطرار عند قبرٍ فيجاب، فيظنّ الجاهل أنّ السرّ للقبر، ولم يعلم أنّ السرّ للاضطرارِ وصدقِ اللجأ إلىٰ الله، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان أفضلَ وأحبَّ إلىٰ الله.

فصل

ص(٢٦)

والأدعيةُ والتعوذاتُ بمنزلة السلاح، والسلاحُ بضاربه لا بحدّه فقط، فمتىٰ كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعدُ ساعدٌ قوي، والمانع مفقود؛ حصلت به النكاية في العدو، ومتىٰ تخلّف واحد من هذه الثلاثة تخلّف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غيرَ صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانعٌ من الإجابة، لم يحصل الأثر.

فصل

ص(٢٦)

وههنا سؤالٌ مشهورٌ، وهو أنّ المدعوّ به إن كان قد قُدِّر لم يكن بدٌّ من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدعُ، وإن لم يكن قد قدّر لم يقع، سواءٌ سأله العبد أو لم يسأله.

فظنّت طائفةٌ صحّةَ هذا السؤال، فتركت الدعاءَ، وقالت: لا فائدةَ فيه!

وهؤلاء -مع فرط جهلهم وضلالهم- متناقضون، فإنّ طردَ مذهبهم يُوجِب تعطيلَ جميع الأسباب.

فيقال لأحدهم: إن كان الشِّبعُ والريُّ قد قُدِّرا لك فلا بُدَّ من وقوعهما، أكلتَ أو لم تأكُلْ، وإن لم يقدّرا لم يقعا، أكلتَ أو لم تأكل.

وإن كان الولدُ قدّر لك فلا بُدَّ منه، وطئتَ الزوجة والأمة أو لم تَطأ، وإن لم يقدّر لم يكن، فلا حاجة إلىٰ التزوّج والتسرّي، وهلمّ جرًا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟!

بل الحيوانُ البهيمُ مفطورٌ علىٰ مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته؛ فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلًا.

وتكايس بعضُهم، وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبّد المحض، يثيب الله عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثيرٌ في المطلوب بوجهٍ ما.

ولا فرق عند هذا الكيّسِ بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباطُ الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

وقالت طائفة أخرىٰ أكيَسُ من هؤلاء: بل الدعاءُ علامةٌ مجردة نصبها الله سبحانه أمارةً علىٰ قضاء الحاجة، فمتىٰ وُفّق العبد للدعاء كان ذلك علامةً له وأمارةً علىٰ أنّ حاجته قد قُضيت، وهذا كما إذا رأينا غيمًا أسودَ باردًا في زمن الشتاء، فإنّ ذلك دليلٌ وعلامةٌ علىٰ أنّه يمطر.

قالوا: وهكذا حكمُ الطاعاتِ مع الثواب، والكفرِ والمعاصي مع العقاب، هي أماراتٌ محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنّها أسبابٌ له.

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحريق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سببًا البتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتّب عليه إلّا مجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي.

وخالفوا بذلك الحسَّ، والعقل، والشرع، والفطرة، وسائرَ طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء!

والصواب: أنّ ههنا قسمًا ثالثًا غير ما ذكره السائل، وهو أنّ هذا المقدور قُدِّر

بأسبابٍ، ومن أسبابه الدعاءُ، فلم يقدّر مجردًا عن سببه، ولكن قدّر بسببه؛ فمتىٰ أتىٰ العبد بالسبب وقع المقدور، ومتىٰ لم يأتِ بالسبب انتفىٰ المقدور، وهذا كما قُدّر الشبع والريّ بالأكل والشرب، وقدّر الولد بالوطء، وقدّر حصول الزرع بالبذر، وقدّر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قُدّر دخولُ الجنة بالأعمال، ودخولُ النار بالأعمال.

وهذا القسم هو الحقّ، وهو الذي حُرِمَه السائل ولم يوفَّق له.

وحينئذ فالدعاء من أقوىٰ الأسباب؛ فإذا قُدّر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصحّ أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال! وليس شيءٌ من الأسباب أنفعُ من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولَمّا كان الصحابة رضي الله عنهم أعلمَ الأمّةِ بالله ورسوله، وأفقههم في دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به علىٰ عدوه، وكان أعظمَ جنديه، وكان يقول للصحابة: لستم تُنصَرون بكثرة، وإنّما تُنصَرون من السماء[١].

وكان يقول: إنّي لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهِمتُ الدعاءَ فإنّ الإجابة معه[٢].

وأخذ الشاعرُ هذا فنظَمَهُ، فقال:

لو لم تُرِدْ نيلَ ما أرجو وأطلُبه … مِن جودِ كفّك ما عوّدتَني الطلَبا

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره المؤلفُ في «المدارج» (٣/ ١٠٣)، و«الفوائد» (٩٧)، وشيخ الإسلام في «الفتاوىٰ» (٨/ ١٩٣)، و«الاقتضاء» (٢/ ٢٢٩).

فمَن أُلهمَ الدعاءَ فقد أريد به الإجابة، فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة:١٨٦].

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن لم يسأل الله يغضَبْ عليه**»(١).

وهذا يدلّ علىٰ أنّ رضاه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الربُّ تبارك وتعالىٰ فكلّ خير في رضاه، كما أنّ كلَّ بلاءٍ ومصيبةٍ في غضبه.

وقد ذكر الإمام أحمد في «كتاب الزهد»(٢) أثرًا: «أنا الله، لا إله إلا أنا، إذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي منتهًىٰ، وإذا غضبتُ لعنتُ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد».

وقد دلّ العقلُ والنقلُ والفطرُ وتجاربُ الأمم -علىٰ اختلاف أجناسها ومللها ونحلها- علىٰ أنّ التقربَ إلىٰ ربّ العالمين وطلبَ مرضاته، والبرَّ والإحسان إلىٰ خلقه؛ من أعظم الأسباب الجالبة لكلّ خير، وأضدادُها من أكبر الأسباب الجالبة لكلِّ شرّ، فما استُجلِبتْ نِعمُ الله واستُدفِعتْ نِقَمُه بمثل طاعته والتقرّب إليه، والإحسان إلىٰ خلقه.

وقد رتّب الله سبحانه حصولَ الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصولَ الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه علىٰ الأعمال، ترتيبَ الجزاءِ علىٰ الشرط، والمعلولِ علىٰ العلّة، والمسبّبِ علىٰ السبب.

وهذا في القرآن يزيد علىٰ ألف موضع.

فتارةً يرتِّبُ الحكمَ الخبريّ الكونيّ والأمريّ الشرعيّ علىٰ الوصف المناسب له،

---

(١) تقدم تخريجه في ص (١٤).

(٢) برقم (٢٨٩)، وسنده صحيح إلىٰ وهب بن منبه.

كقولِه تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:١٦٦]، وقولِه: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقولِه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، وقولِه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]، وهذا كثير جدًّا.

وتارةً يرتّبه عليه بصيغة الشرط والجزاء، كقولِه: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩]، وقولِه: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١]، وقولِه: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، ونظائره.

وتارةً يأتي بلام التعليل، كقولِه: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، وقولِه: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وتارةً يأتي بأداة «كي» التي للتعليل، كقولِه: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧].

وتارةً يأتي بباء السببية كقولِه تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران:١٨٢، والأنفال:٥١]، وقولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]، و﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٦].

وتارةً يأتي بالمفعول لأجله ظاهرًا أو محذوفًا، كقولِه: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقولِه: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقولِه: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام:١٥٦] أي: كراهة أن تقولوا.

وتارةً يأتي بفاء السببية، كقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٤]، وقولِه: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة:١٠]، وقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون:٤٨]، ونظائره.

وتارةً يأتي بأداة (لَمّا) الدالّة على الجزاء، كقولِه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]، ونظائره.

وتارةً يأتي بـ«إنّ» وما عملت فيه، كقولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وقولِه في ضدّ هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:٧٧].

وتارةً يأتي بأداة (لولا) الدالّة على ارتباط ما قبلها بما بعدها، كقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

وتارةً يأتي بـ(لو) الدالة على الشرط، كقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

وبالجملة، فالقرآنُ من أوّله إلى آخره صريحٌ في ترتُّبِ الجزاء بالخير والشرّ والأحكام الكونيّة والأمريّة على الأسباب، بَل ترتُّبِ أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

ومَنْ فَقِهَ هذه المسألةَ، وتأمّلها حقّ التأمّل، انتفع بها غاية النفع، ولم يتّكل على القدر جهلًا منه وعجزًا وتفريطًا وإضاعةً، فيكون توكّلُه عجزًا، وعجزه توكّلًا.

بل الفقيهُ كلُّ الفقيه الذي يردّ القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان يعيشُ إلّا بذلك، فإنّ الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلقُ كلّهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر.

وهكذا، من وفّقه الله، وألهمه رُشدَه، يدفع قدَر العقوبة الأخروية بقدَر التوبة

والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وِزان القدر المخوف في الدنيا وما يضادّه سواء، فربُّ الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا.

فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قَدْرها، ورعاها حقّ رعايتها، والله المستعان.

لكن يبقىٰ عليه أمران، بهما تتم سعادته وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشرّ والخير، ويكون له بصيرةٌ في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جرّبه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

ومن أنفع ما في ذلك تدبُّر القرآن، فإنّه كفيلٌ بذلك علىٰ أكمل الوجوه، وفيه أسباب الشرّ والخير جميعًا مفصّلةً مبيّنةً؛ ثمّ السنّة، فإنّها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفىٰ بهما عن غيرهما، وهما يُرِيانِك الخيرَ والشرَّ وأسبابَهما، حتّىٰ كأنّك تعاين ذلك عيانًا.

وبعد ذلك إذا تأمّلتَ أخبارَ الأممِ وأيامَ الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمتَه من القرآن والسنة، ورأيتَ تفاصيل ما أخبر الله به ووَعَد به، وعلمتَ من آياته في الآفاق ما يدلّك علىٰ أنّ القرآن حقّ، وأنّ الرسول حقّ، وأن الله ينجزُ وعده لا محالة، فالتاريخُ تفصيلٌ لجزئياتٍ ما عرّفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلّيّة للخير والشر.

فصل

ص(٣٦)

والأمر الثاني: أن يحذر مغالطةَ نفسِه له علىٰ هذه الأسباب.

وهذا من أهمّ الأمور، فإنّ العبد يعرف أنّ المعصية والغفلة من الأسباب المضرّة له في دنياه وآخرته، ولا بُدَّ، ولكن تغالطه نفسه بالاتّكال علىٰ عفو الله ومغفرته تارةً، وبالتسويف بالتوبة تارةً، وبالاستغفار باللسان تارةً، وبفعل المندوبات تارةً،

وبالعلم تارةً، وبالاحتجاج بالقدر تارةً، وبالاحتجاج بالأشباه والنُّظراء والاقتداء بالأكابر تارةً.

وكثيرٌ من الناس يظنّ أنّه لو فعل ما فعل، ثمّ قال: «أستغفر الله» زال أثر الذنب، وراح هذا بهذا!

وقال لي رجلٌ من المنتسبين إلىٰ الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثمّ أقول: سبحان الله وبحمده، مائةَ مرّةٍ، وقد غفر ذلك أجمعه، كما صحّ عن النبي ﷺ أنّه قال: «**من قال في يوم: سبحان الله وبحمده، مائةَ مرّةٍ حُطّتْ عنه خطاياه، ولو كانت مثلَ زبَدِ البحر**»(١).

وقال لي آخر من أهل مكّة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا(٢)، وقد مُحيَ عنه ذلك.

وقال لي آخر: قد صحّ عن النبي ﷺ أنّه قال: «**أذنبَ عبدٌ ذنبًا، فقال: أيْ ربِّ أصبتُ ذنبًا فاغفره لي، فغفر له، ثمّ مكث ما شاء الله، ثمّ أذنب ذنبًا آخر، فقال: أيْ ربِّ أصبتُ ذنبًا، فاغفره لي، فغفره له، ثمّ مكث ما شاء الله، ثمّ أذنب ذنبًا آخر، فقال: أيْ ربِّ أصبتُ ذنبًا، فاغفره لي، فقال الله ﷻ: علِمَ عبدي أنّ له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به، قد غفرتُ لِعبدي، فليصنَعْ ما شاء**»(٣).

قال: وأنا لا أشكّ أنّ لي ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به.

وهذا الضربُ من الناس قد تعلّق بنصوص الرَّجاء، واتّكل عليها، وتعلّق بها بكلتا يديه، وإذا عوتب علىٰ الخطايا والانهماك فيها سردَ لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).

(٢) يعني سبع مرّات، أي: سبعة أشواط.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٥٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

وللجُهَّال من هذا الضَّرب من الناس في هذا الباب غرائبُ وعجائبُ، كقول بعضهم:

وكَثِّرْ ما استطعتَ من الخطايا إذا كان القدومُ علىٰ كريمِ[1]

وقول الآخر: التنزّه من الذنوب جهلٌ بسعة عفو الله!

وقول الآخر: تركُ الذنوب جراءةٌ علىٰ مغفرة الله، واستصغارٌ لها!

وقال أبو محمَّد ابن حزم: رأيت بعضَ هؤلاء يقول في دعائه: اللهم إنّي أعوذُ بك من العصمة!

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلّق بمسألة الجبر، وأنّ العبد لا فعلَ له البتةَ ولا اختيار، وإنّما هو مجبورٌ علىٰ فعل المعاصي.

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء، وأنّ الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وإيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

ومن هؤلاء من يغترّ بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرة التردّد إلىٰ قبورهم، والتضرّع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسّل إلىٰ الله بهم، وسؤاله بحقّهم عليه وحرمتهم عنده.

ومنهم من يغترّ بآبائه وأسلافه، وأنّ لهم عند الله مكانةً وصلاحًا، فلا يدَعون أن يخلّصوه، كما يشاهد في حضرة الملوك، فإنّ الملوك تهَبُ لخواصّهم ذنوبَ أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحدٌ منهم في أمرٍ مفظع خلّصه أبوه وجدّه بجاهه ومنزلته.

ومنهم من يغترّ بأنّ الله ﷻ غنيٌّ عن عذابه، وأنّ عذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا ينقص من ملكه شيئًا، فيقول: أنا مضطرّ إلىٰ رحمته، وهو أغنىٰ الأغنياء، ولو أنّ فقيرًا مسكينًا، مضطرًّا إلىٰ شربة ماء، عند مَن في داره شطٌّ يجري، لَما منعه منها؛

---

(١) البيت لأبي نواس في ديوانه (٧٣٠)، وفي «وفيات الأعيان» (٢/ ٩٧) مع اختلاف يسير.

فالله أكرم وأوسع، فالمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا.

ومنهم من يغترُّ بفهمٍ فاسدٍ فهِمَه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسُّنّة، فاتّكلوا عليه، كاتّكال بعضهم علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ:٥]، قالوا: وهو لا يرضىٰ أن يكون في النار أحدٌ من أمّته!

وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه؛ فإنّه يرضىٰ بما يُرضي ربَّه ﷻ، والله تعالىٰ يُرضيه تعذيبُ الظلَمة والفسَقة والخوَنة والمصرّين علىٰ الكبائر، فحاشا رسولَه أن لا يرضىٰ ممّا يرضىٰ به ربُّه تبارك وتعالىٰ.

وكاتّكال بعضهم علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾، وهذا أيضًا من أقبح الجهل؛ فإنّ الشرك داخلٌ في هذه الآية، فإنّه رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أنّ هذه الآية في حقّ التائبين، فإنّه يغفر كلّ ذنبٍ للتائب، أيّ ذنبٍ كان، ولو كانت الآية في حقّ غير التائبين لبطلت نصوصُ الوعيد كلّها، وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة.

وهذا إنما أُتِيَ صاحبُه من قلّة عِلمه وفهمه، فإنّه سبحانه ههنا عمّم وأطلق فعُلِمَ أنّه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصّص وقيّد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]، فأخبر سبحانه أنّه لا يغفر الشرك، وأخبر أنّه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حقّ التائب لم يفرّق بين الشرك وغيره.

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] فيقول: كَرَمُه! وقد يقول بعضهم: إنّه لقّن المغترَّ حجّتَه، وهذا جهلٌ قبيحٌ، وإنّما غرّه بربّه الغرورُ -وهو الشيطان- ونفسُه الأمّارة بالسوء، وجهلُه، وهواه.

وأتىٰ سبحانه بلفظ «الكريم»، وهو السيّد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقّه، فوضع هذا المغترُّ الغرورَ في غير موضعه، واغترّ بمن لا ينبغي الاغترارُ به.

وكاغترار بعضهم بقوله تعالىٰ في النار: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل:١٥-١٦]، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

ولم يدر هذا المغترُّ أنّ قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] هو لِنارٍ مخصوصةٍ من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم، فهو سبحانه لم يقل: «لا يدخلها»، بل قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، ولا يلزم من عدم صِلِيِّها عدمُ دخولها، فإنّ الصِّلِيَّ أخصُّ من الدخول، ونفيُ الأخصّ لا يستلزم نفيَ الأعمّ.

ثمّ إنّ هذا المغترّ لو تأمّل الآية التي بعدها لعلم أنّه غيرُ داخلٍ فيها، فلا يكون مضمونًا له أنْ يُجَنَّبَها.

وأمّا قولُه في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، ولا ينافي إعدادُ النار للكافرين أنْ تدخلها الفسّاق والظلَمة، ولا ينافي إعدادُ الجنة للمتقين أن يدخلها مَنْ في قلبه أدنىٰ مثقالِ ذرّةٍ من إيمان، ولم يعمل خيرًا قطّ.

وكاتّكال بعضهم علىٰ صومِ يوم عاشوراء، أو يومِ عرفة، حتّىٰ يقول بعضهم: يومُ عاشوراء يكفّر ذنوب العام كلّها، ويبقىٰ صومُ يوم عرفة زيادةً في الأجر، ولم يدرِ هذا المغترُّ أنّ صومَ رمضان والصلوات الخمس أعظمُ وأجلُّ من صيام يومِ عرفةَ ويوم عاشوراء، وهي إنّما تكفّر ما بينها إذا اجتُنِبَت الكبائرُ.

فرمضان إلىٰ رمضان والجمعة إلىٰ الجمعة لا يقوىٰ علىٰ تكفير الصغائر الله مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوىٰ مجموع الأمرين علىٰ تكفير الصغائر. فكيف يكفِّرُ صومُ يومِ تطوعٍ كلَّ كبيرةٍ عملها العبد، وهو مصرٌّ عليها، غيرَ تائب منها؟ هذا محالٌ، علىٰ أنّه لا يمتنع أن يكون صومُ يوم عرفة ويومِ عاشوراء مكفّرًا لجميع ذنوب العام علىٰ عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروطٌ وموانعُ، ويكون

إصرارُه علىٰ الكبائر مانعًا من التكفير. فإذا لم يُصرَّ علىٰ الكبائر تساعدَ الصومُ وعدمُ الإصرار، وتعاونا علىٰ عموم التكفير، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدَين متعاونَين علىٰ تكفير الصغائر، مع أنَّه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

فعلم أنَّ جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسببٌ آخر علىٰ التكفير، ويكون التكفيرُ مع اجتماع السببين أقوىٰ وأتمّ منه مع انفراد أحدهما، وكلّما قويت أسبابُ التكفير كان أقوىٰ وأتمّ وأشمل.

وكاتّكال بعضهم علىٰ قوله ﷺ حاكيًا عن ربِّه: «**أنا عند حُسن ظنِّ عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء**»[1] يعني: ما كان في ظنّه، فإنّي فاعله به.

ولا ريب أنّ حُسنَ الظنّ إنّما يكون مع «الإحسان» فإنّ المحسنَ حسنُ الظنّ بربه أنّه يجازيه علىٰ إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأمّا المُسيءُ المصرّ علىٰ الكبائر والظلم والمخالفات، فإنّ وحشة المعاصي والظلم والإجرام تمنعُه من حسن الظنّ بربه، وهذا موجودٌ في الشاهد، فإنّ العبد الآبقَ المسيءَ الخارجَ عن طاعة سيده لا يحسن الظنّ به.

ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظنّ أبدًا، فإنّ المسيءَ مستوحشٌ بقدر إساءته، وأحسنُ الناس ظنًّا بربّه أطوعُهم له، كما قال الحسن البصري: إنّ المؤمن أَحسنَ الظنَّ بربّه، فأحسن العمل، وإنّ الفاجر أساء الظنَّ بربّه، فأساء العمل[2].

وكيف يكون محسنَ الظنّ بربه من هو شاردٌ عنه، حالٌّ مرتحلٌ في مساخطه وما يغضبه، متعرِّضٌ للعْنَتِه، قد هان حقّه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه!

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، وابن حبان (٦٣٣، ٦٤١) والحاكم (٧٦٠٣) وصححه.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٦٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٤).

وكيف يحسن الظنّ به من بارزه بالمحاربة، وعادىٰ أولياءَه، ووالىٰ أعداءَه، وجحد صفات كماله، وأساء الظنّ بما وصف به نفسه ووصفَته به رُسُله، وظنّ بجهله أنّ ظاهرَ ذلك ضلالٌ وكفر؟

وكيف يحسن الظنّ به مَنْ يظنّ أنّه لا يتكلّم، ولا يأمر، ولا ينهىٰ، ولا يرضىٰ، ولا يغضب؟

وقد قال تعالىٰ في حقّ من شكّ في تعلّقِ سمعه ببعض الجزئيات، وهو السرّ من القول: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٣]، فهؤلاء لَمّا ظنّوا أنّ الله سبحانه لا يعلم كثيرًا ممّا يعملون، كان هذا إساءةً لظنّهم بربّهم، فأرداهم ذلك الظنّ.

وهذا شأن كلّ مَنْ جحد صفاتِ كماله ونعوت جلاله ووَصَفه بما لا يليقُ به، فإذا ظنّ هذا أنه يُدخِلُه الجنةَ كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلًا من الشيطان، لا إحسانَ ظنٍّ بربّه.

فتأمَّلْ هذا الموضع، وتأمَّلْ شدّة الحاجة إليه! وكيف يجتمع في قلب العبد تيقُّنُه بأنّه ملاقٍ الله، وأنّ الله يسمع كلامه، ويرىٰ مكانه، ويعلم سرّه وعلانيته، ولا يخفىٰ عليه خافية من أمره، وأنّه موقوفٌ بين يديه ومسؤولٌ عن كلّ ما عمل، وهو مقيمٌ علىٰ مساخطه، مضيّعٌ لأوامره، معطّلٌ لحقوقه. وهو مع هذا محسنٌ الظنَّ به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟

وقد قال أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف: دخلتُ أنا وعروة بن الزبير علىٰ عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسولَ الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير -أو سبعة- فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرّقها، قالت: فشغلني وجعُ النبيِّ ﷺ، حتىٰ عافاه الله، ثمّ سألني عنها فقال: «**ما فعلتِ؟ أكنتِ فرّقتِ الستّةَ الدنانير**»؟ فقلت: لا، والله

لقد كان شغلني وجعُك، قالت: فدعا بها، فوضعها في كفِّه، فقال: «**ما ظَنُّ نبيٍّ اللهِ لو لقي الله، وهذه عنده**»(١)؟

وفي لفظٍ: «**ما ظنُّ محمَّد بربّه لو لقي الله، وهذه عنده**»؟

فيالله! ما ظنُّ أصحابِ الكبائر والظَّلَمةِ بالله إذا لقُوه، ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولُهم: «حَسَّنَّا ظنونَنا بك»، لم يعذَّبْ ظالم ولا فاسق، فليصنعِ العبدُ ما شاء، وليرتكبْ كلَّ ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنّه بالله، فإنّ النارَ لا تمسُّه! فسبحان الله، ما يبلغ الغرورُ بالعبد!

وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٦-٨٧]، أي: فما ظنّكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيرَه؟

ومن تأمّل هذا الموضع حقَّ التأمّل عَلِمَ أنّ حسنَ الظنّ بالله هو حسنُ العمل نفسه. فإنّ العبدَ إنّما يحمله على حسن العمل حُسنُ ظنّه بربه أن يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبّلها منه، فالذي حمله على العمل حسنُ الظنّ، وكلّما حسُن ظنُّه حسُن عملُه، وإلّا فحسنُ الظنّ مع اتّباع الهوى عجزٌ، كما في الترمذي والمسند من حديث شدّاد بن أوس عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «**الكيّس من دان نفسَه، وعمِل لما بعد الموت، والعاجز من أتبعَ نفسَه هواها، وتمنّى على الله**»(٢).

وبالجملة، فحسنُ الظنّ إنّما يكون مع انعقاد أسباب النجاح، وأمّا مع انعقاد أسباب الهلاك، فلا يتأتّى إحسانُ الظنّ.

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٣٣)، وابن حبان (٣٢١٣) بسند ضعيف.

ورواه محمَّد بن عمرو، وأبو حازم عن أبي سلمة عن عائشة فذكرته باللفظ الآخر الذي ذكره المؤلفُ، أخرجه أحمد (٢٤٢٢٢، ٢٤٥٦٠)، وابن حبان (٧١٥، ٣٢١٢) وغيرهما، والحديث سنده صحيح، وقد صحَّحه ابن حبان.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وأحمد (١٧١٢٣)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم (١٩١)، وحسَّنه الترمذي، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: «لا والله، أبو بكر واهٍ».

فإن قيل: بل يتأتّىٰ ذلك، ويكون مستندُ حسنِ الظنّ سعةَ مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأنّ رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضرّه العفو.

قيل: الأمرُ هكذا، واللهُ فوق ذلك، وأجلّ وأكرم وأجوَد وأرحم؛ ولكن إنّما يضع ذلك في محلّه اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة، والعزّة، والانتقام وشدّة البطش، وعقوبة من يستحقّ العقوبة.

فلو كان معوَّلُ حُسنِ الظنّ علىٰ مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليّه وعدوّه، فما ينفع المجرمَ أسماؤُه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرّض للعنته، وأوضعَ في محارمه، وانتهك حرماته؟ بل حسن الظنّ ينفع من تاب، وندم، وأقلع، وبدّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقيّة عمره بالخير والطاعة، ثمّ حسّن الظنّ، فهذا حسن الظن، والأولُ غرورٌ! والله المستعان.

ولا تستطِلْ هذا الفصل، فإنّ الحاجة إليه شديدة لكلّ أحد، ففَرْقٌ بين حسن الظنّ بالله وبين الغِرّة به.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة:٢١٨]، فجعل هؤلاء أهلَ الرَّجاء، لا البطّالين والفاسقين.

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١١٠]، فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها.

فالعالِمُ يضع الرَّجاء مواضعه، والجاهلُ المغترُّ يضعه في غير مواضعه.

فصل

ص(٥١)

وكثيرٌ من الجهال اعتمدوا علىٰ رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيّعوا أمرَه ونهيَه، ونسوا أنّه شديد العقاب، وأنّه لا يردّ بأسه عن القوم المجرمين.

ومن اعتمد علىٰ العفو مع الإصرار فهو كالمعاند.

وقال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعُه من الخِذلان والحمق[١].

وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمَنْ أن تكون عقوبته في الآخرة علىٰ نحو هذا[٢].

وقيل للحسن: نراك طويل البكاء! فقال: أخاف أن يطرحني في النار، ولا يبالي[٣].

وسأل رجلٌ الحسنَ فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوّفونا حتىٰ تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأنْ تصحبَ أقوامًا يخوفونك حتىٰ تدرك أمْنًا خيرٌ لك من أن تصحب قومًا يؤمّنونك حتىٰ تلحقك المخاوف[٤].

وقد ثبت في الصحيحين[٥] من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُجاءُ بالرجل يوم القيامة، فيُلقَىٰ في النار، فتندلق أقتابُ بطنه[٦]، فيدور في النار كما يدور الحمار برَحاه، فيُطيف به أهلُ النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**».

وذكر الإمام أحمد[٧] من حديث أبي رافع قال: مرّ رسول الله ﷺ بالبقيع فقال:

(١) ورد في «طبقات الصوفية» للسلمي (٨٩) بنحوه.

(٢) نقل المؤلفُ نحوَه من كلام أبي الوفاء بن عقيل فيما يأتي في ص (٤٨).

(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ١١٧).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ «الزهد» (١٤٥٩).

(٥) البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٦) أي: تخرج أمعاؤه من جوفه.

(٧) في «مسنده» (٢٧١٩٢)، والنسائي (٨٦٢،٨٦٣)، وابن خزيمة (٢٧٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٩٦٢)، وفي إسناده مقال.

«أفٍّ لك، أفٍّ لك»! فظننتُ أنّه يريدني، فقال: «**لا، ولكن هذا قبر فلان بعثتُه ساعيًا علىٰ آل فلان، فغَلَّ نَمِرةً**(١)**، فدُرِّعَ الآن مثلَها من نار**».

وفي «مسنده» أيضًا(٢) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**مررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي علىٰ قومٍ تُقرَضُ شفاهُهم بمقاريض من نار، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبرّ، وينسون أنفسهم، أفلا يعقلون**»؟

وفيه أيضًا(٣) من حديثه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لما عُرِجَ بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمِشون وجوههم وصدورهم، فقلتُ: مَن هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**».

وفيه أيضًا(٤) عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ يكثرُ أن يقول: «**يا مقلّب القلوب ثبِّتْ قلبي علىٰ دينك**»، فقلنا: يا رسول الله، آمنّا بك وبما جئتَ به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إنّ القلوب بين إصبَعين من أصابع الله، يقلّبها كيف يشاء**».

وفيه أيضًا(٥) عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال لجبريل: «**ما لي لم أرَ ميكائيل ضاحكًا قطّ**»؟ قال: «**ما ضحك منذ خُلِقت النار**».

---

(١) النمرة: بردة مخطّطة من صوف، من لباس الأعراب.

(٢) برقم (١٢٢١١)، وابن المبارك في «الزهد» (٨١٩)، ووكيع في «الزهد» (٢٩٧)، وأبو يعلىٰ (٤٠٦٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٦١١)، وسنده صحيح.

(٣) في «المسند» (١٣٣٤٠)، وأبو داود (٤٨٧٨، ٤٨٧٩)، والطبراني في «الأوسط» (٨)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١٦٥)، وغيرهم، بإسناد رجاله ثقات.

(٤) في «المسند» (١٢١٠٧)، والترمذي (٢١٤٠)، وأبو يعلىٰ (٣٦٨٧)، والحاكم (١٩٢٧)، والضياء في «المختارة» (٢٢٢٢، ٢٢٢٤) وغيرهم، وصححه غير واحد.

(٥) في «المسند» (١٣٣٤٣)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٩)، بإسناد ضعيف.

وفي «صحيح مسلم»(١) عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يُؤتَىٰ بأنعَمِ أهل الدنيا من أهل النار، فيُصبَغ في النار صَبغةً، ثمّ يقال له: يا ابن آدم، هل رأيتَ خيرًا قطّ؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ويُؤتىٰ بأشدّ الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنّة صَبغةً، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قطّ؟ هل مرّ بك شدّة قطّ؟ فيقول: لا، والله يا ربِّ ما مرّ بي بؤسٌ قطّ، ولا رأيتُ شدّة قطّ**».

وفي «المسند»(٢) من حديث البراء بن عازب، قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلىٰ القبر، ولَمّا يُلْحَدْ، فجلس النبي ﷺ، وجلسنا حوله، كأنّ علىٰ رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكُتُ به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» مرتين أو ثلاثًا، ثمّ قال: «**إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزلَ إليه ملائكةٌ من السماء بيضُ الوجوه، كأنّ وجوهَهم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحَنوطٌ من حنوط الجنة، حتىٰ يجلسوا منه مدّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه، فيقول: اخرجي أيّتها النفس المطمئنة، اخرجي إلىٰ مغفرة من الله ورضوان، فتخرجُ تسيل كما تسيل القطرة من في السِّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طَرفةَ عين حتىٰ يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحةِ مسكٍ وُجدت علىٰ وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلّا قالوا: ما هذا الروح الطيّب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمّونه بها في الدنيا، حتّىٰ ينتهوا به إلىٰ السماء الدنيا فيستفتحون له،**

(١) برقم (٢٨٠٧).

(٢) برقم (١٨٥٣٤)، وأبو داود (٣٢١٢، ٤٧٥٣)، وهناد في «الزهد» (٣٣٩)، والطبري في «التهذيب» (٧١٨، ٧٢٠، ٧٢١)، والحاكم (١٠٧)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٢٠، ٢١) وغيرهم، وقد صححه غير واحد.

فيفتح له، فيشيّعه من كل سماء مقرَّبُوها إلىٰ السماء التي تليها، حتىٰ يُنتهَىٰ به إلىٰ السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في علّيين، وأعيدوه إلىٰ الأرض، فإنّي منها خلقتُهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارةً أخرىٰ».

قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ﷻ، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأتُ كتاب الله، فآمنت به، وصدّقت، فينادي منادٍ من السماء أنْ صدق عبدي، فأفْرشُوه من الجنة، وألبِسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنة».

قال: «فيأتيه من رَوحها وطِيبها، ويُفسَح له في قبره مَدَّ بَصَرِه».

قال: «ويأتيه رجلٌ حسن الوجه، حسن الثياب، طيّب الريح، فيقول: أبشِرْ بالذي يسرّك، هذا يومك الذي كنتَ تُوعَد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: ربِّ أقِمِ الساعةَ، ربِّ أقِمِ الساعةَ، حتّىٰ أرجعَ إلىٰ أهلي ومالي».

قال: «وإنّ العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكةٌ سُود الوجوه، معهم المُسوح(١)، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت، حتىٰ يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلىٰ سَخَطٍ من الله وغضب».

قال: «فتَفَرَّقُ في جسده، فينتزعها كما يُنتزَع السَّفُّودُ(٢) من الصوف المبتلّ، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتىٰ يجعلوها في تلك المُسوح،

(١) جمع مسح، وهو كِساءٌ غليظٌ من الشَّعر.

(٢) السفّود: الحديدة التي يشوىٰ بها اللحم.

ويخرج منها كأنتن ريحِ جيفةٍ وُجدتْ علىٰ وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها علىٰ ملأ من الْمَلائكة إلّا قالوا: ما هذا الروحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فلانُ بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمَّىٰ بها في الدنيا، فيُسْتَفْتَح فلا يُفتَح له»، ثمّ قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، «فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلىٰ، فيُطرَح روحه طرحًا»، ثمّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، «فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيُجلِسانه، فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أنْ كذَبَ عبدي، فأفرِشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابًا إلىٰ النار، فيأتيه من حرّها وسَمومها، ويُضيَّق عليه قبرُه، حتّىٰ تختلف فيه أضلاعه. ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيحُ الثياب، منتنُ الريح، فيقول: أبشِرْ بالذي يسوءك! هذا يومك الذي كنت تُوعَد، فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشرّ، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ لا تُقِمَ الساعة».

وفي لفظٍ لأحمدَ أيضًا[(١)]: «ثمّ يُقيَّضُ له أعمىٰ أصمُّ أبكمُ، في يده مِرْزبّةٌ[(٢)]، لو ضرب بها جبلًا كان ترابًا، فيضربه ضربةً، فيصير ترابًا.

ثمّ يعيده الله ﷻ كما كان، فيضربه ضربةً أخرىٰ، فيصيح صيحةً يسمعها كلُّ شيء إلّا الثقلَين»، قال البراء: «ثمّ يفتح له بابٌ إلىٰ النار، ويُمهَد له من فُرُش النار».

(١) «المسند» (١٨٦١٤)، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٧٣٧)، والطبري في «تهذيب الآثار» (مسند عمر-٧٢٢)، والحاكم (١١٤)، وغيرهم.

(٢) المرزبّة: المطرقة الكبيرة التي تكون للحدّاد.

وفي «المسند» أيضًا[١] عنه، قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ؛ إذ بَصُر بجماعةٍ، فقال: **«علامَ اجتمع هؤلاء»**؟ قيل: على قبرٍ يحفرونه، ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر، فجثا على ركبتيه، فاستقبلتُه من بين يديه لأنظر ما يصنع؛ فبكى حتّى بلّ الثرى من دموعه، ثمّ أقبل علينا، فقال: **«أيْ إخواني، لمثل هذا اليوم فأعِدّوا»**.

وفي «المسند»[٢] من حديث بريدة، قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا، فنادى ثلاث مرات: **«يا أيّها الناس، تدرون ما مَثلي ومَثلُكم»**؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: **«إنّما مثلي ومثلكم مثلُ قومٍ خافوا عدوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلًا يتراءى لهم، فأبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس أُتِيتُم، أيها الناس أُتِيتم؛ ثلاث مرات»**.

وفي «صحيح مسلم»[٣] من حديث جابر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«كلُّ ما أسكَرَ حرام، وإنّ على الله ﷻ عَقْدًا لمن شرب المسكر أن يسقيَه من طينة الخبال»**، قيل: وما طينة الخَبال؟ قال: **«عرَق أهل النار، أو عصارة أهل النار»**.

وفي «المسند»[٤] أيضًا من حديث أبي ذرّ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون؛ أطّت السماء، وحُقَّ لها أن تئِطَّ! ما فيها موضعُ أربع أصابعَ إلّا وعليه ملَكٌ ساجدٌ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكَيتم**

(١) برقم (١٨٦٠١)، وابن ماجه (٤١٩٥)، والبخاري في «تاريخه» (١/ ٢٢٩)، بإسناد حسن.

(٢) برقم (٢٢٩٤٨)، وأخرجه الرامهرمزي في «أمثال الحديث» (٧)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٥٣).

(٣) برقم (٢٠٠٢).

(٤) برقم (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٣٨٨٣).

كثيرًا، وما تلذّذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات(١) **تَجأَرون إلى الله ﷻ**»، قال أبو ذرٍّ: والله لوددتُ أنّي شجرة تُعضَد(٢)!

وفي «المسند»(٣) أيضًا من حديث حذيفة، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فلما انتهينا إلى القبر قعد على شَأْفته، فجعل يردّد بصرَه فيه، ثمّ قال: «**يُضغَط المؤمن فيه ضغطةً تزول منها حمائلُه، ويُملأ على الكافر نارًا**».

والحمائل: عروق الأنثيين(٤).

وفي «المسند»(٥) أيضًا من حديث جابر، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفي، فلمّا صلّى عليه رسول الله ﷺ، ووُضِعَ في قبره، وسُويَّ عليه، سبّح رسول الله ﷺ، فسبّحنا طويلًا، ثمّ كبّر، فكبّرنا، فقيل: يا رسول الله، لم سبّحتَ ثمّ كبّرت؟ فقال: «**لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبرُه، حتّى فرّج الله عنه**».

وفي صحيح البخاري(٦) من حديث أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا وُضِعت الجنازة، واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحةً قالت: قدّموني، قدّموني؛ وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلَها! أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كلّ شيء إلّا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصَعِقَ**».

---

(١) هي الطرقات.

(٢) أي: تقطع.

(٣) برقم (٢٣٤٥٧)، وتمام في «فوائده» (الروض البسام- ٥١٨)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (١١٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٤٠٦) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) نقله الهروي عن الأزهري في «الغريبين» (٢/ ٤٥٧)، وزاد في «النهاية» (١/ ٤٤٢): «ويحتمل أن يراد به موضع حمائل السيف، أي: عواتقه وصدره وأضلاعه».

(٥) برقم (١٤٨٧٣)، والطبراني (٦/ ١٣)، والبخاري في «تاريخه» (١/ ١٤٨) مختصرًا، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (١١٠)، بإسناد فيه ضعف.

(٦) برقم (١٣١٤).

وفي مسند الإمام أحمد(١) من حديث أبي أمامة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**تدنو الشمس يوم القيامة علىٰ قدْر ميلٍ، ويُزاد في حرّها كذا وكذا، تغلي منها الرؤوس كما تغلي القدور، يعرَقون فيها علىٰ قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلىٰ كعبَيْه، ومنهم من يبلغ إلىٰ ساقيه، ومنهم من يبلغ إلىٰ وسطه، ومنهم من يُلجِمُه العرَق**».

وفيه عن ابن عباس(٢)، عن النبيِّ ﷺ قال: «**كيف أنعَمُ، وصاحب القَرْن قد التقم القرْنَ، وحَنىٰ جبهتَه يسمَع متىٰ يؤمر، فينفخ**»؟ فقال أصحابه: كيف نقول؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، علىٰ الله توكّلنا**».

وفي «المسند» أيضًا(٣) عن ابن عمر يرفعه: «**من تعظّم في نفسه، أو اختال في مشيته، لقيَ الله تبارك وتعالىٰ، وهو عليه غضبان**».

وفي الصحيحين(٤) عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ المصوّرين يُعذَّبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحْيُوا ما خلقتم**».

وفيهما أيضًا(٥) عنه عن النبيِّ ﷺ: «**إنّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداة والعشيّ؛ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتىٰ يبعثك الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة**».

---

(١) برقم (٢٢١٨٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٢٢)، بإسناد متكلم فيه، وهو عند مسلم (٢٨٦٤) بدون جملة «ويزاد في حرّها كذا وكذا، فتغلي منها الرؤوس».

(٢) «المسند» (٣٠٠٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٥٧٨)، والطبراني (١٢٦٧٠) وغيرهما من طريق جماعة عن عطية العوفي عن ابن عباس مرفوعًا فذكره، وعطية العوفي ضعيف الحديث، وقد صح من طريق أخرىٰ.

(٣) برقم (٥٩٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٩)، والحاكم (٢٠١)، وصححه.

(٤) البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٨).

(٥) البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

وفيهما أيضًا[١] عنه عن النبيِّ ﷺ: «**إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، جيء بالموت حتىٰ يوقَفَ بين الجنة والنار، ثمّ يذبح، ثمّ ينادي منادٍ: يا أهل الجنة، خلودٌ فلا موتٌ؛ ويا أهل النار، خلودٌ فلا موتٌ، فيزدادُ أهلُ الجنّة فرحًا إلىٰ فرحهم، ويزداد أهلُ النار حزنًا إلىٰ حزنهم**».

وفي «المسند»[٢] عنه قال: «**من اشترىٰ ثوبًا بعشرة دراهم، فيها درهمُ حرامٍ، لم يَقبل اللهُ له صلاةً ما دام عليه**»، ثمّ أدخل إصبَعيه في أذنيه، ثمّ قال: صُمَّتا إنْ لم أكن سمعتُ النبيَّ ﷺ يقوله.

وفيه [٣] عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «**من ترك الصلاة سكرًا مرةً واحدةً، فكأنّما كانت له الدنيا وما عليها، فَسُلِبَها، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات كان حقًّا علىٰ الله أن يسقيه من طِينة الخَبال**»، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «**عصارةُ أهل جهنم**».

وفيه أيضًا[٤] عنه مرفوعًا: «**مَن شرب الخمر شربةً لم يقبل الله له صلاةً أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإنْ عادَ لم يقبل له صلاةً أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه**»، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: «**فإن عاد كان حقًّا علىٰ الله أن يسقيه من رَدْغة الخبال[٥] يوم القيامة**».

وفي «المسند»[٦] أيضًا من حديث أبي موسىٰ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**من مات**

---

(١) البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).

(٢) برقم (٥٧٣٢)، وعبد بن حميد في المسند (المنتخب- ٨٤٩)، بإسنادٍ ضعيف.

(٣) «المسند» (٦٦٥٩)، والحاكم (٧٢٣٣)، والبيهقي (٨/ ٢٨٧)، بإسنادٍ ضعيف.

(٤) «المسند» (٦٦٤٤)، وابن ماجه (٣٣٧٧)، وابن حبان (٥٣٥٧)، وصححه.

(٥) الردغة: طين ووحل كثير، وفي الحديث: «أنّها عصارة أهل النار».

(٦) برقم (١٩٥٦٩)، وابن حبان (٥٣٤٦)، والحاكم (٧٢٣٤)، وأبو يعلىٰ (٧٢٤٨)، وغيرهم، وفي إسناده مقال.

مدمنًا للخمر سقاه الله من نهر الغوطة»، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: «**نهر يجري من فرُوج المُومِسات، يؤذي أهلَ النار ريحُ فروجهنّ**».

وفيه عنه[(١)] أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُعرَض الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عرَضات: فأمّا عرضتان فجدال ومعاذير، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله**».

وفي «المسند» أيضًا[(٢)] من حديث ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إيّاكم ومحقَّراتِ الذنوب، فإنّهنّ يجتمعْنَ علىٰ الرجل حتىٰ يهلكْنَه**»، وضرب لهنّ رسول الله ﷺ مثلًا: «**كمثل قوم نزلوا أرضَ فَلاةٍ، فحضر صنيعُ القوم[(٣)]، فجعل الرجلُ ينطلقُ، فيجيءُ بالعُود، والرجلُ يجيءُ بالعود، حتىٰ جمعوا سوادًا، وأجّجوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها**».

وفي «الصحيح» من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يُضربُ الجسرُ علىٰ جهنم، فأكون أولَ من يُجيز، ودعوىٰ الرسل يومئذ: اللهم سلِّمْ سَلِّمْ، وحافتَيه كلاليبُ مثل شوك السَّعدان، تخطَف الناسَ بأعمالهم، فمنهم الموبَق بعمله، ومنهم المخردل[(٤)] ثمّ ينجو، حتّىٰ إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخرِجَ من الناس مَن أراد أن يرحم ممّن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكةَ أن يُخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود. وحرّم الله علىٰ النار أن تأكل من ابن**

---

(١) «المسند» (١٩٧١٥)، وابن ماجه (٤٢٧٧)، والترمذي (٢٤٢٥) مرفوعًا، والصحيح وقفه.

(٢) برقم (٣٨١٨)، والطيالسي (٤٠٠)، والطبراني (١٠/ ٢٦١)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٣١٩) وغيرهم، بإسناد ضعيف.

(٣) يعني طعامهم.

(٤) من خردل اللحم: قطعه، وقيل: خردل بمعنىٰ صدَع، ورواه بعضهم بالجيم أيضًا.

آدم أثرَ السجود، فيُخرجونهم، قد امتَحَشُوا[(١)]، فيُصَبّ عليهم من ماء يقال له: ماءُ الحياة، فينبتون نباتَ الحِبّةِ[(٢)] في حَميل السيل»[(٣)].

وفي صحيح مسلم[(٤)] عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ أولَ الناس يُقضىٰ فيه يوم القيامة ثلاثة: رجلٌ استُشْهِد، فأُتي به، فعرّفه نعمَه، فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ قُتِلتُ، قال: كذبتَ، ولكن قاتلتَ ليقال: هو جريء، فقد قيل، ثمّ أُمِرَ به، فسُحِبَ علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار، ورجلٌ تعلَّم العلمَ وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتيَ به، فعرّفه نعمَه، فعرَفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ فيك العلمَ وعلّمته، وقرأتُ فيك القرآن، فقال كذبتَ، ولكنّك تعلّمت ليقال: هو عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثمّ أُمِرَ به، فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار، ورجلٌ وسّع الله عليه رزقَه، وأعطاه من أصناف المال كلّه، فأُتي به، فعرّفه نعمه، فعرَفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ فقال: ما تركتُ من سبيل تحبّ أن يُنفَق فيها إلّا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنّك فعلتَ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار**».

وفي لفظٍ: «**فهؤلاء أوّلُ خلق الله تسعَّر بهم النار يوم القيامة**»[(٥)].

وسمعتُ شيخ الإسلام يقول: كما أنّ خير الناس الأنبياء، فشرّ الناس من تشبّه بهم من الكذّابين، وادّعىٰ أنّه منهم، وليس منهم[(٦)].

---

(١) بفتح التاء والحاء، أي: احترقوا.

(٢) بكسر الحاء: بزر البقول والعشب تنبت في البراري وجوانب السيول.

(٣) البخاري (٦٥٧٣) ومواضع أخر، ومسلم (١٨٢).

(٤) برقم (١٩٠٥).

(٥) أخرجه الترمذي في أبواب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة.

(٦) انظر في معنىٰ هذا الكلام: «العقيدة الأصفهانية» (١٢١).

فخير الناس بعدهم العلماءُ والشهداءُ والمتصدّقون المخلصون، فشرُّ الناس مَن تشبّه بهم، يُوهم أنّه منهم، وليس منهم.

وفي صحيح البخاري[١] من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: **«مَن كانت عنده لأخيه مظلمةٌ في مالٍ أو عِرْضٍ فَلْيأْتِه، فَلْيستحِلَّها منه قبل أن يؤخذ، وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أُخِذَ من حسناته، فأُعطِيَها هذا؛ وإلّا أُخِذَ من سيئات هذا، فطُرِحَت عليه، ثم طُرِح في النار»**.

وفي «الصحيح» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: **«من أخذ شبرًا من الأرض بغير حقّه خُسِفَ به يوم القيامة إلىٰ سبع أرَضين»**[٢].

وفي الصحيحين[٣] عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ناركم هذه التي يُوقِد بنو آدم جزءٌ واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم»**، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: **«فإنّها قد فُضّلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلّهن مثل حرّها»**.

وفي «المسند»[٤] عن معاذ قال: أوصاني رسول الله ﷺ، فقال: **«لا تشرك بالله شيئًا، وإن قُتِلتَ وحُرِّقتَ، ولا تَعُقَّنَّ والدَيك، وإن أمراك أن تخرُج من أهلك ومالك، ولاتتركَنَّ صلاةً مكتوبةً متعمّدًا، فإنّ من ترك صلاة مكتوبة متعمّدًا فقد برئت منه ذمةُ الله، ولا تشرَبنّ خمرًا، فإنّه رأس كلّ فاحشة، وإيّاك والمعصيةَ، فإنّ المعصية تُحِلُّ سخَطَ الله»**.

والأحاديث في هذا الباب أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا، فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامىٰ عنها، ويرسل نفسه في المعاصي، ويتعلّق بحبل الرَّجاء وحسن الظنّ.

---

(١) برقم (٢٤٤٩).

(٢) البخاري (٢٤٥٤)، (٣١٩٦)، وحديث أبي هريرة أخرجه مسلم (١٦١١) بلفظ قريب.

(٣) البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٤) برقم (٢٢٠٧٥)، وفيه انقطاع.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذَرْه ولا تغترَّ، فإنّه قطع اليد في ثلاثة دراهم(١)، وجلد الحدّ في مثل رأس الإبرة من الخمر(٢)، وقد دخلت امرأةٌ النارَ في هرّة(٣)، واشتعلت الشملة نارًا علىٰ مَنْ غلّها وقد قُتِل شهيدًا(٤).

وقال الإمام أحمد(٥): حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «**دخل رجلٌ الجنةَ في ذبابٍ، ودخل النارَ رجل في ذبابٍ**»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**مرّ رجلان علىٰ قومٍ لهم صنمٌ لا يجوزه أحدٌ حتىٰ يقرِّبَ له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قَرِّب، فقال: ليس عندي شيء، قالوا له: قرِّبْ ولو ذبابًا، فقرَّب ذبابًا، فخلَّوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قَرِّب، فقال: ما كنتُ لأقرّب لأحدٍ شيئًا دون الله عَجَّلَك، فضربوا عنقه، فدخل الجنّة**».

وهذه الكلمةُ الواحدةُ يتكلَّم بها العبدُ يهوي بها في النار أبْعدَ ما بين المشرق والمغرب(٦).

وربما اتّكل بعضُ المغترّين علىٰ ما يرىٰ من نِعَم الله عليه في الدنيا، وأنّه لا يغيِّر به، ويظنّ أنّ ذلك من محبّة الله له، وأنّه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، وهذا من الغرور.

(١) يشير إلىٰ حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قطعَ في مجنّ ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجه البخاري (٦٧٩٥ - ٦٧٩٨)، ومسلم (١٦٨٦).

(٢) لعله علىٰ سبيل المبالغة، والمقصود قليل الخمر، وقد تقدم في ص (٤٠) حديث «كل ما أسكر حرام»، وقد أخرج أصحابُ السنن من حديث جابر بن عبد الله: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، انظر مثلًا: «سنن أبي داود» (ح٣٦٨١).

(٣) يشير إلىٰ حديث ابن عمر، الذي أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٤) هذا ما أخرجه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) في الزهد (٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٣)، وسنده صحيح.

(٦) يشير إلىٰ ما أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الإمام أحمد[١]: حدثنا يحيىٰ بن غيلان، حدثنا رِشدين بن سعد، عن حرملة ابن عمران التجيبي، عن عُقْبة بن مسلم، عن عُقْبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتَ الله عَزَّ وَجَلَّ يعطي العبدَ من الدنيا علىٰ معاصيه ما يُحِبّ؛ فإنّما هو استدراج**»، ثّم تلا قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع نعمَه عليك، وأنت مقيمٌ علىٰ معاصيه، فاحذره؛ فإنّما هو استدراجٌ يستدرجك به[٢].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥]، وقد ردّ سبحانه علىٰ مَنْ يظنُّ هذا الظنَّ بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر:١٥-١٧]؛ أي: ليس كلُّ من نعّمتُه ووسّعتُ عليه رِزْقَه أكون قد أكرمتُه، ولا كلُّ من ابتليتُه وضيّقت عليه رزْقَه أكون قد أهنتُه؛ بل أبتلي هذا بالنِّعمة، وأكرمُ هذا بالابتلاء.

(١) في «المسند» (١٧٣١١)، و«الزهد» (٦٢)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ١٩٥)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٧٢) وغيرهم، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء».

(٢) من قول أبي حازم الأعرج، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٦٤) وغيرهم، وقد ذكره المؤلّف في كتاب «الروح» (٥٤٥).

وفي «جامع الترمذي»[1] عنه ﷺ: «**إنّ الله يعطي الدنيا مَن يُحِبّ ومَن لا يُحِبّ، ولا يعطي الإيمان إلا من يُحِب**».

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرَجٍ بنِعَم الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مغرورٍ بسَتْر الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتونٍ بثناء الناس عليه[2] وهو لا يعلم.

ص(٧٩)

فصل

وأعظمُ الخلق غرورًا مَنِ اغترّ بالدنيا وعاجلها، فآثرها علىٰ الآخرة، ورضي بها من الآخرة، حتّىٰ يقولَ بعضُ هؤلاء: الدنيا نقدٌ، والآخرة نسيئةٍ، والنقدُ أنفعُ من النسيئة! ويقول بعضهم: ذَرّةٌ منقودةٌ، ولا دُرّةٌ موعودةٌ! ويقول آخر منهم: لذّاتُ الدنيا متيقَّنةٌ، ولذات الآخرة مشكوكٌ فيها، ولا أدعُ اليقينَ للشكّ!

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهائم العُجْم أعقلُ من هؤلاء، فإنّ البهيمة إذا خافت مضرّةَ شيء لم تُقْدِم عليه، ولو ضُرِبَتْ، وهؤلاء يُقدِم أحدُهم علىٰ عطَبه، وهو بين مصدّق ومكذّب، فهذا الضرب إنْ آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء، فهو من أعظم الناس حسرةً؛ لأنّه أقدم علىٰ علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله، فأبْعِدْ له!

وقول هذا القائل: «النقدُ خيرٌ من النسيئة».

فجوابه: أنّه إذا تساوىٰ النقدُ والنسيئة؛ فالنقد خير، وإن تفاوتا وكانت النسيئة

(١) لم أقف عليه في المطبوع، والحديث أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، والبخاري في «تاريخه» (٤/ ٣١٣)، والشاشي في «مسنده» (٨٧٧) مختصرًا، والحاكم (٣٦٧١)، والبزار في «مسنده» (٢٠٢٦) وغيرهم، وهو ضعيف مرفوعًا، صحيح موقوفًا علىٰ ابن مسعود.

(٢) ضمّن المؤلّف هذا الأثر كلامًا له في «مدارج السالكين» (١/ ١٧٢)، أخرجه أحمد في الزهد (١٦٠٦) عن الحسن البصري بمعناه. وسنده صحيح.

أكثرَ وأفضل؛ فهي خير، فكيف والدنيا كلّها من أولها إلىٰ آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة! كما في مسند الإمام أحمد والترمذي[١] من حديث المستورِد بن شدّاد قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلّا كما يُدخِلُ أحدُكم إصبَعَه في اليمّ، فلينظُرْ بمَ ترجع**»؟

فإيثار هذا النقد علىٰ هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل.

وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلىٰ الآخرة، فما مقدار عُمُرِ الإنسان بالنسبة إلىٰ الآخرة؟ فأيُّما أولىٰ بالعاقل: إيثارُ العاجل في هذه المدّة اليسيرة وحرمانُ الخير الدائم في الآخرة، أم تركُ شيءٍ حقيرٍ صغيرٍ منقطعٍ عن قرب ليأخذ ما لا قيمة له[٢]، ولا خطرَ له[٣]، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده.

وأمّا قول الآخر: «لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه».

فيقال له: إمّا أنْ تكون علىٰ شكٍّ من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون علىٰ يقين من ذلك: فإن كنت علىٰ يقينٍ، فما تركتَ إلّا ذرةً عاجلةً منقطعةً فانيةً عن قرب، لأمر متيقَّن لا شكَّ فيه ولا انقطاع له.

وإن كنتَ علىٰ شكٍّ، فراجعْ آياتِ الربّ تعالىٰ الدالّة علىٰ وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته، وصدق رُسُله فيما أخبروا به عنه.

وتجرَّدْ، وقُمْ لله ناظرًا أو مناظرًا، حتىٰ يتبيّن لك أنّ ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحقّ الذي لا شكّ فيه، وأنّ خالق هذا العالم وربّ السموات والأرض يتعالىٰ ويتقدس ويتنزّه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه، ومن نسبه إلىٰ غير ذلك

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وأحمد (١٨٠٠٨)، والترمذي (٢٣٢٢)، وغيرهم.

(٢) أي: لا يقدر ثمنه من عزّته ونفاسته وعظم قَدْره.

(٣) أي: لا عوض عنه ولا نظير له.

فقد شتمه، وكذّبه، وأنكر ربوبيته وملكه؛ إذْ من المحال الممتنع عند كلّ ذي فطرة سليمة أن يكون الملِك الحقّ عاجزًا أو جاهلًا، لا يعلم شيئًا، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلّم، ولا يأمر ولا ينهىٰ، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعزّ من يشاء ولا يذلّ من يشاء، ولا يرسل رسله إلىٰ أطراف مملكته ونواحيها، ولا يعتني بأحوال رعيّته، بل يتركهم سدًىٰ، ويخلّيهم همَلًا.

وهذا يقدح في مُلك آحاد ملوكِ البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة الملِك الحقّ المبين إليه؟

وإذا تأمّل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفةً إلىٰ حين كماله واستوائه، تبيّن له أنّ مَنْ عني به هذه العناية، ونَقَله إلىٰ هذه الأحوال، وصرّفه في هذه الأطوار، لا يليق به أن يهمله ويتركه سدًىٰ، لا يأمره ولا ينهاه، ولا يعرّفه حقوقَه عليه، ولا يثيبه ولا يعاقبه.

ولو تأمّل العبدُ حقّ التأمل لكان كلّ ما يبصره وما لا يبصره دليلًا له علىٰ التوحيد والنّبوّة والمعاد، وأنّ القرآن كلامه، وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب «أيمان القرآن»[1] عند قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠].

وذكرنا طرفًا من ذلك عند قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، وأنّ الإنسان دليلٌ لنفسه علىٰ وجود خالقه، وتوحيده، وصدق رسله، وإثبات صفات كماله[2].

فقد بان أنّ المضيِّعَ مغرورٌ علىٰ التقديرين: تقديرِ تصديقه ويقينه، وتقديرِ تكذيبه وشكّه.

---

(١) وهو المطبوع بعنوان «التبيان في أقسام القرآن» ص (١٠٩).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (١٩٠).

فإن قلت: كيف يجتمع التصديقُ الجازمُ الذي لا شكَّ فيه بالمعاد والجنة والنار، ويتخلّف العمل[١]؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلمَ العبدُ أنّه مطلوبٌ غدًا إلىٰ بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشدَّ عقوبةٍ، أو يكرمه أتمَّ كرامةٍ، ويبيت ساهيًا غافلًا، لا يتذكّر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعدّ له، ولا يأخذ له أهبتَه؟

قيل: هذا -لعمرُ الله- سؤالٌ صحيحٌ واردٌ علىٰ أكثر هذا الخلق، واجتماعُ هذين الأمرين من أعجب الأشياء.

وهذا التخلّف له عدّة أسباب:

أحدها: ضعفُ العلم ونقصانُ اليقين، ومن ظنّ أنّ العلم لا يتفاوت، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها، وقد سأل إبراهيمُ الخليلُ ربَّه أن يُريَه إحياءَ الموتىٰ عيانًا، بعد علمه بقدرة الربّ علىٰ ذلك؛ ليزداد طمأنينةً، ويصير المعلوم غيبًا شهادةً.

وقد روىٰ أحمد في «مسنده»[٢] عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[٣].

فإذا اجتمع إلىٰ ضعفِ العلم عدمُ استحضاره وغَيبتُه عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها؛ لاشتغاله بما يضادّه، وانضمّ إلىٰ ذلك تقاضي الطبع، وغلَباتُ الهوىٰ، واستيلاءُ الشهوة، وتسويلُ النفس، وغرورُ الشيطان، واستبطاءُ الوعد، وطولُ الأمل، ورقدةُ الغفلة، وحبُّ العاجلة، ورُخَصُ التأويل، وإلفُ العوائد = فهناك لا يمسك الإيمانَ إلّا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

ولهذا السبب يتفاوت الناسُ في الإيمان حتىٰ ينتهيَ إلىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقالِ ذرّةٍ في القلب.

---

(١) كذا في النُّسخ! وفي حاشية (س): «تخلّف»، وهو الصواب، ومقصودُ المؤلف ظاهرٌ.

(٢) برقم (١٨٤٢، ٢٤٤٧)، وابن حبان (٦٢١٣)، والحاكم (٣٢٥٠)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٥)، وصحّحه ابنُ حبان والحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) ورد هذا اللفظ من حديث أنس بن مالك عند ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٩١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ٤١٨)، وهو حديث منكر.

وجمَاعُ هذه الأسباب يرجعُ إلىٰ ضعفِ البصيرة والصبر.

ولهذا مَدحَ الله سبحانه أهلَ الصبر واليقين، وجعلَهم أئمّة الدين، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ص(٨٦)

فصل

فقد تبيّن الفرقُ بين حسن الظنّ والغرور، وأنّ حسنَ الظنّ إنْ حُملَ علىٰ العمل، وحثَّ عليه، وساق إليه؛ فهو صحيح، وإن دعا إلىٰ البطالة والانهماك في المعاصي؛ فهو غرور.

وحسنُ الظنِّ هو الرجاءُ: فمن كان رجاؤه حاديًا له علىٰ الطاعة، زاجرًا له عن المعصية؛ فهو رجاءٌ صحيح، ومن كانت بطالتُه رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطًا؛ فهو المغرور.

ولو أنّ رجلًا له أرضٌ يؤمّل أن يعود عليه من مُغَلِّها ما ينفعه فأهملها، ولم يبذُرها، ولم يحرثها، وأحسن ظنّه بأنّه يأتي من مغلّها ما يأتي مَن حَرَث، وبَذَر، وسقَىٰ، وتعاهَد الأرضَ؛ لعدَّه الناسُ من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسّن ظنَّه وقوّىٰ رجاءَه بأنْ يجيئه ولدٌ من غير جماع، أو يصيرَ أعلمَ أهل زمانه من غير طلبٍ للعلم، وحرصٍ تامّ عليه، وأمثال ذلك.

فكذلك من حسّن ظنَّه، وقوّىٰ رجاءَه في الفوز بالدرجات العلىٰ والنعيم المقيم، من غير طاعة ولا تقرّب إلىٰ الله تعالىٰ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. وبالله التوفيق.

وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فتأمَّلْ كيف جعل رجاءَهم إتيانَهم بهذه الطاعات! وقال المغترون: إنّ المفرِّطين

المضيِّعين لحقوق الله، المعطِّلين لأوامره، الباغين علىٰ عباده، المتجرّئين علىٰ محارمه = أولئك يرجون رحمة الله!

وسرّ المسألة أنّ الرَّجاءَ وحسنَ الظنِّ إنّما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمةُ الله في شرعه، وقدَره، وثوابه وكرامته؛ فيأتي العبد بها، ثمّ يحسن ظنّه بربه، ويرجوه أن لا يكِلَه إليها، وأن يجعلها موصلةً إلىٰ ما ينفعه، ويصرف ما يعارضها، ويبطل أثرها.

فصـــل

ص(٨٧)

وممّا ينبغي أن يعلم أنّ من رَجَا شيئًا استلزم رجاؤه أمورًا:

أحدها: محبّة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأمّا رجاءٌ لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني! والرجاء شيء، والأماني شيء آخر، فكلُّ راجٍ خائفٌ، والسائر علىٰ الطريق إذا خاف أسرَعَ السيرَ مخافةَ الفوات.

وفي «جامع الترمذي»[1] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن خاف أدلَجَ، ومَنْ أدْلَجَ بلغَ المنزلَ، ألَا إنّ سلعةَ الله غالية، ألَا إنّ سلعةَ الله الجنّة»**.

وهو سبحانه كما جعل الرَّجاءَ لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال، فعُلِمَ أنّ الرَّجاءَ والخوفَ النافعَ هو ما اقترن به العمل، قال الله تعالىٰ:

(١) برقم (٢٤٥٠)، والبخاري في «تاريخه» (٢/ ١١١)، وعبد بن حميد (المنتخب- ١٤٦٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٠٦)، والحاكم (٧٨٥١) وغيرهم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من حديث أبي النضر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

وقد روى الترمذي في «جامعه»[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أَهُمُ الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنّهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدّقون، ويخافون أن لا يُتقبَّل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**».

وقد رُوي من حديث أبي هريرة أيضًا[2].

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمّل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير -بل التفريط- والأمن! فهذا الصدّيق يقول: «وددتُ أنّي شعرة في جنب عبد مؤمن»، ذكره أحمد عنه[3].

وذُكِرَ عنه أنّه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد![4].

وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا، فإنْ لم تبكُوا فتباكَوا[5].

---

(١) برقم (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩)، وأحمد (٢٥٢٦٣)، والطبري (١٨/ ٢٦)، والحاكم (٣٤٨٦) وغيرهم، بإسناد ضعيفٍ.

(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ٣٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٥)، وفي إسناده كلام.

(٣) في «الزهد» (٥٥٩)، وفي سنده ضعف.

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (٥٦١)، ومالك في «الموطأ» (٢٨٢٥)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٥٧٩) وغيرهما. بإسناد صحيح.

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (٥٥٨).

وكان إذا قام إلىٰ الصلاة كأنّه عُودٌ من خشية الله ﷻ[١].

وأتي بطائر، فقلّبه، ثمّ قال: ما صِيدَ مِن صَيدٍ ولا قُطعت من شجرة إلّا بما ضيّعَتْ من التسبيح[٢].

ولما احتُضِرَ قال لعائشة: يا بنيّة، إنّي أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة، وهذا الحِلاب[٣]، وهذا العبد، فأسرعي به إلىٰ ابن الخطاب[٤].

وقال: والله لودِدتُ أنّي كنتُ هذه الشجرة، تُؤكَلُ وتُعضدُ![٥].

وقال قتادة: بلغني أنّ أبا بكر قال: ودِدتُ أنّي خَضِرةٌ تأكلني الدوابّ[٦].

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور حتّىٰ بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور:٧]، فبكىٰ، واشتدّ بكاؤه، حتىٰ مرض وعادُوه[٧].

وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضَعْ خدّي علىٰ الأرض عساه أن يرحمني، ثمّ قال: ويلُ أمّي إن لم يغفر لي، ثلاثًا، ثمّ قضىٰ[٨].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٢٦٤)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٤)، وغيرهما، وفيه انقطاع.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٥٦٦).

(٣) الحِلاب والمِحلَب: الإناء الذي يحلب فيه اللبن.

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (٥٦٧).

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (٥٨٠).

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (٥٨٢).

(٧) لم أقف عليه، لكن أخرج ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٠٠) من طريق الشعبي عن عمر بن الخطاب بنحوه، وهو لم يدركه، وفي الرواية نكارة.

(٨) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٦)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩١٨).

وكان يمرّ بالآية في وِرده بالليل، فتخنقه، فيبقىٰ في البيت أيّامًا يُعاد، يحسبونه مريضًا(١).

وكان في وجهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطّان أسودان من البكاء (٢).

وقال له ابن عباس: مصّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل، فقال: وددتُ أنّي أنجو، لا أجرَ ولا وِزرَ(٣).

وهذا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا وقف علىٰ القبر يبكي حتىٰ يبلّ لحيتَه(٤).

وقال: لو أنّني بين الجنّة والنار، لا أدري إلىٰ أيّهما يؤمر بي؛ لاخترتُ أنْ أكون رمادًا، قبل أن أعلم إلىٰ أيّهما أصير (٥).

وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتدّ خوفُه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوىٰ، قال: فأمّا طول الأمل فيُنْسي الآخرة، وأمّا اتباع الهوىٰ فيصدّ عن الحقّ، ألَا وإنّ الدنيا قد ولّت مدبرةً، والآخرةُ مقبلةٌ، ولكلّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ اليومَ عملٌ ولا حسابَ، وغدًا حسابٌ ولا عملَ (٦).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٦٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥١)، وفي سنده ضعف.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٦٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥١) وغيرهما.

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٦٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩١٥)، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٥٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وأحمد (٤٥٤)، والحاكم (٧٩٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (٦٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٠).

(٦) أخرج بعضَه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم في كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله.

وأخرجه أحمد في «الزهد» (٦٩٢)، وأبو داود في «الزهد» (١١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٦) وغيرهم.

وهذا أبو الدرداء كان يقول: إنّ أشدّ ما أخاف علىٰ نفسي يوم القيامة أنْ يُقال لي: يا أبا الدرداء قد علمتَ، فكيف عملتَ فيما علمتَ(١)؟

وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا علىٰ شهوة، ولا شربتم شرابًا علىٰ شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظِلّون فيه، ولخرجتم إلىٰ الصعيد، تضربون صدوركم، وتبكون علىٰ أنفسكم. ولَوددتُ أنّي شجرة تُعضَد ثمّ تؤكل(٢).

وكان عبد الله بن عباس أسفلَ عينَيه مثلُ الشِّراك البالي من الدموع(٣).

وكان أبو ذرّ يقول: يا ليتني كنتُ شجرةً تعضَد، وودتُ أنّي لم أُخْلَق(٤).

وعُرضت عليه النفقة فقال: عندنا عَنْزٌ نحلبُها، وأحمِرَة ننقل عليها، ومحرَّرٌ يخدمنا، وفضل عباءة، وإنّي أخاف الحسابَ فيها(٥).

وقرأ تميم الداري ليلةً سورة الجاثية، فلمّا أتىٰ علىٰ هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، جعل يردّدها ويبكي حتىٰ أصبح(٦).

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٣).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٣).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٧٨٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٨٩)، وابن أبي شيبة (٣٥٥٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٩)، وسنده حسن.

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٨٧)، وفي سنده انقطاع، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٤) نحوه بأطول منه، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٨٦) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٣).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١)، ووكيع في «الزهد» (١٥٠)، وأبو داود في «الزهد» (٣٩٤)، وغيرهم.

وقال أبو عبيدة بن الجراح: وددت أنّي كبش، فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي، وحَسَوا مرَقي [١].

وهذا باب يطول تتبّعه.

قال البخاري في «صحيحه»[٢]: باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

وقال إبراهيم التَّيمي: ما عرضتُ قولي علىٰ عملي إلّا خشيتُ أنْ أكونَ مكذَّبًا[٣].

وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلُّهم يخاف النفاقَ علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول إنّه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل[٤].

ويذكر عن الحسن: ما خافه إلّا مؤمن، ولا أمِنَه إلّا منافق[٥].

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشُدك الله، هل سمّاني لك رسول الله ﷺ؟ يعني في المنافقين فيقول: لا، ولا أزكّي بعدك أحدًا[٦].

فسمعتُ شيخنا رحمه الله[٧] يقول: ليس مراده أنّي لا أبرّئ غيرك من النفاق، بل المراد: لا أفتح عليّ هذا الباب، فكلّ من سألني: هل سمّاني لك رسول الله ﷺ؟ فأزكيه.

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٠٢٥)، قتادة لم يدرك أبا عبيدة.

(٢) في كتاب الإيمان، باب رقم ٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في «تاريخه» (١/ ٣٣٥)، وأحمد في «الزهد» (٢٢١٥) بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٥/ ١٣٧)، وابن أبي خيثمة في «تاريخه» (٦٥١)، وسنده حسن.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في الإيمان (فتح الباري لابن رجب ١/ ١٨٠)، والفريابي في «المنافقين» (٨٧)، وقال ابن رجب: فهذا مشهور عن الحسن، صحيح عنه.

(٦) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٤٢)، وصحَّح إسناده ابنُ حجر.

(٧) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية.

قلت: وقريبٌ من هذا قولُ النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنّة بغير حساب: «**سبقك بها عكاشة**»(١)، ولم يُرِد أنّ عكاشة وحدَه أحقُّ بذلك ممّن عداه من الصحابة؛ ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر، وانفتح الباب، وربّما قام مَنْ لم يستحقّ أن يكون منهم، فكان الإمساك أولىٰ، والله أعلم.

فصل

ص(٩٨)

فلنرجع إلىٰ ما كنّا فيه من ذكر دواء الداء الذي إن استمرّ أفسد دنيا العبد وآخرته.

فممّا ينبغي أن يعلم أنّ الذنوب تضرّ ولا بدّ، وأنّ ضررَها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، علىٰ اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرٌّ وداءٌ إلّا وسببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنّة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلىٰ دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرَدَه ولعَنَه، ومسَخَ ظاهره وباطنه، فجُعِلَتْ صورتُه أقبحَ صورة وأشنعها؛ وباطنُه أقبحَ من صورته وأشنع؟ وبُدِّل بالقرب بُعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظّىٰ، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظمَ عداوةٍ ومشاقّةٍ، وبزجَل التسبيح والتقديس والتهليل زَجَلَ الكفر والشرك والكذب والزور والفحشِ، وبلباس الإيمان لباسَ الكفر والفسوق والعصيان. فهان علىٰ الله غايةَ الهوان، وسقط من عينه غايةَ السقوط، وحلّ عليه غضبُ الربّ تعالىٰ فأهواه، ومقَتَه أكبر المقت فأرداه، فصار قوّادًا لكلّ فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة، بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي غرّق أهل الأرض كلّهم حتىٰ علا الماء فوق رؤوس الجبال؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة.

وما الذي سلّط الريح العقيم علىٰ قوم عاد حتىٰ ألقتهم موتىٰ علىٰ وجه الأرض، كأنّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ، ودمّرت ما مرّت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابّهم حتىٰ صاروا عبرةً للأمم إلىٰ يوم القيامة.

وما الذي أرسل علىٰ قوم ثمود الصيحةَ حتىٰ قطّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرىٰ اللوطيّة حتىٰ سمعت الملائكة نبيحَ كلابهم، ثم قَلَبها عليهم، فجعل عالِيَها سافلها، فأهلكهم جميعًا، ثمّ أتبعهم حجارةً من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه علىٰ أمّةٍ غيرهم، ولإخوانهم أمثالُها، وما هي من الظالمين ببعيد!

وما الذي أرسل علىٰ قوم شعيب سحابَ العذاب كالظُّلل، فلمّا صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظّىٰ؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نُقلت أرواحُهم إلىٰ جهنّم. فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمّرها تدميرًا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتىٰ خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث علىٰ بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرّية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال. ثمّ بعثهم عليهم مرّةً ثانيةً، فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبّروا ما علوا تتبيرًا؟

وما الذي سلّط عليهم أنواع العقوبات مرّةً بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرّةً بجور الملوك، ومرّةً بمسخهم قردةً وخنازير؟ وآخر ذلك أقسم الربُّ تبارك

وتعالىٰ: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

قال الإمام أحمد[1]: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، قال: لَمّا فتحت قبرس فُرِّق بين أهلها، فبكىٰ بعضهم إلىٰ بعض، ورأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يومٍ أعزّ الله فيه الإسلامَ وأهلَه؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهونَ الخلقَ علىٰ الله ﷻ إذا أضاعوا أمره! بينما هي أمةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم الملك، تركوا أمرَ الله، فصاروا إلىٰ ما ترىٰ!

وقال علي بن الجعد[2]: أنبأنا شعبة، عن عمرو بن مرّة قال: سمعتُ أبا البَخْتَري يقول: أخبَرَني من سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**لن يَهْلِكَ الناسُ حتىٰ يُعذِروا من أنفسهم**».

وفي «مسند أحمد»[3] من حديث أمِّ سلمة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمّتي عمّهم الله بعذاب من عنده**»، فقلت: يا رسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: «**بلىٰ**»، قالت: فكيف يُصنَع بأولئك؟ قال: «**يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلىٰ مغفرةٍ من الله ورضوان**».

وفي مراسيل الحسن عن النبيِّ ﷺ: «**لا تزال هذه الأمةُ تحت يدِ الله وفي كنَفه، ما لم يُمالِئْ قُرّاؤُها أمراءَها، وما لم يُزَكِّ صلحاؤُها فجّارَها، وما لم يُهِنْ خيارَها شِرارُها، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يدَه عنهم، ثم سلّط عليهم جبابرتهم، فساموهم**

(١) في «الزهد» (٧٦٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢٦٦٠)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٦- ٢١٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٨٦) مختصرًا، وسنده صحيح.

(٢) في «مسنده» (١٣٢)، وأبو داود (٤٣٤٧)، وأحمد (١٨٢٨٩)، وسنده صحيح.

(٣) برقم (٢٦٥٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣٢٥-٣٢٦)، بإسنادٍ ضعيف، وله شواهد.

سوءَ العذاب، ثمّ ضربهم الله بالفاقة والفقر»[١].

وفي «المسند»[٢] من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الرجل ليُحْرَم الرزقَ بالذنب يصيبه**».

وفيه أيضًا[٣] عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تتداعىٰ عليكم الأمم من كلّ أفق، كما تَداعَىٰ الأكَلَةُ علىٰ قَصْعتها**»، قلنا: يا رسول الله أمِنْ قلّةٍ بنا يومئذ؟ قال: «**أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غثاءٌ كغثاء السيل؛ تُنزَع المهابةُ من قلوب عدوّكم، ويُجعل في قلوبكم الوَهْنُ**»، قالوا: وما الوهن؟ قال: «**حبُّ الحياة، وكراهةُ الموت**».

وفي «المسند»[٤] من حديث أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لمّا عُرِجَ بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخمِشون وُجوهَهم وصُدورَهم**»، **فقلتُ**: من هؤلاء يا جبريل؟ **قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**».

وفي جامع الترمذي[٥] من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يخرج في آخر الزمان قوم يختِلون الدنيا بالدين**[٦]**، ويلبسون للناس مُسُوكَ الضأن**[٧] **من اللين، ألسنتهم أحلىٰ من السكّر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله ﷻ: أبي يغترّون؟ وعليّ**

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢١) وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٤) وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٣٣١)، وسنده ضعيف إلىٰ الحسن.

(٢) تقدّم تخريجه في ص (١٤).

(٣) «المسند» (٢٢٣٩٧)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٥)، والطبراني (١٤٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٢)، وسنده لا بأس به.

(٤) تقدم تخريجه في ص (٣٧).

(٥) برقم (٢٤٠٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٠)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٧)، وهناد في «الزهد» (٨٦٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٩٤)، بإسناد ضعيف.

(٦) أي: يطلبون الدنيا بعمل الآخرة.

(٧) المسوك: الجلود، جمع مَسْك.

يجترئون؟ فبي حلفتُ، لأبعثنّ علىٰ أولئك منهم فتنةً تدَعُ الحليمَ فيهم حيرانًا».

وذكر ابن أبي الدنيا[١] من حديث جعفر بن محمَّد عن أبيه عن جدّه قال: قال عليّ: يأتي علىٰ الناس زمانٌ لا يبقىٰ من الإسلام إلّا اسمُه، ولا من القرآن إلّا رسمُه، مساجدهم يومئذ عامرة، وهي خراب من الهدىٰ، علماؤُهم شرٌّ من تحت أديم السماء، منهم خرجت الفتنة، وفيهم تعود.

وذكر[٢] من حديث سِماك بن حرب، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: إذا ظهر الزنىٰ والربا في قريةٍ أذنَ الله ﷻ بهلاكها.

وفي مراسيل الحسن: إذا أظهر الناسُ العلمَ، وضيّعوا العملَ، وتحابّوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا بالأرحام = لعنهم الله ﷻ عند ذلك، فأصمّهم، وأعمىٰ أبصارهم[٣].

وفي سنن ابن ماجه[٤] من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: كنتُ عاشرَ عشرةٍ وهي من المهاجرين عند رسول الله ﷺ، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمسُ خصال وأعوذ بالله أن تدركوهنّ: ما ظهرت الفاحشةُ في قوم حتىٰ أعلنوا بها إلّا ابْتُلُوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قومٌ المكيالَ والميزانَ إلّا ابتلُوا بالسنين وشدّة المؤنة وجور السلطان، وما منع قومٌ زكاةَ أموالهم إلّا مُنِعوا القَطْرَ من السماء، فلولا البهائمُ لم يُمطَروا، ولا خفر قومٌ العهدَ إلّا سلّط الله عليهم عدوَّهم من غيرهم،**

(١) في «العقوبات» (٨)، وابن بطّة في «إبطال الحيل» (١)، وابن عدي في الكامل (٤/ ٢٢٨) والبيهقي في الشعب (١٧٦٤)، بإسناد ضعيفٍ.

(٢) في «العقوبات» (٩)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠٧) عنه، وفي إسناده مقال.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٠) وهو مرسلٌ ضعيفُ الإسناد.

(٤) برقم (٤٠١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٣ - ٣٣٤)، بإسناد ضعيف.

فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمّتُهم بما أنزل الله في كتابه إلّا جعل الله بأسَهم بينهم».

وفي «المسند» و«السنن»[(١)] من حديث عمرو بن مُرّة، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ مَنْ كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيرًا[(٢)]، فإذا كان الغدُ جالَسَه وواكَلَه وشارَبه، كأنّه لم يره علىٰ خطيئةٍ بالأمس، فلما رأىٰ الله ﷻ ذلك منهم ضرَبَ بقلوب بعضهم علىٰ بعض، ثمّ لعنهم علىٰ لسان نبيهم داود وعيسىٰ بن مريم؛ ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون، والذي نفس محمَّد بيده، لتأمرُنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذُنّ علىٰ يد السفيه، ولتأطُرُنّه علىٰ الحقّ أطرًا، أو ليضربَنّ الله بقلوب بعضكم علىٰ بعض، ثمّ لَيَلْعَنَنَّكم كما لعنَهم».**

وذكر ابن أبي الدنيا[(٣)] عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: أوحىٰ الله إلىٰ يوشع بن نون: إنّي مُهلكٌ مِن قومك أربعين ألفًا من خيارهم، وستّين ألفًا من شرارهم، قال: يا ربِّ، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنّهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم.

وذكر أبو عمر بن عبد البرّ عن أبي هِزّان[(٤)] قال: بعث الله ﷻ ملكين إلىٰ قريةٍ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٧)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٢)، والطبراني (١٠/ رقم ١٠٢٦٧، ١٠٢٦٨)، وأحمد (٣٧١٣)، والترمذي (٣٠٤٧) وحسَّنه.

(٢) أي: ينهاه نهيًا يقصّر فيه ولا يبالغ.

(٣) في «العقوبات» (١٣)، وفي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٧١)، والمقدسي في «الأمر بالمعروف» (٤٣)، وفي سنده ضعف.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٤)، وفي «الأمر بالمعروف» (٦٩)، وابن وضاح في «البدع» (٢٨٦)، والمقدسي في «الأمر بالمعروف» (٤٢)، وفيه ضعف.

أنْ: دمِّراها بمن فيها. فوجدا فيها رجلًا قائمًا يصلي في مسجد، فقالا: يا ربِّ إنّ فيها عبدَك فلانًا يصلّي، فقال الله ﷻ: دمِّراها، ودمِّراه معها، فإنّه ما تمعّر وجهه فيّ قط.

وذكر الحميدي عن سفيان بن عيينة قال: حدثني سفيان بن سعيد، عن مِسْعَرٍ أنّ ملكًا أُمِرَ أن يخسِفَ قريةً، فقال: يا ربِّ إنَّ فيها فلانًا العابد، فأوحىٰ الله ﷻ إليه أنْ به فابدأ، فإنه لم يتمعّر وجهه فِيَّ ساعةً قطّ[1].

وذكر ابن أبي الدنيا[2] عن وهب بن منبّه قال: لما أصاب داودُ الخطيئةَ قال: ياربِّ اغفر لي، قال: قد غفرتُ لك، وألزمتُ عارَها بني إسرائيل، قال: يا ربِّ كيف، وأنت الحكم العدل لا تظلم أحدًا، أعمل أنا الخطيئة، ويلزَم عارُها غيري؟ فأوحىٰ الله إليه: إنّك لَمّا عملتَ الخطيئة لم يُعجِّلوا عليك بالإنكار.

وذكر ابن أبي الدنيا[3] عن أنس بن مالك أنّه دخل علىٰ عائشة هو ورجل آخر، فقال لها الرجل: يا أمّ المؤمنين حدّثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا استباحوا الزنا، وشربوا الخمر، وضربوا بالمعازف، غار الله ﷻ في سمائه، فقال للأرض: «تزلزلي بهم»، فإنْ تابوا ونزَعوا، وإلّا هَدَمها عليهم، قال: يا أمّ المؤمنين، أعذابًا لهم؟ قالت: بل موعظةً ورحمةً للمؤمنين، ونكالًا وعذابًا وسخطًا علىٰ الكافرين، فقال أنس: ما سمعتُ حديثًا بعد رسول الله ﷺ أنا أشدّ فرحًا منّي بهذا الحديث.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٦)، وفي «الأمر بالمعروف» (٧٠)، وسنده حسن.

(٢) في «العقوبات» (١٥)، وفي «الرقة والبكاء» (٣٨٧)، وفي «الأمر بالمعروف» (٧٢)، والمقدسي في «الأمر بالمعروف» (٧٦)، والقصص والأخبار الواردة في خطيئة داود عليه السلام أكثرها من أكاذيب اليهود.

(٣) في «العقوبات» (١٧)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (٤٢٠)، ومن طريقه الحاكم (٨٥٧٥) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «بل أحسبه موضوعًا علىٰ أنس».

وذكر ابن أبي الدنيا(١) حديثًا مرسلًا أنّ الأرض تزلزلت علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فوضع يده عليها، ثمّ قال: «**اسكني فإنّه لم يأنِ لكِ بعدُ**»، ثمّ التفت إلىٰ أصحابه، فقال: «**إنّ ربكم يستعتبكم فأعْتِبوه**»، ثمّ تزلزلت بالناس علىٰ عهد عمر ابن الخطاب، فقال: أيّها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلّا عن شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبدًا!

وفي «مناقب عمر» لابن أبي الدنيا(٢) أنّ الأرضَ زُلزلت علىٰ عهد عمر، فضرب يده عليها، وقال: ما لكِ؟ ما لكِ؟ أمَا إنّها لو كانت القيامة حدَّثت أخبارَها، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلّا وهو ينطق**».

وذكر الإمام أحمد(٣) عن صفيّة قالت: زلزلت المدينة علىٰ عهد عمر، فقال: يا أيّها الناس ما هذا؟ ما أسرَعَ ما أحدثتم، لئن عادت لا أساكنكم فيها.

وقال كعب: إنّما تُزَلْزَل الأرض إذا عُمِل فيها بالمعاصي، فتُرْعَد فَرَقًا من الربّ ﷻ أن يطّلع عليها(٤).

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ الأمصار: أمّا بعد، فإنّ هذا الرجفَ شيءٌ يعاتب الله ﷻ به العباد، وقد كتبتُ إلىٰ الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا، في شهر كذا وكذا، فمن كان عنده شيء فَلْيتصدّقْ به، فإنّ الله ﷻ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾

(١) في «العقوبات» (١٨)، وهو حديث مرسل.

(٢) نقله السيوطي أيضًا في «كشف الصلصلة» من كتاب «مناقب عمر» لابن أبي الدنيا، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٩)، وسنده ضعيف جدًّا.

(٣) لم أقف عليه عند أحمد، والأثر أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٤٢١)، وابن أبي شيبة (٨٣٣٥)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٠)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٣/ ٣٤٢) وغيرهم، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢١).

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٥]، وقولوا كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وقولوا كما قال نوح: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]، وقولوا كما قال يونس: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧][١].

وقال الإمام أحمد[٢]: حدثنا أسود بن عامر، ثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضَنّ الناسُ بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعِينة، واتّبعوا أذنابَ البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله = أنزل الله بهم بلاءً، فلا يرفعه حتّىٰ يراجعوا دينَهم**»، ورواه أبو داود بإسنادٍ حسن.

وذكر ابن أبي الدنيا[٣] من حديث ابن عمر قال: لقد رأيتُنا وما أحدٌ أحقَّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم، ولقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضَنّ الناسُ بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعِينة، وتركوا الجهاد، وأخذوا أذنابَ البقر = أنزل اللهُ عليهم من السماء بلاءً، فلا يرفعه عنهم حتّىٰ يراجعوا دينهم**».

وقال الحسن: إنّ الفتنة والله ما هي إلّا عقوبة من الله ﷻ علىٰ الناس[٤].

ونظر بعضُ أنبياء بني إسرائيل إلىٰ ما يصنع بهم بُخْتُ نَصَّر، فقال: بما كسبتْ أيدينا سلّطتَ علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا[٥].

وقال بُخْتُ نَصَّر لدانيال: ما الذي سلّطني علىٰ قومك؟ قال: عِظَمُ خطيئتك،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٣)، وسنده صحيح.

(٢) في «المسند» (٤٨٢٥)، والطبراني في «الكبير» (١٣٥٨٣)، وله شاهد يُحسَّن به.

(٣) في «العقوبات» (٢٤)، وينظر التخريج السابق.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٥)، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٨)، وذكر فيه أنّ القائل دانيال النبي.

وظلمُ قومي أنفسَهم[١].

وذكر ابن أبي الدنيا[٢] من حديث عمّار بن ياسر وحذيفة عن النبيِّ ﷺ: «**إنّ الله ﷻ إذا أراد بالعباد نِقمةً أمات الأطفالَ، وأعقمَ أرحامَ النساء، فتنزلُ النِّقمةُ، وليس فيهم مرحومٌ**».

وذَكَر[٣] عن مالك بن دينار، قال: قرأتُ في الحكمة: يقول الله ﷻ: أنا الله مالكُ الملوك، قلوبُ الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتُهم عليه رحمةً، ومن عصاني جعلتُهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسَبِّ الملوك، ولكن تُوبوا إليّ أعطِفْهم عليكم.

ومن مراسيل الحسن: إذا أراد الله بقومٍ خيرًا جعل أمرهم إلىٰ حُلَمائهم، وفيئَهم عند سُمَحائهم، وإذا أراد بقوم شرًّا جعل أمرهم إلىٰ سفهائهم، وفيئهم عند بخلائهم[٤].

وذكر الإمام أحمد[٥] وغيره عن قتادة: قال موسىٰ: يا ربِّ أنت في السماء، ونحن في الأرض، فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: إذا استعملتُ عليكم خيارَكم فهو من علامة رضاي عنكم؟ وإذا استعملتُ عليكم شرارَكم فهو علامةُ سخطي عليكم.

وذكر ابن أبي الدنيا[٦] عن الفضيل بن عياض قال: أوحىٰ الله إلىٰ بعض الأنبياء: إذا عصاني من يعرفني سلّطتُ عليه من لا يعرفني.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٩) عن عبد الله بن أبي الهذيل أيضًا.

(٢) في «العقوبات» (٢٦)، وأخرجه الديلمي في «الفردوس» (٩٥١)، والشيرازي في «الألقاب» كما في كنز العمال (٦٠١١)، والحديث لا يثبت سنده.

(٣) ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣٠)، وفي سنده ضعف.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣١)، وفي «الحلم» (٧٥).

(٥) في «الزهد»، وهو من زوائد ابنه (١٥٨٢)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٩٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ١٤٥)، وسنده ضعيف.

(٦) في «العقوبات» (٣٣)، والشجري في «أماليه» (٢/ ٢٥٦).

وذكر أيضًا[١] من حديث ابن عمر يرفعه: «والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتىٰ يبعث الله أمراءَ كَذَبةَ، ووزراءَ فجرةً، وأعوانًا خوَنةً، وعُرَفاء ظلمةً، وقُرّاء فَسَقَةَ، سيماهم سيما الرهبان، وقلوبُهم أنتنُ من الجيَف، أهواؤهم مختلفة، فيتيح الله لهم فتنةً غبراءَ مظلمةً، فيتَهاوكون[٢] فيها، والذي نفس محمَّد بيده، لَيُنْقَضَنّ الإسلامُ عروةً عروةً، حتىٰ لا يقال: الله الله، لَتأمُرُنَّ بالمعروف، ولَتنهوُنَّ عن المنكر، أو لَيسلِّطَنّ اللهُ عليكم شِرارَكم فليَسومُنّكم سوءَ العذاب، ثمّ يدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم، لتأمُرنّ بالمعروف، ولتنهوُنّ عن المنكر، أو ليبعثَنَّ الله عليكم من لا يرحم صغيركم، ولا يوقّر كبيركم».

وفي معجم الطبراني وغيره[٣] من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما طفَّفَ قومٌ كيلًا ولا بخسوا ميزانًا إلّا منعهم الله** عز وجل **القَطْر، وما ظهر في قومٍ الزنا إلّا ظهر فيهم الموت، وما ظهر في قومٍ الربا إلّا سلط الله عليهم الجنون، ولا ظهر في قوم القتلُ -يقتل بعضهم بعضًا- إلّا سلط الله عليهم عدوَّهم، ولا ظهر في قومٍ عملُ قومِ لوطٍ إلّا ظهر فيهمِ الخسف، وما ترك قومٌ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا لم تُرفع أعمالُهم، ولم يُسمَع دعاؤهم»**.

ورواه ابن أبي الدنيا[٤] من حديث إبراهيم بن الأشعث، عن عبد الرحمن ابن زيد، عن أبيه، عن سعيد، به.

---

(١) في «العقوبات» (٣٤)، والشجري في «أماليه» (٢/ ٢٦٤)، بإسناد لا يصح.

(٢) تهوّك: تحيّر، واضطرب، وسقط في هوّة الردىٰ.

(٣) لم أقف عليه في المعاجم الثلاثة، لكن أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٩٩٢) من طريق مجاهد وطاوس عن ابن عباس فذكر نحوه، وهو حديث منكر.

(٤) في «العقوبات» (٣٥)، وسنده ضعيف جدًّا.

وفي «المسند»[١] وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت: دخل عليّ رسولُ الله ﷺ، وقد حَفَزه النَّفَس، فعرفتُ في وجهه أن قد حَفَزَه شيءٌ، فما تكلّم حتىٰ توضّأ، وخرج، فلصِقتُ بالحجرة، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال: **«أيّها الناس إنّ الله ﷻ يقول لكم: مُرُوا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوني فلا أجيبَكم، وتستنصروني فلا أنصرَكم، وتسألوني فلا أعطيَكم»**.

وقال العمري الزاهد: إنّ من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أنْ ترىٰ ما يُسخِط الله، فتتجاوزَه، ولا تأمرَ فيه، ولا تنهىٰ عنه، خوفًا ممّن لا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

وقال: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافةً من المخلوقين نُزِعَتْ منه الطاعة، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفَّ بحقّه[٢].

وذكر الإمام أحمد في «مسنده»[٢] من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أيّها الناس إنّكم تتلون هذه الآية، وإنّكم تضعونها علىٰ غير مواضعها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة:١٠٥]، وإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«إنّ الناس إذا رأوا الظالمَ، فلم يأخذوا علىٰ يديه**- وفي لفظٍ: **إذا رأوا المنكر، فلم يغيّروه - أوشك أن يعمَّهم الله بعقابٍ من عنده»**.

---

(١) برقم (٢٥٢٥٥)، وابن ماجه (٤٠٠٤)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣٦)، وابن حبان (٢٩٠) وغيرهم، وقد ضعّفه العراقي والهيثمي.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٣٨) وفي «الأمر بالمعروف» (١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٤)، والمقدسي في «الأمر بالمعروف» (٤٩)، بإسناد حسن.

(٢) أرقام (١، ١٦، ٢٩، ٣٥، ٣٥)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨، ٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وابن حبان (٣٠٤) وغيرهم، وسنده صحيح.

وذكر الأوزاعي عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أُخفيت الخطيئةُ لم تضرَّ إلّا صاحبَها، وإذا ظهرت فلم تُغيَّرْ ضرّت العامّةَ**»[١].

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب[٢] رضي الله عنه: توشك القرىٰ أنْ تُخربَ وهي عامرة، قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فُجّارُها أبرارَها، وساد القبيلةَ منافقُها.

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبيِّ ﷺ قال: «**سيظهرُ شرارُ أمتي علىٰ خيارها، حتىٰ يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم**»[٣].

وذكر ابن أبي الدنيا[٤] من حديث ابن عباس يرفعه قال: «يأتي زمانٌ يذوبُ فيه قلبُ المؤمن، كما يذوب الملحُ في الماء»، قيل: مِمّ ذاك يا رسول الله؟ قال: «ممّا يرىٰ من المنكر لا يستطيع تغييره».

وذكر الإمام أحمد[٥] من حديث جرير أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ما من قوم يُعمَل فيهم بالمعاصي، هم أعزّ وأكثر ممّن يعمله، لم يغيّروه، إلّا عمّهم الله بعقاب**».

وفي صحيح البخاري[٦] عن أسامة بن زيد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٧٧٠)، وفيه متهم.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٤٤) بإسناد منقطع.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٤٥)، والداني في «السنن الواردة في الفتن» (٤٠١)، بإسنادٍ معضل.

(٤) في «العقوبات» (٤٦)، وفي «الأمر بالمعروف» (٢٥، ٩٦) بإسنادٍ ضعيف.

(٥) في «المسند» (١٩٢٣٠)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩)، والطيالسي (٦٩٨)، والطبراني (٢٣٨٠ – ٢٣٨٥)، وابن حبان (٣٠٠، ٣٠٢)، وهو حسنٌ.

(٦) تقدم تخريجه في ص (٣٤).

«يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقىٰ في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: أيْ فلان، ما شأنك؟ ألستَ كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

وذكر الإمام أحمد[1] عن مالك بن دينار قال: «كان حبْرٌ من أحبار بني إسرائيل يغشىٰ منزلَه الرجالُ والنساءُ، فيعظهم، ويذكّرهم بأيام الله، فرأىٰ بعضَ بنيه يومًا يغمِز النساء، فقال: مهلًا يا بني، مهلًا يا بني، فسقط من سريره، فانقطع نُخاعه، وأسقطت امرأته، وقُتل بنوه. فأوحىٰ الله إلىٰ نبيهم أنْ أخبِرْ فلانًا الحَبْرَ أنّي لا أخرج من صلبك صِدِّيقًا أبدًا، ما كان غضبُك لي إلّا أن قلتَ: مهلًا يا بني، مهلًا يا بني»!

وذكر الإمام أحمد[2] من حديث عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إيّاكم ومحقراتِ الذنوب، فإنّهنّ يجتمعْنَ علىٰ الرجل حتىٰ يهلكْنَه**»، وأنّ رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلًا كمثل القوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيعُ القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتىٰ جمعوا سوادًا، وأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها.

وفي صحيح البخاري[3] عن أنس بن مالك قال: إنّكم لتعملون أعمالًا هي أدقّ في أعينكم من الشعر، إنْ كنّا لَنعُدّها علىٰ عهد رسول ﷺ من الموبقات.

وفي الصحيحين[4] من حديث عبد الله بن عمر، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**عُذّبت**

(١) في «الزهد» (٥٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٢).

(٢) سبق تخريجه في ص (٤٥).

(٣) برقم (٦٤٩٢).

(٤) سبق تخريجه في ص (٤٨).

امرأةٌ في هِرّة حبَسَتْها حتىٰ ماتت، فدخلت النار؛ لا هي أطعمتْها، ولا سقَتْها، ولا تركَتْها تأكل من خَشاش الأرض».

وفي «الحلية» لأبي نعيم(١) عن حذيفة أنّه قيل له: في يومٍ واحدٍ تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه، وإذا نُهوا عن شيء ركبوه، حتىٰ انسلخوا من دينهم، كما ينسلخ الرجل من قميصه.

ومن ههنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أنّ القُبْلَةَ بريدُ الجماع، والغناءَ بريدُ الزنا، والنظرَ بريدُ العشق، والمرضَ بريدُ الموت.

وفي «الحلية» أيضًا(٢) عن ابن عباس أنّه قال: يا صاحب الذنب لا تأمَنْ سوءَ عاقبته، ولَما يتبع الذنبَ أعظمُ من الذنب إذا عملته: قلّةُ حيائك ممّن علىٰ اليمين وعلىٰ الشمال، وأنت علىٰ الذنب أعظمُ من الذنب، وضحِكُكَ - وأنت لا تدري ما الله صانع بك - أعظمُ من الذنب، وفرحُك بالذنب إذا ظفرت به أعظمُ من الذنب، وحزنُك علىٰ الذنب إذا فاتك أعظمُ من الذنب، وخوفُك من الريح إذا حرّكَتْ سِترَ بابك، وأنت علىٰ الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظمُ من الذنب، ويحك! هل تدري ما كان ذنب أيوب، فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين علىٰ ظالم يدرؤه عنه، فلم يُغثه، ولم يَنْهَ الظالم عن ظلمه، فابتلاه الله.

وقال الإمام أحمد(٣): حدثنا الوليد قال: سمعتُ الأوزاعي يقول: سمعتُ بلال بن سعد يقول: لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة، ولكن انظر مَن عصيتَ؟

(١) «الحلية» (١/ ٢٧٩) بإسناد صحيح، والبيهقي في «الشعب» (٦٨١٧) بسند حسن.

(٢) (١/ ٣٢٤) من طريق جُويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس فذكره، و«جُويبر» ضعيفٌ جدًّا، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٣) لعله في «الزهد» ولم أقف عليه، وإنما هو فيه من زوائد عبد الله علىٰ «الزهد» (٢٢٧٦).

وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٨٥) وغيرهم، وسنده صحيح.

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله[(١)].

وقيل: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ: يا موسىٰ إنّ أول مَن مات من خَلقي إبليس، وذلك أنّه عصاني، وإنّما أعُدّ من عصاني من الأموات[(٢)].

وفي «المسند» و«جامع الترمذي»[(٣)] من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنّ المؤمن إذا أذنب نُكِتَ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإنْ تاب، ونزع، واستغفر؛ صُقِلَ قلبُه، وإنْ زاد زادت حتىٰ تعلو قلبَه؛ فذلك الرّانُ الذي ذكر الله ﷻ:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقال حذيفة: إذا أذنب العبد نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء حتىٰ يصيرَ قلبُه كالشاة الرَّبْداء[(٤)].

وقال الإمام أحمد[(٥)]: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب، حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: **«أمّا بعد، يا معشر قريش، فإنّكم أهلٌ لهذا الأمر، ما لم تعصُوا الله، فإذا عصيتموه**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٤)، وعنه البيهقي في «الشعب» (٦٧٥١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٤٢) عن مسروق بن سفيان.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وابن حبان (٩٣٠)، والحاكم (٣٩٠٨) وغيرهم، وصحّحه الترمذي وابن حبان والحاكم.

(٤) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٢٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨١٠)، وسنده صحيح.

والشاة الربداء: المنقطة بحمرة وبياض أو سواد،والربداء من المعزىٰ: السوداء المنقطة بحمرة.

(٥) في «المسند» (٤٣٨٠)، وأبو يعلىٰ (٥٠٢٤)، والشاشي (٨٦٩)، ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاع.

بعث عليكم من يَلحاكم كما يُلحَىٰ هذا القضيبُ»- لِقضيبٍ في يده- ثم لَحَىٰ قضيبَه، فإذا هو أبيضُ يصلِدُ[١].

وذكر الإمام أحمد[٢] عن وهب أنّ الربّ ﷻ قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: إنّي إذا أُطِعتُ رَضِيتُ، وإذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي نهاية، وإذا عُصِيتُ غضِبتُ، وإذا غضبتُ لعنتُ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد.

وذكر أيضًا[٣] عن وكيع، حدثنا زكريا، عن عامر قال: كتبت عائشة إلىٰ معاوية: أمّا بعد، فإنّ العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامدُه من الناس ذامًا.

وذكر أبو نُعَيم[٤] عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي الدرداء قال: لِيحذَر امرؤٌ أن تلعنَه قلوبُ المؤمنين، من حيث لا يشعر، ثمّ قال: أتدري ممّ هذا؟ قلتُ: لا، قال: إنّ العبد يخلو بمعاصي الله، فيُلقي الله بغضَه في قلوب المؤمنين، من حيث لا يشعر.

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه[٥] عن محمَّد بن سيرين: أنّه لَمّا ركبه الدَّينُ اغتمّ لذلك، فقال: إنّي لأعرفُ هذا الغمَّ بذنب أصبتُه منذ أربعين سنة! وهاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنّهم لا يرون تأثيرَه في الحال، وقد يتأخّر تأثيره فيُنسَىٰ، ويظنّ العبد أنه لا يغبّر[٦] بعد ذلك، وأنّ الأمر كما قال القائل:

إذا لم يغبِّرْ حائطٌ في وقوعه ... فليس له بعد الوقوع غبارُ

---

(١) أي: يبرق ويبصّ، أي: يلمع.

(٢) في «الزهد» برقم (٢٨٩).

(٣) في «الزهد» (٩١٥)، ورجاله ثقات.

(٤) في «الحلية» (١/ ٢١٥) وفي سنده انقطاع، وأحمد في «الزهد» (٧٦٦) عنه مختصرًا.

(٥) لم أقف عليه في الجزء المطبوع، والأثر أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٧١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٣/ ٢٢٦)، وهو ثابت عنه.

(٦) أي: لا يثير الغبار، يعني: لا يرىٰ أثر الذنب بعد ذلك.

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه البليّة[١] من الخلق! وكم أزالت من نعمة! وكم جلبت من نقمة!

وما أكثر المغترّين بها من العلماء، فضلًا عن الجهال! ولم يعلم المغترّ أنّ الذنب ينقُض، ولو بعد حين، كما ينقُض السمّ، وكما ينقُض الجرح المندمل علىٰ الغِشّ والدَّغَل.

وقد ذكر الإمام أحمد[٢] عن أبي الدرداء: اعبدوا الله كأنّكم ترونه، وعُدُّوا أنفسَكم في الموتىٰ، واعلموا أنّ قليلًا يُغنيكم خيرٌ من كثيرٍ يُلهيكم، واعلموا أنّ البِرَّ لا يبلىٰ، وأنّ الإثم لا يُنسىٰ.

ونظر بعضُ العُبّاد إلىٰ صبيّ، فتأمل محاسنَه، فأُتي في منامه، وقيل له: لَتجِدَنَّ غِبَّها بعد أربعين سنة[٣].

هذا، مع أنّ للذنب نقدًا معجَّلًا لا يتأخَّر عنه.

قال سليمان التَّيمي: إنّ الرجل لَيصيبُ الذنبَ في السرّ، فيصبح وعليه مذلّته[٤].

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: عجبتُ من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تُشْمِتْ بي الأعداءَ، ثم هو يُشْمِتُ بنفسه كلَّ عدو له! قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله فيُشْمِتُ به في القيامة كلَّ عدوّ[٥].

(١) انظر: «الصواعق المرسلة» (٤٤٥).

(٢) في «الزهد» (٧١٦)، وأخرجه وكيع في «الزهد» (١٣)، وهناد في «الزهد» (٥٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١١ - ٢١٢) وغيرهم، ورجاله ثقات، وفيه انقطاع.

(٣) وهي حكاية أبي عبد الله أحمد بن يحيىٰ الجلاّء من أكابر مشايخ الشام (١٠٦هـ)، وقد ذكر في الحكاية أنّه نسي القرآن. انظر: «تاريخ دمشق» (٦/ ٨٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٣٩)، وسنده صحيح.

(٥) لم أقف عليه.

ص(١٣٢)

فصــل

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرّة بالقلب، والبدن، والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله(١).

فمنها: حرمان العلم، فإنّ العلمَ نورٌ يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولمّا جلس الشافعيّ بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأىٰ من وُفور فِطنته، وتَوقّد ذَكائه، وكمال فَهمه؛ فقال: إنّي أرىٰ الله قد ألقىٰ علىٰ قلبك نورًا، فلا تطفئه بظُلمة المعصيةِ(٢).

وقال الشافعي:

شكوتُ إلىٰ وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشـدَني إلـىٰ تـركِ المعاصـي
وقـال اعلَـمْ بـأنَّ العلـمَ فضـلٌ ... وفضـلُ الله لا يؤتـاه عـاصِ(٣)

ومنها: حرمان الرزق، وفي «المسند»: «**إنّ العبد ليُحْرَم الرزقَ بالذنب يصيبه**»، وقد تقدّم(٤).

وكما أنّ تقوىٰ الله مَجلَبَةٌ للرزق؛ فتركُ التقوىٰ مجلبةٌ للفقر، فما استُجْلِبَ رزقُ الله بمثل ترك المعاصي.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذّة أصلًا، ولو اجتمعت له لذّاتُ الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحسّ به إلّا مَنْ في قلبه حياةٌ،

ومـا لجـرحٍ بميّـتٍ إيـلامُ(٥)

---

(١) وقد ذكر المؤلفُ جملةً من آثار المعاصي في «طريق الهجرتين»، ص (٥٩١).

(٢) «تاريخ مدينة دمشق» (٥١/ ٢٨٦). وسيأتي مرة أخرىٰ في ص (١١٢).

(٣) انظر: «ديوان الشافعي»، ص (٧٢).

(٤) في ص (١٤، ٦٤).

(٥) عجز بيت لأبي الطيب في ديوانه (٢٤٥)، وصدره: **من يَهُنْ يسهُلِ الهوانُ عليه**

فلو لم يترك الذنوب إلّا حذرًا من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حريًّا بتركها.

وشكا رجل إلىٰ بعض العارفين وحشةً يجدها في نفسه فقال له:

إذا كنتَ قد أوحشتك الذنوبُ فدَعْها إذا شئتَ واستأنسِ[١]

وليس علىٰ القلب أمَرُّ من وَحشة الذَّنب علىٰ الذنب، فالله المستعان.

ومنها: الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنّه يجد وحشةً بينه وبينهم، وكلّما قويت تلك الوحشة بَعُدَ منهم ومن مجالستهم، وحُرِمَ بركة الانتفاع بهم، وقرُبَ من حزب الشيطان بقدر ما بعُد من حزب الرحمن.

وتقوىٰ هذه الوحشةُ حتىٰ تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشًا من نفسه!

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله، فأرىٰ ذلك في خُلُق دابّتي وامرأتي[٢].

ومنها: تعسير أموره عليه، فلا يتوجّه لأمر إلّا يجده مغلقًا دونه، أو متعسّرًا عليه، وهذا كما أنّ من اتّقىٰ الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطّل التقوىٰ جعل له من أمره عسرًا.

ويالله العجب! كيف يجد العبد أبوابَ الخير والمصالح مسدودةً عنه، وطرُقَها معسَّرةً عليه، وهو لا يعلم من أين أُتِيَ؟

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً، يحسّ بها كما يحسّ بظلمة الليل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظلمة الحسّية لبصره؛ فإنّ الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلّما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتّىٰ يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة، وهو لا يشعر، كأعمىٰ خرج في ظلمة الليل يمشي وحده.

---

(١) أنشده المصنف في «المدارج» (٢/ ٤٠٦) أيضًا، وسيأتي مرة أخرىٰ في ص (١١١).

(٢) من كلام فضيل بن عياض. وهو في «الحلية» (٨/ ١٠٩) بنحوه.

وتقوىٰ هذه الظلمة حتىٰ تظهر في العين، ثم تقوىٰ حتىٰ تعلو الوجه وتصير سوادًا فيه يراه كلّ أحد.

قال عبد الله بن عباس: إنّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق. وإنّ للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغِضةً في قلوب الخلق(١).

ومنها: أنّ المعاصي توهن القلب والبدن.

أمّا وهنها للقلب فأمر ظاهر؛ بل لا تزال توهنه حتىٰ تزيل حياته بالكلّيّة.

وأمّا وهنها للبدن، فإنّ المؤمن قوته من قلبه، وكلّما قوي قلبه قوي بدنه.

وأمّا الفاجر، فإنّه وإن كان قويَّ البدن، فهو أضعفُ شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوجَ ما يكون إلىٰ نفسه، وتأمَّلْ قوّة أبدان فارس والروم، كيف خانتهم أحوجَ ما كانوا إليها؛ وقهرهم أهلُ الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

ومنها: حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبةٌ إلّا أنّه يصدُّ عن طاعةٍ تكون بدَلَه، ويقطع طريق طاعة أخرىٰ، فينقطع عليه طريقُ ثالثةٍ، ثمّ رابعةٍ، وهلمّ جرًّا.

فينقطع عليه بالذنب طاعاتٌ كثيرة، كلُّ واحدة منها خيرٌ له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجلٍ أكل أَكْلَةً أوجَبَتْ له مرضةً طويلةً منعته من عدّة أَكَلات أطيب منها، فالله المستعان.

ومنها: أن المعاصي تقصّر العمر، وتمحق بركته، ولا بُدّ؛ فإنّ البرّ كما يزيد في العمر؛ فالفجور يقصّر العمر.

---

(١) لم أقف عليه، وقد ورد نحوه عن الحسن البصري، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، وأنس بن مالك مرفوعًا.

وقد اختلف الناس في هذا الموضع:

فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهابُ بركة عمره ومحقُها عليه. وهذا حقّ، وهو بعض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقةً، كما ينقص الرزقُ، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابًا تُكثِّره وتزيده، وللبركة في العمر أسبابًا تكثِّره وتزيده.

قالوا: ولا يمتنع زيادةُ العُمُر بأسباب، كما ينقص بأسباب.

والأرزاق والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحّة والمرض، والغنىٰ والفقر، وإن كانت بقضاء الربّ ﷻ، فهو يقضي ما يشاء بأسبابٍ جَعَلها موجِبةً لمسبَّباتها مقتضيةً لها.

وقالت طائفة أخرىٰ: تأثير المعاصي في محق العمر إنّما هو بأنّ حقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميّتًا غيرَ حيّ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢١]، فالحياة في الحقيقة حياةُ القلب، وعمر الإنسان مدّة حياته، فليس عمره إلّا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره؛ فالبرّ والتقوىٰ والطاعة تزيدُ في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبدُ إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي، ضاعت عليه أيامُ حياته الحقيقيّة التي يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر:٢٤]، فلا يخلو إمّا أنْ يكون له مع ذلك تطلّعٌ إلىٰ مصالحه الدنيوية والأخروية، أو لا، فإن لم يكن له تطلّعٌ إلىٰ ذلك، فقد ضاع عليه عُمُره كلّه، وذهبت حياته باطلًا. وإن كان له تطلّعٌ إلىٰ ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسّرت عليه أسباب الخير، بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسرّ **المسألة** أنّ عمر الإنسان مدّة حياته، ولا حياةَ له إلّا بإقباله علىٰ ربِّه، والتنعم بحُبِّه وذِكْره، وإيثار مرضاته.

فصـــل

ص(١٣٩)

ومنها: أنّ المعاصي تزرع أمثالَها ويولّد بعضها بعضًا حتىٰ يعزّ علىٰ العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إنّ من عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها، وإنّ من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها؛ فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرىٰ إلىٰ جانبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثانية كذلك، وهلم جرًّا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات. وكذلك جانب السيئات أيضًا، حتىٰ تصير الطاعات والمعاصي هيئاتٍ راسخةً وصفاتٍ لازمةً وملكاتٍ ثابتةً.

فلو عطّل المحسنُ الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحسّ من نفسه بأنّه كالحوت إذا فارق الماء، حتىٰ يعاودها، فتسكن نفسه، وتقرّ عينه.

ولو عطّل المجرم المعصية وأقبل علىٰ الطاعة لضاقت عليه نفسُه، وضاق صدره، وأعيَتْ عليه مذاهبُه، حتىٰ يعاودها؛ حتىٰ إنّ كثيرًا من الفسّاق لَيواقعُ المعصيةَ من غير لذّة يجدها، ولا داعية إليها، إلّا لِمَا يجد من الألم بمفارقتها؛ كما صرّح بذلك شيخُ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأس شربتُ علىٰ لذّة ... وأخرىٰ تداويتُ منها بها[1]

(١) كذا نسبه المؤلّف هنا إلىٰ أبي نواس، ونحوه في «زاد المعاد»: «قال شيخ الفسوق» (٤/ ٢٠٩)، والبيت للأعشىٰ في ديوانه (٢٢٣).

أمّا بيت أبي نواس الذي في معناه فهو:

دَعْ عنك لومي فإن اللوم إغراءُ ... وداوِني بالتي كانت هي الداءُ

انظر: «ديوانه»، ص (٦).

وقال آخر:

فكانَتْ دَوائِي وهي دائِي بعَينِهِ كما يتدَاوىٰ شاربُ الخَمر بالخَمر(١)

ولا يزال العبد يعاني الطاعة، ويألفها، ويحبّها، ويؤثرها حتىٰ يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكةَ تؤزُّه إليها أزًّا، وتحرّضه عليها، وتُزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألفُ المعاصي، ويحبّها، ويؤثرها، حتّىٰ يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزًّا.

فالأول قوّىٰ جندَ الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه، وهذا قوّىٰ جندَ المعصية بالمدد، فكانوا أعوانًا عليه.

فصل

ص(١٤١)

ومنها - وهو من أخوفها علىٰ العبد -: أنّها تُضعِف القلبَ عن إرادته، فتقوىٰ إرادة المعصية، وتُضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا إلىٰ أنْ تنسلخَ من قلبه إرادةُ التوبة بالكلّيّة، فلو مات نصفه لما تاب إلىٰ الله.

فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذّابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقودٌ بالمعصية، مُصِرٌّ عليها، عازمٌ علىٰ مواقعتها متىٰ أمكنَتْ.

وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلىٰ الهلاك.

---

(١) الشطر الثاني من بيت مشهور ينسب إلىٰ المجنون (ديوانه: ١٢٢)، وإلىٰ قيس بن ذريح (شعره: ٩٥)، صدره:

تداويتُ من ليلىٰ بليلىٰ عن الهوىٰ

ولعلّ قائل البيت الذي نقله المؤلف ضمّن الشطر الثاني.

ص(١٤١)

فصـــل

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحُها، فتصير له عادةً، فلا يَستقبح من نفسه رؤيةَ الناس له، ولا كلامَهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتّك وتمام اللذّة، حتّىٰ يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدّث بها من لم يعلم أنّه عملها، فيقول: يا فلان عملتُ كذا وكذا!

وهذا الضرب من الناس لا يُعافَون، وتسدّ عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبيُّ ﷺ: «**كلُّ أمتي معافًىٰ إلّا المجاهرين، وإنّ من الإجهار أن يستر الله علىٰ العبد، ثمّ يُصبِحُ يفضَحُ نفسه، ويقول: يا فلان عملتُ يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيهتك نفسَه، وقد بات يستره ربه**»[١].

ومنها: أنّ كلّ معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله ﷻ؛ فاللوطية: ميراثٌ عن قوم لوط، وأخذُ الحقّ بالزائد ودفعُه بالناقص ميراثٌ عن قوم شعيب، والعلوّ في الأرض والفساد ميراثٌ عن فرعون وقومه، والتكبّر والتجبر ميراثٌ عن قوم هود، فالعاصي لابسٌ ثيابَ بعضِ هذه الأمم، وهم أعداء الله.

وقد روىٰ عبد الله بن أحمد في «كتاب الزهد»[٢] لأبيه، عن مالك بن دينار قال: أوحىٰ الله إلىٰ نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أنْ قل لقومك: لا تدخلوا مداخل أعدائي، ولا تلبسوا ملابس أعدائي، ولا تركبوا مراكب أعدائي، ولا تطعموا مطاعم أعدائي؛ فتكونوا أعدائي، كما هم أعدائي.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم أقف عليه، والذي فيه برقم (٥٢٣) من قول عقيل بن مدرك السلمي.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف» (٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧١) من قول مالك بن دينار.

وفي «مسند أحمد»[(١)] من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «**بُعِثتُ بالسيف بين يدي الساعة حتىٰ يُعبَدَ اللهُ وحدَه لا شريك له، وجُعِلَ رزقي تحت ظلّ رمحي، وجُعِلَ الذلّة والصغار علىٰ من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم فهو منهم**».

فصل

ص(١٤٤)

ومنها: أنّ المعصيةَ سببٌ لهوانِ العبد علىٰ ربه، وسقوطِه من عينه.

قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصَوه، ولو عزّوا عليه لَعَصَمهم[(٢)].

وإذا هان العبد علىٰ الله لم يكرمه أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، وإنْ عظّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفًا من شرّهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

ومنها: أنّ العبدَ لا يزال يرتكب الذنب، حتّىٰ يهون عليه، ويصغر في قلبه؛ وذلك علامة الهلاك، فإنّ الذنب كلّما صغُر في عين العبد عظُم عند الله.

وقد ذكر البخاري في صحيحه[(٣)] عن ابن مسعود قال: إنّ المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنّه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإنّ الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب وقع علىٰ أنفه، فقال به هكذا، فطار.

---

(١) برقم (٥١١٤، ٥٦٦٧)، وأبو داود (٤٠٣١) مقتصرًا علىٰ ذكر التشبه فقط، وابن أبي شيبة (١٩٣٩٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٦) وغيرهم، وقد صحّحه جماعة.

(٢) لم أقف عليه، وقد ورد عن أبي سليمان الداراني، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٦١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٣٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٤/ ١٥١).

(٣) برقم (٦٣٠٨).

فصل

ص(١٤٥)

ومنها: أنّ غيره من الناس والدوابّ يعود عليه شؤم ذنوبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إنّ الحُبارىٰ لَتموتُ في وَكْرها من ظلم الظالم(١).

وقال مجاهد: إنّ البهائم تلعن عصاةَ بني آدم إذا اشتدت السَّنة، وأمسك المطر؛ وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم (٢).

وقال عكرمة: دوابُّ الأرض وهوامُّها حتىٰ الخنافسُ والعقاربُ يقولون: مُنِعْنا القَطْرَ بذنوب بني آدم (٣).

فلا يكفيه عقابُ ذنبه، حتىٰ يبوء بلعنة من لاذنب له.

فصل

ص(١٤٦)

ومنها: أنّ المعصيةَ تُورثُ الذلَّ، ولا بُدّ؛ فإنّ العزَّ كلَّ العزّ في طاعة الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]؛ أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنّه لا يجدها إلّا في طاعته.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعِزَّني بطاعتك، ولا تُذِلَّني بمعصيتك(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٧٥)، وغيرهما بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه ابن وهب في «تفسيره» من «الجامع» (١/ ١٣-١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٤٦، ١٤٤٨) من طريق ابن أبي نجيح عنه بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٥٥) بسند لا بأس به.

(٤) من دعاء جعفر الصادق. انظر: «الحلية» (٣/ ٢٢٨)، بنحوه.

قال الحسن البصري: إنّهم وإن طقطقتْ بهم البغالُ، وهَملَجَتْ بهم البراذينُ[١]، إنّ ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبَهم؛ أبىٰ اللهُ إلّا أنْ يُذِلَّ من عصاه[٢].

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلوبَ ... وقد يورثُ الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانُها
وهل أفسدَ الدينَ إلّا الملوكُ ... وأحبارُ سَوء ورُهبانُها[٣]

فصل

ص(١٤٧)

ومنها: أنّ المعاصي تفسد العقل، فإنّ للعقل نورًا، والمعصيةُ تطفئ نورَ العقل، ولا بُدَّ؛ وإذا طفِئ نورُه ضعُفَ ونقَصَ.

وقال بعض السلف: ما عصىٰ اللهَ أحدٌ حتّىٰ يغيبَ عقله[٤].

وهذا ظاهرٌ، فإنّه لو حضره عقله لَحجَزه عن المعصية، وهو في قبضة الربّ تعالىٰ وتحت قهره، وهو مطّلع عليه، وفي داره وعلىٰ بساطه، وملائكتُه شهودٌ عليه ناظرون إليه، وواعظُ القرآن ينهاه، وواعظُ الإيمان ينهاه، وواعظُ الموت ينهاه، وواعظُ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعافُ أضعافِ ما يحصلُ له من السرور واللّذة بها، فهل يُقدِم علىٰ الاستهانة بذلك كلِّه والاستخفافِ به ذو عقلٍ سليمٍ؟

(١) «الهملجة»: حُسن سير الدابة في سرعة وبَخْترة.
و«البراذين» من الخيل: ما كان من غير نتاج العرب.

(٢) نقله أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٧٧) بنحوه، وانظر: «العقد الفريد» (٢/ ٢٠٣).

(٣) «بهجة المجالس» (٣/ ٣٣٤).

(٤) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (٧/ ٦٥٨) بسنده عن أبي العالية بنحوه، وجاء هذا المعنىٰ عن مجاهد وغيره.

فصل

ص(١٤٨)

ومنها: أنّ الذنوب إذا تكاثرت طُبِعَ علىٰ قلب صاحبها، فكان من الغافلين؛ كما قال بعضُ السَّلفِ في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] قال: هو الذنب بعد الذنب(١).

وقال الحسن: هو الذنب علىٰ الذنب حتىٰ يعمىٰ القلب(٢).

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم(٣).

وأصل هذا أنّ القلب يصدأ من المعصية، فإنْ زادت غلب الصدأ حتىٰ يصير رانًا، ثم يغلب حتىٰ يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإن حصل له ذلك بعد الهدىٰ والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولّاه عدوّه، ويسوقه حيث أراد.

فصل

ص(١٤٩)

ومنها: أنّ الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ؛ فإنّه لعن علىٰ معاصٍ، وغيرُها أكبرُ منها، فهي أولىٰ بدخول فاعلها تحت اللعنة.

فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والموصولة، والنامصة والمتنمّصة، والواشرة والمستوشرة.

ولعن آكل الربا، وموكِله، وكاتبه، وشاهديه.

ولعن المحلِّلَ والمحلَّلَ له.

---

(١) أورده في «المدارج» (٣/ ٢٢٣): عن ابن عباس وغيره بنحوه، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٨١٢) عن إبراهيم بن أدهم.

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٠١).

(٣) نسبه المؤلف في «شفاء العليل» (٩٤) إلىٰ الفرّاء، وهو في «معاني القرآن» له (٣/ ٢٤٦).

ولعن السارق.

ولعن شارب الخمر، وساقيها، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها، وحاملها، والمحمولةَ إليه.

ولعن من غيّر منارَ الأرض، وهي أعلامها وحدودها.

ولعن من لعن والديه.

ولعن من اتّخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرميه بالسهام.

ولعن المخنّثين من الرجال، والمترجّلات من النساء.

ولعن من ذبح لغير الله.

ولعن من أحدث حدَثًا أو آوىٰ مُحدِثًا.

ولعن المصوّرين.

ولعن من عمِلَ عملَ قوم لوط.

ولعن من سبّ أباه ومن سبّ أمّه.

ولعن من كمَّهَ أعمىٰ عن الطريق.

ولعن من أتىٰ بهيمة.

ولعن من وسم دابةً في وجهها.

ولعن من ضارَّ بمسلم أو مَكَر به.

ولعن زوّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج.

ولعن من أفسد امرأةً علىٰ زوجها، أو مملوكًا علىٰ سيّده.

ولعن من أتىٰ امرأةً في دبرها.

وأخبر أنّ مَنْ باتتْ مهاجرةً لفراش زوجها لعنتها الملائكةُ حتىٰ تصبح.

ولعن مَن انتسَب إلىٰ غير أبيه.

وأخبر أنّ من أشار إلىٰ أخيه بحديدة فإنّ الملائكة تلعنه.

ولعن من سبّ أصحابه.

وقد لعن اللهُ من أفسد في الأرض، وقطَع رحِمَه، وآذاه وآذىٰ رسولَه ﷺ.

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدىٰ.

ولعن الذين يرمُون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة.

ولعن من جعل سبيل الكافر أهدىٰ من سبيل المؤمن.

ولعن رسولُ الله ﷺ الرجلَ يلبَس لِبسةَ المرأة، والمرأةَ تلبَس لبسةَ الرجل.

ولعن الراشي، والمرتشي، والرائش، وهو الواسطة في الرشوة.

ولعن علىٰ أشياء أخر غير هذه.

فلو لم يكن في فعل ذلك إلّا رضا فاعله بأن يكون ممّن يلعنه الله ورسوله وملائكته، لكان في ذلك ما يدعو إلىٰ تركه.

فصل

ص(١٥٢)

ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإنّ الله سبحانه أمر نبيّه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر:٧-٩].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين، المتَّبعين لكتابه وسنّة رسوله، الذين لا سبيل لهم غيرهما، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة؛ إذ لم يتّصف بصفات المدعو له بها، والله المستعان.

ص(١٥٣)

فصل

ومن عقوبات المعاصي: ما رواه البخاري في صحيحه[١] من حديث سمرة ابن جندب قال: كان النبي ﷺ ممّا يُكْثِرُ أن يقول لأصحابه: «هل رأىٰ أحدٌ منكم البارحة رؤيا»؟ فيقصّ عليه من شاء الله أن يقُصَّ.

وإنّه قال لنا ذات غداة: «إنّه أتاني الليلة آتيان، وإنّهما ابتعثاني، وإنّهما قالا لي: انطلِقْ، وإنّي انطلقتُ معهما، وإنّا أتينا علىٰ رجلٍ مضطجع، وإذا آخَرُ قائمٌ عليه بصخرة، وإذا هو يَهوي بالصخرة لرأسه، فيثلَغُ[٢] رأسَه، فيتدَهْدَهُ[٣] الحجرُ ها هنا، فيتبع الحجرَ، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتىٰ يصحّ رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثلَ ما فعل المرّةَ الأولىٰ، قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قالا لي: انطلِقْ انطلِقْ.

فانطلقنا، فأتَينا علىٰ رجلٍ مستلقٍ لِقفاه، وإذا آخَرُ قائمٌ عليه بكَلُّوب[٤] من حديد، وإذا هو يأتي أحدَ شِقَّيْ وجهِه، فيُشَرْشِرُ شِدْقَه[٥] إلىٰ قفَاه، ومِنخرَه إلىٰ قفاه، وعينَه إلىٰ قفاه، ثمّ يتحوّل إلىٰ الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتىٰ يصحّ ذلك الجانب كما كان، ثمّ يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل في المرّة الأولىٰ، قال: قلتُ سبحان الله! ما هذان؟ فقالا لي: انطلِقْ انطلِقْ.

فانطلقنا، فأتينا علىٰ مثل التنّور، وإذا فيه لغَطٌ وأصواتٌ، قال: فاطّلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عُراة، وإذا هم يأتيهم لهبٌ من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهبُ

(١) برقم (٧٠٤٧).

(٢) أي: يشدخه ويكسره.

(٣) أي: يتدحرج.

(٤) الكَلُّوب: حديدة معوجّة الرأس.

(٥) الشدق: جانب الفم. وشرشرة الشيء: تقطيعه وتشقيقه.

ضَوْضَوْا[١]، فقال: قلتُ: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلِقْ انطلق.

قال: فانطلقنا، فأتينا علىٰ نهرٍ أحمرَ مثل الدم، فإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يسبح، وإذا علىٰ شط النهر رجلٌ قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارةَ، فيفغر له فاه، فيُلقِمه حجرًا، فينطلق، فيسبح، ثم يرجع إليه؛ كلّما رجع إليه فغَر له فاه، فألقمه حجرًا، قلتُ لهما: ما هذان؟ قالا لي: انطلِقْ انطلِقْ.

فانطلقنا، فأتينا علىٰ رجل كريه المَرْآةِ[٢]، كأكره ما أنت راءٍ رجلًا مَرْأًىٰ، وإذا هو عنده نارٌ يحُشها[٣] ويسعىٰ حولها، قال: قلتُ لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلِقْ انطلِقْ.

فانطلقنا، فأتينا علىٰ روضة مُعْتمّة[٤] فيها من كلّ نَور الربيع، وإذا بين ظهرانَي الروضة رجلٌ طويلٌ لا أكاد أرىٰ رأسه طولًا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثرِ ولدان رأيتُهم قطُّ، قال: قلتُ: ما هذا؟ وما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلِقْ انطلِقْ.

فانطلقنا، فأتينا إلىٰ دوحة عظيمة لم أر دوحةً قطّ أعظمَ منها ولا أحسنَ! قال: قالا لي: ارقَ فيها، فارتقينا فيها إلىٰ مدينة مبنيّة بلَبِنِ ذهب ولبِنِ فضّة، قال: فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففُتِح لنا، فدخلناها، فتلقّانا رجالٌ شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطر منهم كاقبح ما أنت راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا، فقَعُوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهرٌ معترضٌ يجري كأنّ ماءَه المحضُ[٥] في البياض، فذهبوا، فوقعوا فيه، ثمّ رجعوا إلينا، وقد ذهب ذلك السوء عنهم، قال: قالا لي: هذه جنّة عدن، وهذاك منزلك.

---

(١) ضوضىٰ القوم: صاحوا واختلطت أصواتهم.

(٢) المرآة والمرأىٰ: المنظر.

(٣) أي: يوقدها.

(٤) من اعتمّ النّبت إذا التفّ وطال.

(٥) اللبن الخالص بلا رغوة أو شَوب ماء.

قال: فسمَا بصَري صُعُدًا، فإذا قصرٌ مثل الرَّبابة البيضاء[١].

قال: قالا لي: هذاك منزلك، قال: قلت لهما: بارك الله فيكما، فذراني فأدخُلَه، قالا: أمّا الآن فلا، وأنت داخله.

قال: قلت لهما: فإنّي رأيتُ منذ الليلة عجبًا، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا: أمَا إنّا سنخبرك:

أمّا الرجل الأول الذي أتيتَ عليه يُثلَغ رأسُه بالحجر، فإنّه الرجل يأخذ القرآنَ، فيرفُضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأمّا الرجل الذي أتيتَ عليه يُشَرْشَرُ شدقُه إلىٰ قفاه، ومنخرُه إلىٰ قفاه، وعينه إلىٰ قفاه، فإنّه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكَذْبةَ تبلغُ الآفاق.

وأمّا الرجال والنساء العُراةُ الذين هم في مثلِ بناء التنّور، فإنّهم الزناة والزواني.

وأمّا الرجل الذي أتيتَ عليه يسبَح في النهر، ويُلقَم الحجارةَ، فإنّه آكل الربا.

وأمّا الرجلُ الكريهُ الْمَرآةِ الذي عند النار يحُشّها ويسعىٰ حولَها، فإنّه مالكٌ خازنُ جهنم.

وأمّا الرجل الطويل الذي في «الروضة»، فإنّه إبراهيم.

وأما الولدان الذين حوله، فكلُّ مولودٍ مات علىٰ الفطرة- وفي رواية البرقاني: «وُلِدَ علىٰ الفطرة»- فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين».

وأمّا القوم الذين كانوا شطرٌ منهم حسنٌ، وشطرٌ منهم قبيحٌ، فإنّهم قومٌ خلطوا عملًا صالحًا وآخَرَ سيئًا، تجاوز الله عنهم».

---

(١) الربابة: السحابة.

ص(١٥٧)

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنّها تُحدِث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن.

قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قال مجاهد[١]: إذا ولّىٰ الظالم سعىٰ بالظلم والفساد، فيحبس اللهُ بذلك القَطْرَ، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحبّ الفساد، ثمّ قرأ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ الآية، ثمّ قال: أمَا والله ما هو بحرَكم هذا، ولكن كلُّ قرية علىٰ ماءٍ جارٍ فهو بحرٌ.

وقال عكرمة: ظهر الفساد في البرّ والبحر، أما إنّي لا أقول: بحركم هذا، ولكن كلّ قرية علىٰ ماء[٢].

وقال قتادة: أمّا البرّ فأهل العمود، وأمّا البحر فأهل القرىٰ والريف[٣].

قلت: وقد سمّىٰ الله تعالىٰ الماء العذب بحرًا، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان:٥٣].

وليس في العالم بحرٌ حلوٌ واقفٌ، وإنّما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو الساكن، فسمَّىٰ القرىٰ التي علىٰ المياه الجارية باسم تلك المياه.

وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم:٤١] قال: الذنوب[٤].

---

(١) في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] انظر: تفسير الطبري (٣/ ٥٨٣)، (١٨/ ٥١٠)، وسنده صحيح.

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٥١٠)، وسنده صحيح.

(٣) تفسير الطبري (١٨/ ٥١١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٨٦)، وسنده صحيح.

(٤) تفسير الطبري (١٨/ ٥١١)، وسنده صحيح.

قلت: أراد أنّ الذنوب سبب الفساد الذي ظهر. وإن أراد أنّ الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها؛ فيكون قوله ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ لام العاقبة والتعليل.

وعلىٰ الأول، فالمراد بالفساد النقصُ والشرُّ والآلامُ التي يُحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلّما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم عقوبةً، كما قال بعض السلف: كلّما أحدثتم ذنبًا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبةً(١).

والظاهر - والله أعلم - أنّ «الفسادَ» المرادُ به الذنوبُ وموجِباتها.

ويدلّ عليه قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، فهذا حالنا، وإنّما أذاقنا الشيءَ اليسيرَ من أعمالنا، فلو أذاقنا كلَّ أعمالنا لما ترك علىٰ ظهرها من دابة.

ومن تأثير معاصي الله في الأرض: ما يحِل بها من الخسف، والزلازل، ومَحْقِ بركتِها؛ وقد مرَّ رسولُ الله ﷺ علىٰ ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم، ومِن شُرْب مياههم، ومن الاستقاء من آبارهم، حتىٰ أمر أن يُعلَف العجينُ الذي عُجنَ بمائهم للنواضح(٢)، لتأثير شؤم المعصية في الماء.

وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما تُرمَىٰ به من الآفات؛ وقد ذكر الإمام أحمد في «مسنده»(٣) في ضمن حديث قال: وُجِدَت في خزائن بني أمية حنطةٌ، الحبةُ بقدر نواة التمر، وهي في صُرّة مكتوبٍ عليها: هذا كان ينبت في زمن العدل(٤).

وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه بما أحدث العباد من الذنوب.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٥٠) عن مالك بن دينار عن الحجاج.

(٢) يعني: الإبل.

والحديث أخرجه البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) برقم (٧٩٤٩)، والدوري في «تاريخه» عن ابن معين (٤/ ١٩١) (٣٨٩٧) بمثله إلاّ أنه قال: «بطاعة الله» بدل «بالعدل»، وسنده صحيح إلىٰ أبي قحذم.

(٤) جاء في «المسند» بنحوه.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنّهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مّما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنّما حدثت من قرب.

وأمّا تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روىٰ الترمذي في «جامعه»[1] عنه ﷺ أنّه قال: «**خلق الله آدم، وطولُه في السماء ستّون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقصُ حتّىٰ الآن**».

ولمّا يطهِّر[2] الله سبحانه الأرضَ من الظلَمة والفجرة والخوَنة، ويُخرجُ عبدًا من عباده من أهل بيتِ نبيّه ﷺ، فيملأ الأرض قسطًا كما ملئت جَورًا، ويقتل المسيحُ اليهودَ والنصارىٰ، ويقيمُ الدينَ الذي بعث الله به رسولَه = تُخرِجُ الأرضُ بركتَها، وتعود كما كانت، حتّىٰ إنّ العصابة من الناس ليأكلون الرمّانة، ويستظلون بقِحْفِها[3]، ويكون العنقود من العنب وِقْرَ بعير[4]، وإنّ اللِّقحة[5] الواحدة لَتكفي الفئام[6] من الناس؛ وهذا لأنّ الأرض لَمّا طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالىٰ التي محقتها الذنوب والكفر.

ولا ريب أنّ العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارُها ساريةً في الأرض

---

(١) كذا وقع هنا، وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين، وإليهما عزاه المؤلف في «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٢)، و«المنار المنيف» (٦٦)، انظر: «صحيح البخاري» (٣٣٢٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤١).

(٢) كذا في جميع النُّسخ، و«لمّا» الحِينِيَّة مختصةٌ بالفعل الماضي، وجاء نحوه في نونية المؤلف (٤٤٢، ١٢٠١، ٣٠٨١)، وفي ط: «فإذا أراد الله أن يطهر»، ولعلّه إصلاح للنصّ.

(٣) يعني قشرها، تشبيهًا بقحف الرأس، وهو الذي فوق الدماغ، وقيل: هو ما انفلق من جمجمته وانفصل.

(٤) الوِقر: الحِمل.

(٥) الناقة القريبة العهد بالنّتاج.

(٦) الجماعة الكثيرة.

تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عُذِّبتْ بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أنّ هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناسبت حكمة الله وحكمه الكوني أولًا وآخرًا، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف.

وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرز ودار الجزاء.

وتأمّل مقارنةَ الشيطان ومحلَّه ودارَه، فإنّه لما قارن العبدَ واستولىٰ عليه؛ نُزِعَت البركةُ من عمره، وعمله، وقوله، ورزقه، ولَمّا أثرت طاعتُه في الأرض ما أثّرت نُزِعَت البركةُ من كلّ محلّ ظهرت فيه طاعته، وكذلك مسكنه لَمّا كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الرَّوح والرّحمة والبركة.

فصل

ص(١٦٣)

ومن عقوبات الذنوب: أنّها تطفئ من القلب نارَ الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزيّة لحياة جميع البدن؛ فالغيرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخَبَث والصفات المذمومة، كما يُخرج الكِيرُ خَبَث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم همّةً أشدُّهم غيرةً علىٰ نفسه، وخاصّته، وعموم الناس.

ولهذا كان النبي ﷺ أغيرَ الخلق علىٰ الأمة، والله سبحانه أشدّ غيرةً منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنّه قال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغيرُ منه، والله أغيرُ منّي**»[١].

وفي الصحيح أيضًا عنه أنّه قال في خطبة الكسوف: «**يا أمّةَ محمَّد، ما أحدٌ أغيرَ من الله أن يزني عبدُه، أو تزني أمَتُه**»[٢].

وفي الصحيح أيضًا عنه أنّه قال: «**لا أحدَ أغيرُ من الله، من أجل ذلك حرّم**

(١) البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩)، وسعد هو سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشِّرين ومنذرين، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من الله، من أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه»(١).

فجمع في هذا الحديث بين الغيرةِ التي أصلُها كراهةُ القبائح وبغضُها، ومحبةِ العذرِ الذي يوجب كمالَ العدل والرحمة والإحسان.

وأنّه سبحانه مع شدّة غيرته يُحِبّ أن يعتذر إليه عبدُه، ويقبل عذرَ من اعتذر إليه، وأنّه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يَغار من ارتكابه حتىٰ يُعذِرَ إليهم؛ ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا.

وهذا غاية المجد والإحسان، ونهاية الكمال، فإنّ كثيرًا ممّن تشتدّ غيرته من المخلوقين تحمله شدّةُ المغيرة علىٰ سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قَبولٍ لِعذر من اعتذر إليه؛ بل يكون له في نفس الأمر عذرٌ، ولا تَدَعُه شدةُ الغيرة أنَ يقبل عذرَه، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله علىٰ قبولها قلّةُ الغيرة حتىٰ يتوسّع في طرق المعاذير، ويرىٰ عذرًا ما ليس بعذر، حتىٰ يعذِر كثير منهم بالقدَر.

وكلٌّ منهما غيرُ ممدوح علىٰ الإطلاق؛ وقد صحّ عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إنّ من الغيرة ما يحبّها الله، ومنها ما يبغضه الله، فالتي يبغضها الغيرةُ في غير ريبة**»، وذكر الحديث(٢).

وإنّما الممدوح اقترانُ الغيرة بالعذر، فيغار في محلّ الغيرة، ويعذِر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًا.

---

(١) البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٩٨)، وعبد الرزاق في «الجامع» (١٩٥٢٢)، والطبراني (١٧/ ٣٤٠)، وابن خزيمة (٢٤٧٨) وغيرهم، وقد صححه غير واحد.

ولَمّا جمع سبحانه صفات الكمال كلَّها كان أحقَّ بالمدح من كلّ أحد، ولا يبلغ أحد أن يمدحَه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسَه وأثنىٰ علىٰ نفسه.

فالغيورُ قد وافق ربّه سبحانه في صفةٍ من صفاته، ومن وافق الله في صفةٍ من صفاته قادته تلك الصفةُ إليه بزمامه، وأدخلَتْه علىٰ ربّه، وأدْنَتْه منه، وقرّبتْه من رحمته، وصيّرتْه محبوبًا له؛ فإنه سبحانه رحيم يحبّ الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحبّ العلماء، قوي يحبّ المؤمن القوي، وهو أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، حييّ يحبّ أهل الحياء، جميل يحبّ الجمال، وِتْر يحبّ الوتر.

ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلّا أنّها توجب لصاحبها ضدَّ هذه الصفات، وتمنعه من الاتصاف بها؛ لكفىٰ بها عقوبةً، فإنّ الخطرة تنقلب وسوسةً، والوسوسة تصير إرادةً، والإرادة تقوىٰ فتصير عزيمة، ثمّ تصير فعلًا، ثمّ تصير صفةً لازمةً وهيئةً ثابتةً راسخةً، وحينئذ يتعذّر الخروج منها، كما يتعذّر عليه الخروج من صفاته القائمة به.

والمقصود: أنّه كلّما اشتدّت ملابسته الذنوب أخرجت من القلب الغيرةَ علىٰ نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتىٰ لا يستقبح بعد ذلك القبيح، لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلىٰ هذا الحدِّ فقد دخل في باب الهلاك.

وكثيرٌ من هؤلاء لا يقتصر علىٰ عدم الاستقباح، بل يحسِّن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثّه عليه، ويسعىٰ له في تحصيله؛ ولهذا كان الديّوثُ أخبثَ خلق الله، والجنة حرام عليه.

وكذلك محلّل الظلم والبغي لغيره، ومزيّنه له، فانظر ما الذي حملت عليه قلّة المغيرة!

وهذا يدلّك علىٰ أنّ أصل الدِّين الغَيرة، ومَن لا غَيرة له لا دِين له، فالغَيرة

تُحمي القلبَ، فتحمَىٰ له الجوارحُ، فتدفع السوء والفواحش، وعدمُ الغيرة يميت القلبَ، فتموت الجوارح، فلا يبقىٰ عندها دفع البتة.

ومَثَلُ الغَيرة في القلب كمثلِ القوّة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداءُ المحلّ قابلًا، ولم يجد دافعًا، فتمكّن، فكان الهلاك، ومَثَلُها مثل صياصي الجاموس[1] التي يدفع بها عن نفسه وولده، فإذا كُسِرَت طمع فيه عدوّه.

فصل

ص(١٦٨)

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادّة الحياة للقلب، وهو أصلُ كلّ خير، وذهابُه ذهابُ الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**الحياءُ خيرٌ كلُّه**»[2].

وقال: «**إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستَحْي فاصنَعْ ما شئتَ**»[3]!

وفيه تفسيران:

أحدهما: أنّه علىٰ التهديد والوعيد، والمعنىٰ: من لم يستح فإنّه يصنع ما شاء من القبائح، إذ الحامل علىٰ تركها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياءٌ يزَعُه[4] من القبائح، فإنّه يواقعها. وهذا تفسير أبي عبيد.

والثاني: أنّ الفعلَ إذا لم تستح منه من الله فافعله، وإنّما الذي ينبغي تركه ما

---

(١) يعني: قرونه.

(٢) مسلم (٣٧).

(٣) البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤).

(٤) أي: يكفه.

يُستحىٰ منه من الله، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانئ[1].

فعلىٰ الأول يكون تهديدًا، كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وعلىٰ الثاني يكون إذنًا وإباحةً.

فإن قيل: فهل من سبيل إلىٰ حمله علىٰ المعنيين؟

قلت: لا، ولا علىٰ قول من يحمل المشترك علىٰ جميع معانيه، لِمَا بين الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أحدُ المعنيين يوجبُ اعتبار الآخر.

والمقصود أنّ الذنوب تُضْعِف الحياءَ من العبد حتىٰ ربّما انسلخ منه بالكلّيّة، حتىٰ إنّه ربما لا يتأثّر بعلم الناس بسوءِ حاله ولا باطّلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبيح ما يفعله، والحامل له علىٰ ذلك انسلاخه من الحياء.

وإذا وصل العبد إلىٰ هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع، كما قيل[2]:

وإذا رأىٰ إبليسُ طلعةَ وجهه حَيًّا، وقال: فديتُ مَن لا يفلحُ

والحياءُ مشتقٌّ من الحياة، والغْيث يسمَّىٰ «حيًا» بالقصر؛ لأنّ به حياةَ الأرض والنبات والدوابّ، وكذلك بالحياء حياةُ الدنيا والآخرة، فمن لا حياءَ فيه ميِّتٌ في الدنيا شقيٌّ في الآخرة.

وبين الذنوب وبين قلّة الحياء وعدم الغيرة تلازمٌ من الطرفين، وكلٌّ منهما يستدعي الآخر، ويطلبه حثيثًا.

ومن استحيا من الله عند معصيته استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحْيِ من معصيته لم يستحيِ من عقوبته.

---

(١) لم أجده في المطبوع من مسائل ابن هانئ.

(٢) البيت للبحتري في ديوانه (١/ ٤٨٢).

ص(١٧٠)

فصل

ومن عقوبات الذنوب: أنّها تُضْعِف في القلب تعظيمَ الربّ ﷻ، وتُضْعِف وقارَه في قلب العبد، ولا بُدّ، شاءَ أم أبىٰ، ولو تمكّن وقارُ الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرّأ علىٰ معاصيه.

وربما اغترّ المغترّ وقال: إنّما يحملني علىٰ المعاصىٰ حسنُ الرَّجاء وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي.

وهذا من مغالطة النفس، فإنّ عظمةَ الله وجلالَه في قلب العبد وتعظيمَ حرماته تحولُ بينه وبين الذنوب؛ فالمتجرّئون علىٰ معاصيه ما قدروه حقّ قدره، وكيف يقدِّره حقَّ قدره أو يعظِّمه ويكبّره ويرجو وقاره ويُجلّه من يهون عليه أمرُه ونهيُه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل! وكفىٰ بالعاصي عقوبةً أن يضمحلَّ من قلبه تعظيمُ الله ﷻ، وتعظيمُ حرماته، ويهونَ عليه حقّه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله ﷻ مهابتَه من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفّون به، كما هان عليه أمره، واستخفّ به، فعلىٰ قدر محبة العبد لله يحبّه الناس، وعلىٰ قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلىٰ قدر تعظيمه لله وحرماتِه يعظّم الناس حرماته.

وكيف ينتهك عبدٌ حرماتِ الله، ويطمع أن لا ينتهك الناسُ حرماته؟ أم كيف يهون عليه حقُّ الله، ولا يهوّنه الله علىٰ الناس؟ أم كيف يستخفّ بمعاصي الله، ولا يستخِفّ به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلىٰ هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنّه أركس أربابَها بما كسبوا، وغطّىٰ علىٰ قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنّه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيّعهم كما ضيّعوا أمره.

ولهذا قال تعالىٰ في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ فإنّهم لَمّا هان عليهم السجود له، واستخفّوا به، ولم يفعلوه، أهانهم، فلم يكن لهم من مُكرِمٍ بعد أنْ أهانهم، ومن ذا يكرِم من أهانه الله، أو يهين من أكرمه الله؟

فصـــل

ص(١٧٢)

ومن عقوباتها: أنّها تستدعي نسيانَ الله لعبده، وتركَه، وتخليتَه بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجىٰ معه نجاة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٨-١٩].

فأمر بتقواه، ونهىٰ أن يتشبّه عباده المؤمنون بمن نسيَه بترك تقواه، وأخبر أنّه عاقب من ترك التقوىٰ بأنْ أنساه نفسه، أي أنساه مصالحَها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبديّة وكمال لذّتها وسرورها ونعيمها، فأنساه ذلك كلَّه جزاءً لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره؛ فترىٰ العاصي مُهمِلًا لمصالح نفسه، مضيِّعًا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتّبع هواه، وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرّط في سعادته الأبديّة، واستبدل بها أدنىٰ ما يكون من لذّة إنّما هي سحابة صيف أو خيال طيف!

أحـلامُ نـومٍ أو كظـلٍّ زائـل إنّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدَعُ[1]

وأعظمُ العقوبات نسيانُ العبد لنفسه، وإهمالُه لها، وإضاعتُه حظَّها ونصيبَها من الله، وبيعُها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيَّعَ من لا غنىٰ له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به مَن عنه كلُّ الغنىٰ، ومنه كلُّ العِوَض:

(١) هو من أبيات لعمران بن حِطان كما في «خزانة الأدب» (٥/ ٣٦١).

مـن كلّ شـيء إذا ضيّعتَه عوضٌ   ومـا مـن الله إنْ ضيّعتَه عوضُ(١)

فالله سبحانه يعوّض عن كلّ ما سواه، ولا يعوّض منه شيء، ويغني عن كلّ شيء ولا يُغني عنه شيءٌ، ويمنع من كل شيء ولا يُمنع منه شيءٌ، ويجير من كلّ شيء ولا يجير منه شيء.

فكيف يستغني العبد عن طاعةِ مَن هذا شأنُه طرفةَ عين؟ وكيف ينسىٰ ذكره ويضيّع أمرَه حتىٰ يُنسيَه نفسَه، فيخسرَها، ويظلمَها أعظمَ الظلم؟ فما ظلم العبدُ ربَّه، ولكن ظلمَ نفسَه، وما ظلمه ربُّه، ولكن هو الذي ظلم نفسَه!

فصــل

ص(١٧٤)

ومن عقوباتها: أنّها تُخرِجُ العبدَ من دائرة الإحسان، وتمنعه ثوابَ المحسنين؛ فإنّ الإحسان إذا باشر القلبَ منعَه من المعاصي، فإنّ مَنْ عَبَدَ الله كأنّه يراه لم يكن ذلك إلّا لاستيلاء ذكره ومحبّته وخوفه ورجائه علىٰ قلبه، بحيث يصير كأنّه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها، فإذا خرج من دائرة الإحسان فاته صحبةُ رُفقِه الخاصّة، وعيشُهم الهنيء، ونعيمُهم التام.

فإنْ أراد الله به خيرًا أقرّه في دائرة عموم المؤمنين، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان، كما قال النبيُّ ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا ينتهب نُهبةً ذاتَ شرفٍ يرفع إليه فيها الناسُ أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن، فإيّاكم إيّاكم، والتوبةُ معروضةٌ بعد**»(٢) = خرج من دائرة الإيمان، وفاته رفقةُ المؤمنين وحسنُ دفاع الله عنهم، فإنّ الله يدفع عن الذين آمنوا، وفاته كلُّ خير رتّبه الله

(١) هو بدون عزو في «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٢٨)، بنحوه.

(٢) البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، واللفظ له.

في كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كلُّ خصلةٍ منها خيرٌ من الدنيا وما فيها:

فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرورَ الدنيا والآخرة[١]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[٢] [الحج:٣٨].

ومنها: استغفار حملة العرش لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧].

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يذلّ من والاه الله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال:١٢].

ومنها: أنّ لهم الدرجات عند ربهم، والمغفرة، والرزق الكريم.

ومنها: العزّة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

ومنها: معيةُ الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة:١١].

ومنها: إعطاؤهم كِفْلَين من رحمته، وإعطاؤهم نورًا يمشون به، ومغفرةُ ذنوبهم.

ومنها: الودّ الذي يجعله سبحانه لهم، وهو أنّه يحبّهم ويحبِّبُهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين.

---

(١) «شرور الدنيا والآخرة» لم يرد في س، وأخشى أن تكون زيادة من غير المؤلف.

(٢) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو من السبعة، وقرأ غيرهما: «يدافع».

ومنها: أمانهم من الخوف يومَ يشتدّ الخوف: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:٤٨].

ومنها: أنهم المنعَم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهديَنا إلىٰ صراطهم في كلّ يوم وليلة سبعَ عشرةَ مرّةً.

ومنها: أنّ القرآن إنّما هو هدًىٰ لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[فصلت:٤٤].

والمقصود أنّ الإيمان سببٌ جالبٌ لكلِّ خير، وكلُّ خير في الدنيا والآخرة فسببُه الإيمان، وكلُّ شرّ في الدنيا والآخرة فسببُه عدمُ الإيمان؛ فكيف يهون علىٰ العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه؟ ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين، فإن استمرّ علىٰ الذنوب وأصرّ عليها خِيفَ عليه أن يرين علىٰ قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلّيّة.

ومن هنا اشتدّ خوفُ السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر[1]!

فصل

ص(١٧٨)

ومن عقوباتها: أنها تُضْعِفُ سيرَ القلب إلىٰ الله والدار الآخرة، أو تعوقه، أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدَعه يخطو إلىٰ الله خطوةً، هذا إن لم تردّه عن وجهته إلىٰ ورائه! فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب.

والقلب إنّما يسير إلىٰ الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي

(١) ذكر نحوه مكي في «قوت القلوب» (١/ ٤٦٢) عن المسيح عليه السلام.
وذُكر نحوه أيضًا عن سهل التستري، انظر: «طريق الهجرتين» (٩٣).

تسيّره، فإن زالت بالكلّية انقطع عن الله انقطاعًا يبعُد تداركُه، والله المستعان.

فالذنب إمّا أن يميت القلب، أو يُمرضَه مرضًا مخوفًا، أو يضعف قوّته، ولا بدّ، حتىٰ ينتهي ضعفه إلىٰ الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ، وهي: الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلَع الدَّين وغلبة الرجال[1].

وكلّ اثنين منها قرينان: فالهمُّ والحزن قرينان، فإن المكروهَ الواردَ علىٰ القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقّعه أحدثَ الهمَّ، وإن كان من أمر ماضٍ قد وقع أحدثَ الحزَنَ.

والعجز والكسل قرينان، فإنّ تخلّفَ العبدُ عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضلَع الدين وقهر الرجال قرينان، فإنّ استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلَع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال.

والمقصود أنّ الذنوب من أقوىٰ الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنّها من أقوىٰ الأسباب الجالبة لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء؛ ومن أقوىٰ الأسباب الجالبة لزوال نعم الله وتحوُّل عافيته، وفجاءة نقمته، وجميع سَخَطه.

---

(١) البخاري (٦٣٦٩)، ومسلم (٢٧٠٦).

ص(١٧٩)

فصل

ومن عقوبات الذنوب: أنّها تُزيلُ النِّعَم، وتُحِلُّ النِّقَم، فما زالت عن العبد نعمةٌ إلّا بذنب، ولا حلّت به نقمةٌ إلّا بذنب؛ كما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما نزل بلاءٌ إلّا بذنب، ولا رُفِعَ بلاءٌ إلّا بتوبة[1].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

فأخبر تعالىٰ أنّه لا يغيّر نِعَمَه التي أنعم بها علىٰ أحدٍ حتىٰ يكون هو الذي يغيّر ما بنفسه، فيغيّر طاعةَ الله بمعصيته، وشكرَه بكفره، وأسبابَ رضاه بأسباب سخطه؛ فإذا غَيَّرَ غُيِّرَ عليه جزاءً وفاقًا، وما ربّك بظلّام للعبيد، فإنْ غيّر المعصيةَ بالطاعة غيّر الله عليه العقوبةَ بالعافية، والذلَّ بالعزّ.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

وفي بعض الآثار الإلهيّة عن الربّ تبارك وتعالىٰ أنّه قال: «وعزّتي وجلالي، لا يكون عبد من عَبِيدي علىٰ ما أُحِبّ، ثمّ ينتقل عنه إلىٰ ما أكره، إلّا انتقلتُ له مما يحبّ إلىٰ ما يكره، ولا يكون عبدٌ من عَبيدي علىٰ ما أكره، ثمّ ينتقل عنه إلىٰ ما أُحِبّ، إلّا انتقلتُ له ممّا يكره إلىٰ ما يحبّ»[2].

---

(١) كذا نقله المصنف في «طريق الهجرتين» أيضًا عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن شيخ الإسلام نسبه في «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ١٦٣) إلىٰ عمر بن عبد العزيز.

(٢) لم أقف عليه.

وقد أحسن القائل:

إذا كنتَ في نعمةٍ فَارْعَها ... فإنّ المعاصي تُزيل النِّعَمْ
وحُطْها بطاعةِ ربِّ العبادِ ... فربُّ العبادِ سريعُ النِّقَمْ
وإيّاك والظلمَ مهما استطعتَ ... فظلمُ العبادِ شديدُ الوَخَمْ
وسافِرْ بقلبك بينَ الورىٰ ... لِتُبصِرَ آثارَ مَنْ قد ظَلَمْ
فتلك مساكنُهم بعدَهم ... شهود عليهم ولا تُتَّهَمْ
وما كان شيء عليهم أضَرَّ ... من الظلم، وهوالذي قد قَصَمْ
فكم تركوا مِنْ جِنانٍ ومِنْ ... قُصورٍ وأُخرىٰ عليهم أطَمّ
صلُوا بالجحيم وفات النعيمُ ... وكان الذي نالَهم كالحلُمْ[1]

فصل

ص(١٨٢)

ومن عقوباتها: ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلّا خائفًا مرعوبًا.

فإنّ الطاعةَ حِصنُ اللهِ الأعظم، الذي مَنْ دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كلّ جانب؛ فمن أطاع الله انقلبت المخاوفُ في حقّه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمِنُه مخاوفَ.

(١) البيت الأول أنشده المصنف في «طريق الهجرتين» (١٣٤، ٥٨٩)، و«بدائع الفوائد» (٧١٢)، وقد نقل ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٧٠) بسنده أنّ عمر بن عبد العزيز كان يتمثل بهذا البيت وتاليه، وروايته فيه:

ولا تحقرنّ صغير الذنوب ... فإنّ الإله شديد النقمْ

وانظر أيضًا «تاريخ دمشق» (٥١/ ١٠٣)، وهما مع أبيات أخرىٰ في الديوان المنسوب إلىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١٣٨).

فلا تجد العاصي إلّا وقلبُه كأنّه بين جناحَي طائرٍ، إنْ حرّكتِ الريحُ البابَ قال: جاء الطلب، وإن سمع وَقْعَ قدَمٍ خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، يحسب كلَّ صيحةٍ عليه، وكلَّ مكروه قاصدًا إليه، فمن خاف الله آمنه من كلّ شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كلّ شيء.

بذا قضىٰ اللهُ بين الناس مذ خُلِقوا ... أنّ المخاوفَ والإجرامَ في قَرَنِ

فصل

ص(١٨٢)

ومن عقوباتها: أنها تُوقعُ الوحشةَ العظيمةَ في القلب، فيجد المذنب نفسَه مستوحشًا، قد وقعت الوحشةُ بينه وبين ربه، وبينه وبين الخلق، وبينه وبين نفسه.

وكلّما كثرت الذنوب اشتدّت الوحشة، وأمرُّ العيشِ عيشُ المستوحشين الخائفين، وأطيبُ العيش عيشُ المستأنسين؛ فلو نظر العاقلُ، ووازن بين لذّة المعصية وما تُوقِعُه من الخوف والوحشة، لَعلِمَ سوءَ حاله وعظيم غَبْنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف.

فإن كنتَ قد أوحشتك الذنوبُ ... فدَعْهـا إذا شـئتَ واسـتأْنسِ(١)

وسرّ المسألة: أنّ الطاعة تُوجب القربَ من الربّ، وكلّما اشتدّ القرب قوي الإنس؛ والمعصية توجبُ البعدَ من الربّ، وكلّما ازداد البعدُ قويت الوحشةُ؛ ولهذا يجد العبدُ وحشةً بينه وبين عدوِّه؛ للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه، ويجد أُنسًا وقُربًا بينه وبين مَن يحبّ، وإن كان بعيدًا عنه.

والوحشة سببها الحجاب، وكلّما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلةُ توجبُ الوحشة، وأشدُّ منها وحشةُ المعصية، وأشدُّ منها وحشةُ الشرك والكفر.

---

(١) سبق في ص (٨٠).

ولا تجد أحدًا يلابس شيئًا من ذلك إلّا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابَسَه منه، فتعلو الوحشةُ وجهَه وقلبَه، فيستوحِشُ، ويُستوحَشُ منه.

ص(١٨٤)

فصـــل

ومن عقوباتها: أنّها تصرِفُ القلبَ عن صحّته واستقامته إلىٰ مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولًا، لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه؛ فإنّ تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوبُ أمراضُ القلوب وأدواؤُها، ولا دواءَ لها إلّا تركها.

وقد أجمع السائرون إلىٰ الله أنّ القلوب لا تعطَىٰ مُناها حتّىٰ تصل إلىٰ مولاها، ولا تصل إلىٰ مولاها حتىٰ تكون صحيحةً سليمةً، ولا تكون صحيحةً سليمةً حتىٰ ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصحّ لها ذلك إلّا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرضُ قتَلَ أو كاد.

وكما أنّ من نهىٰ نفسه عن الهوىٰ كانت الجنّة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيمَ أهلها نعيمٌ البتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمرٌ لا يُصدِّق به إلّا من باشر قلبُه هذا وهذا.

ولا تحسبْ أنّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، مقصورٌ علىٰ نعيمِ الآخرة وجحيمِها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيمٍ، وهؤلاء في جحيمٍ، وهل النعيمُ إلّا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلّا عذاب القلب؟

وأيّ عذاب أشدُّ من الخوف، والهمّ، والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلّقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكلِّ وادٍ منه شعبة؟ وكلّ

شيء تعلّق به وأحبّه من دون الله فإنّه يسومه سوءَ العذاب.

فكلّ من أحبّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به ثلاث مرّات في هذه الدار: فهو يعذَّب به قبل حصوله حتىٰ يحصل، فإذا حصل عُذِّبَ به حالَ حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع المعارضات، فإذا سُلِبَه اشتدّ عذابُه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأمّا في البرزخ، فعذابٌ يقارنه ألمُ الفراق الذي لا يرجو عودَه، وألمُ فَواتِ ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضدّه، وألمُ الحجاب عن الله، وألمُ الحسرة التي تقطع الأكباد؛ فالهمّ والغمّ والحسرة والحَزن تعمل في نفوسهم نظيرَ ما تعمل الهوامّ والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائمٌ مستمرّ حتىٰ يردّها الله إلىٰ أجسادها، فحينئذ ينتقل العذابُ إلىٰ نوع هو أدهىٰ وأمرّ.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا، وأُنسًا بربّه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبّه، وطمأنينةً بذكره، حتىٰ يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه! [١]

ويقول الآخر: إن كان أهلُ الجنّة في مثل هذه الحال، إنّهم لفي عيشٍ طيّبٍ[٢]!

ويقول الآخر: مساكين أهلُ الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها![٣].

ويقول الآخر[٤]: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالَدونا عليه بالسيوف.

---

(١) جاء في «المحتضرين» (٢٩٤) نحوه عن بلال بن سعد، قال حين حضرته الوفاة: غدًا نلقىٰ الأحبة، محمّدًا وحزبه فتقول امرأته: واويلاه! ويقول: وافرحاه!

(٢) نقل ابنُ الجوزي نحوَه عن أبي سليمان المَغربي في «صفة الصفوة» (٢/ ٣٦٩).

(٣) نقله أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٧٧) عن ابن المبارك، وفيه تكملة: «قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله ﷻ».

(٤) هو إبراهيم بن أدهم، كما في «الحلية» لأبي نعيم (٧/ ٤٢٩).

ويقول الآخر: إنّ في الدنيا جَنّة، من لم يدخلها لم يدخل جنّة الآخرة [(١)].

فيا مَن باع حظّه الغالي بأبخس الثمن، وغُبِنَ كلّ الغَبْن في هذا العقد، وهو يرىٰ أنّه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرةٌ بقيمة السِّلَع فَسَلِ، المقوِّمين!

فيا عجبًا من بضاعةٍ معك، الله مشتريها، وثمنُها جنّةُ المأوىٰ، والسفيرُ الذي جرىٰ علىٰ يده عقدُ التبايع وضمِنَ الثمنَ عن المشتري هو الرسول، وقد بعتَها بغاية الهوان!

إذا كان هـذا فعـلَ عبـدٍ بنفسـه ... فمَـنْ ذا لـه مـن بعـد ذلـك يكـرِمُ

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨].

فصــل

ص(١٨٧)

ومن عقوباتها: أنّها تُعمي بصيرَة القلب، وتطمس نوره، وتسدّ طرق العلم، وتحجب موادّ الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لَمّا اجتمع به ورأىٰ تلك المخايل: إنّي أرىٰ الله قد ألقىٰ علىٰ قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية[(٢)].

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحلّ، وظلام المعصية يقوىٰ، حتىٰ يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مَهْلكٍ يسقط فيه، وهو لا يبصره، كأعمىٰ خرجَ بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب. فيا عزّةَ السلامة، ويا سرعةَ العطب!

ثمّ تقوىٰ تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلىٰ الجوارح، فيغشىٰ الوجهَ منها سوادٌ بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمةً، كما قال النبي ﷺ: «**إنّ هذه القبور ممتلئةٌ علىٰ أهلها ظلمةً وإنّ الله منوّرها**

(١) نسبه المصنف في «المدارج» (١/ ٥٣٦)، و«الوابل الصيب» (١٠٩) إلىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد سَمِع ذلك منه.

(٢) سبق في ص (٧٩).

بصلاتي عليهم»(١).

فإذا كان يومُ المعادِ وحَشْرِ الأجساد علَتِ الوجوهَ علوًّا ظاهرًا يراه كلُّ أحد، حتّىٰ يصير الوجه أسود مثل الحُمَمة. فيالها عقوبةً لا توازن لذاتِ الدنيا بأجمعها من أولها إلىٰ آخرها! فكيف بقسط العبد المنغَّص المنكَّد المتعَب في زمن إنّما هو ساعة من حُلْم! فالله المستعان.

فصل

ص(١٨٩)

ومن عقوباتها: أنّها تصغّر النفس، وتقمَعها، وتدسّيها، وتحقّرها، حتىٰ تصير أصغر شيء وأحقره، كما أنّ الطاعة تنمّيها وتزكّيها وتكبّرها.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠].

والمعنىٰ قد أفلح من كبّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقّرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل:٥٩]، فالعاصي يدسّ نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارىٰ من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق.

فالطاعة والبِرُّ تكبّر النفس، وتعزّها، وتعليها، حتىٰ تصير أشرف شيء، وأكبره، وأزكاه، وأعلاه؛ ومع ذلك فهي أذلّ شيء وأحقره وأصغره لله تعالىٰ، وبهذا الذلّ حصل لها هذا العزّ والشرف والنموّ، فما صغّر النفوسَ مثلُ معصية الله، وما كبّرها وشرّفها ورفعها مثلُ طاعة الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٥٦).

ص(١٩٠)

فصل

ومن عقوباتها: أنّ العاصي دائمًا في أسْر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه؛ فهو أسيرٌ مسجونٌ مقيّدٌ، ولا أسيرَ أسوأ حالًا من أسير أَسَرَه أعدىٰ عدوّ له، ولا سجنَ أضيقُ من سجن الهوىٰ، ولا قيدَ أصعبُ من قيد الشهوة، فكيف يسير إلىٰ الله والدار الآخرة قلبٌ مأسورٌ مسجونٌ مقيّدٌ؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟

وإذا تقيّد القلب طرقته الآفاتُ من كلِّ جانبٍ بحسب قيوده، ومثل القلب مثل الطائر، وكلّما علا بعد عن الآفات، وكلّما نزل احتوَشَتْه الآفات[1].

وفي الحديث: «**الشيطان ذئبُ الإنسان**»[2].

وكما أنّ الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعةُ العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظٌ من الله، فذئبُه مفترِسُه، ولا بُدّ.

وإنّما يكون عليه حافظٌ من الله بالتقوىٰ، فهي وقايةٌ وجُنّةٌ حصينةٌ بينه وبين ذئبه، كما هي وقايةٌ بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلّما كانت الشاةُ أقربَ من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلّما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلىٰ الهلاك، فأحمىٰ ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنّما يأخذ الذئب القاصي من الغنم، وهي أبعدهنّ من الراعي.

وأصل هذا كلّه أنّ القلب كلّما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلّما قرُب من الله بعدت عنه الآفات.

والبعد من الله مراتبُ، بعضها أشدّ من بعض؛ فالغفلةُ تُبعدُ العبد عن الله، وبُعدُ

---

(١) احتوشته: أحاطت به.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠٢٩)، والطبراني (٢٠/ ١٦٤-١٦٥)، والشاشي في «مسنده» (١٣٨٧) وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٧) وغيرهم، وفيه انقطاعٌ، ولأصله شواهد.

المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبُعدُ البدعة أعظمُ من بعد المعصية، وبُعدُ النفاق والشرك أعظم من ذلك كلّه.

فصـــل

ص(١٩٢)

ومن عقوباتها: سقوطُ الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه.

فإنّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلةً أطوعهم له، وعلىٰ قدر طاعة العبد له تكون منزلتُه عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاهٌ عند الخلق وهان عليهِم عاملوه علىٰ حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيشٍ خاملَ الذكر، ساقطَ القدر، زريَّ الحال، لا حرمةَ له، فلا فرحَ له ولا سرور؛ فإنّ خمولَ الذكر وسقوطَ القدر والجاه معه كلُّ غمّ وهمّ وحزن، ولا سرور معه ولا فرح. وأين هذا الألم من لذة المعصية، لولا سكر الشهوة؟

ومن أعظم نعم الله علىٰ العبد أن يرفع له بين العالمين ذكرَه، ويُعلي قدْرَه؛ ولهذا خصّ أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٥-٤٦] أي: خصصناهم بخَصيصةٍ، وهو الذِّكر الجميل الذي يُذكَرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل حيث قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]، وقال سبحانه عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح:٤].

فأتباع الرسل لهم نصيبٌ من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكلّ من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

فصل ص(١٩٣)

ومن عقوباتها: أنّها تسلب صاحبَها أسماءَ المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذمّ والصَّغار؛ فتسلبه اسم المؤمن، والبَرّ، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والوَرِع، والمصلح، والعابد، والخائف، والأوّاب، والطيّب، والمرضي، ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، والمسخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطي، والغادر، وقاطع الرحم، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق و﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١١] التي توجب غضب الديّان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان، وتلك أسماء توجب رضىٰ الرحمن، ودخول الجِنان، وتوجب شرف المسمَّىٰ بها علىٰ سائر نوع الإنسان.

فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلّا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناهٍ عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلّا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل آمِرٌ بها، ولكن لا مانع لما أعطىٰ الله، ولا معطيَ لما منع، ولا مقرّب لمن باعد، ولا مبعّد لمن قرّب: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨].

فصل ص(١٩٤)

ومن عقوباتها: أنها تؤثّر بالخاصّية في نقصان العقل، فلا تجد عاقلَين أحدهما مطيع لله، والآخر عاصٍ، إلّا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصحّ، ورأيه أسدّ، والصواب قرينه.

ولهذا تجد خطاب القرآن إنّما هو مع أولي العقول والألباب، كقوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق:١٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩]، ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلًا وافرَ العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنّه يراه ويشاهده، فيعصيه، وهو بعينه غيرُ متوارٍ عنه، ويستعين بنعمه علىٰ مساخطه، ويستدعي كلَّ وقتٍ غضبَه عليه، ولعنتَه له، وإبعادَه من قربه، وطردَه عن بابه، وإعراضَه عنه، وخِذلانَه له، والتخليةَ بينه وبين نفسه وعدوّه، وسقوطَه من عينه، وحرمانَه روحَ رضاه وحبّه، وقرةَ العين بقربه، والفوزَ بجواره، والنظرَ إلىٰ وجهه في زمرة أوليائه، إلىٰ أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية؟

فأيّ عقل لمن آثر لذةَ ساعةٍ أو يومٍ أو دهرٍ، ثمّ تنقضي كأنّها حُلْم لم يكن، علىٰ هذا النعيم المقيم والفوز العظيم، بل هو سعادةُ الدنيا والآخرة؟ ولولا العقلُ الذي تقومُ به عليه الحجّة لكان بمنزلة المجانين، بل قد يكون المجانين أحسنَ حالًا منه وأسلم عاقبةً. فهذا من هذا الوجه.

وأمّا تأثيرها في نقصان العقل المعيشي، فلولا الاشتراكُ في هذا النقصان لَظهَر لمطيعنا نقصانُ عقلِ عاصينا، ولكن الجائحة عامّة، والجنون فنون!

ويا عجبًا لو صحّت العقول لعلمتْ أنّ طريق تحصيل اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنّما هو في رضىٰ مَن النّعيمُ كلُّه في رضاه، والألمُ والعذابُ كلُّه في سخطه وغضبه، ففي رضاه قرّةُ العيون، وسرورُ النفوس وحياةُ القلوب، ولذةُ الأرواح، وطيُب الحياة، ولذةُ العيش، وأطيبُ النعيم، مما لو وُزِن منه مثقالُ ذرّة

بنعيم الدنيا لم يفِ به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرضَ بالدنيا وما فيها عوضًا منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظمَ من تنعّم المترَفين فيها، ولا يشوب تنعّمَه بذلك الحظّ اليسير ما يشوب تنعّمَ المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات، بل قد حصل علىٰ النعيمين، وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما.

وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال الله سبحانه: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٠٤].

فلا إله إلا الله، ما أنقصَ عقلَ من باع الدرَّ بالبعر، والمسكَ بالرجيع، ومرافقةَ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم، ولَعَنهم، وأعدّ لهم جهنَّم وساءت مصيرًا!

فصل

ص(١٩٦)

ومن أعظم عقوباتها: أنّها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالىٰ، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير، واتّصلت به أسباب الشرّ.

فأيُّ فلاحٍ وأيُّ رجاءٍ وأيُّ عيشٍ لمن انقطعت عنه أسبابُ الخير، وقطع ما بينه وبين وليّه ومولاه الذي لا غنىٰ له عنه طرفة عين، ولا بُدّ له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبيّن أعدىٰ عدوّ له، فتولّاه عدوّه، وتخلّىٰ عنه وليّه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب!

قال بعض السلف: رأيتُ العبد مُلقًىٰ بين الله سبحانه وبين الشيطان، فإن

أعرض الله عنه تولّاه الشيطان، وإن تولّاه الله لم يقدر عليه الشيطان (١).

وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمتُ أباكم، ورفعت قدره، وفضّلته علىٰ غيره، فأمرتُ ملائكتي كلّهم أن يسجدوا له تكريمًا وتشريفًا، فأطاعوني، وأبىٰ عدوّي وعدوّه، فعصىٰ أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتّخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم (٢) أعدىٰ عدوّ لكم؟ فواليتم عدوّي، وقد أمرتكم بمعاداته.

ومن والىٰ أعداء الملِك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإنّ المحبة والطاعة لا تتمّ إلّا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأمّا أنْ توالي أعداءَ الملِك ثمّ تدّعي أنّك موالٍ له، فهذا محال؛ هذا لو لم يكن عدوُّ الملك عدوًّا لكم، فكيف إذا كان عدوًّا لكم علىٰ الحقيقة، والعداوةُ التي بينكم وبينه أعظمُ من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوَّه وعدوَّ وليّه ومولاه الذي لا مولىٰ له سواه؟

ونبّه سبحانه علىٰ قُبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، كما نبّه علىٰ قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فتبيّن أنّ عداوته

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٣٥٣) عن مطرّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، وسنده حسن. وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٩٨)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠١) وابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/ ٣٠٨) بنحوه، وسنده صحيح.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان» (٢٥) من طريق آخر عن مطرّف بنحوه.

(٢) كذا في جميع النُّسخ، يعني: إبليس وذريته.

لربّه وعداوته لنا، كلٌّ منهما سببٌ يدعو إلىٰ معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلًا!

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوعٌ من العتاب لطيفٌ عجيبٌ، وهو أنّي عاديتُ إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداتُه لأجلكم، ثمّ كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة!

فصل

ص(١٩٩)

ومن عقوباتها: أنّها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة؛ وبالجملة، تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقلَّ بركةً في عمره ودينه ودنياه ممن عصىٰ الله، وما مُحِقت البركة من الأرض إلّا بمعاصي الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، وإنّ العبد لَيُحرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه [(١)].

وفي الحديث: «**إنّ روح القدس نفث في رُوعي أنّه لن تموت نفسٌ حتىٰ تستكمل رزقها، فاتّقوا الله وأجمِلوا في الطلب، فإنّه لا يُنال ما عند الله إلّا بطاعته**»[(٢)].

و«**إنّ الله جعل الرَّوْحَ والفرحَ في الرضا واليقين، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط**»[(٣)].

---

(١) كما ورد في الحديث بهذا اللفظ، وقد سبق تخريجه في ص (١٤، ٦٤، ٨٠).

(٢) أخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٢٨٣)، ومن طريقه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ رقم ٤١١١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٥١) من طريق زبيد اليامي عمّن أخبره عن عبد الله بن مسعود فذكره.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٩٤)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٢٠٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ٦٧٥)، ورجاله ثقات، لكن فيه انقطاع.

وقد تقدّم الأثر[١] الذي ذكره أحمد في كتاب «الزهد»: «أنا الله، إذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي منتهىٰ، وإذا غضبتُ لعنتُ، ولعنتي تدرك السابعَ من الولد».

وليست سعةُ الرزق والعمل بكثرته، ولا طولُ العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه.

وقد تقدّم[٢] أنّ عمر العبد هو مدّة حياته، ولا حياةَ لمن أعرض عن الله، واشتغل بغيره؛ بل حياة البهائم خيرٌ من حياته، فإنّ حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلّا بمعرفة فاطره، ومحبته، وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والإنس بقربه.

ومن فقد هذه الحياة فقَدْ فَقَدَ الخيرَ كلَّه، ولو تعوّض عنها بما تعوّض، فما في الدنيا بل ليست الدنيا بأجمعها عوضًا عن هذه الحياة! فمن كلّ شيء يفوت العبدَ عِوَضٌ، وإذا فاته الله لم يعوِّض عنه شيء البتة.

وكيف يعوَّض الفقيرُ بالذات عن الغني بالذات، والعاجزُ بالذات عن القادر بالذات، والميّتُ عن الحيّ الذي لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومن لا وجودَ له ولا شيءَ له من ذاته البتة عمّن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوِّض من لا يملك مثقال ذرة عمّن له مُلْكُ السموات والأرض؟

وإنّما كانت معصيةُ الله سببًا لمحق بركة الرزق والأجل؛ لأنّ الشيطان موكَّل بها وبأصحابها، فسلطانُه عليهم، وحوالتُه علىٰ هذا الديوان، وأهلُه أصحابُه[٣]؛ وكلّ شيء يتّصل به الشيطان ويقارنه، فبركته ممحوقةٌ؛ ولهذا شُرع ذكرُ اسم الله تعالىٰ

(١) في ص (٢٤).

(٢) في ص (٨٣).

(٣) يعني: وأهل هذا الديوان أصحاب الشيطان.

عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع، لما في مقارنة اسمِ الله من البركة، وذكرُ اسمه يطرد الشيطان، فتحصل البركة، ولا معارض لها.

وكلّ شيء لا يكون لله، فبركته منزوعةٌ، فإنّ الربَّ هو الذي تبارك وحدَه، والبركة كلّها منه، وكلّ ما نُسِب إليه مبارك؛ فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه -وهي الشام-[1] أرض البركة، وصفها بالبركة في ستّ آيات من كتابه[2]، فلا متبارك إلّا هو وحده، ولا مبارك إلّا ما نسب إليه، أعني: إلىٰ محبته وألوهيته ورضاه، وإلّا فالكون كلّه منسوب إلىٰ ربوبيته وخلقه، وكلّ ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه، وكلّ ما كان قريبًا منه من ذلك ففيه من البركة علىٰ حسب قربه منه.

وضدّ البركة اللعنة، فأرضٌ لعنها الله، أو شخصٌ لعنه أو عملٌ لعنه؛ أبعدُ شيء من الخير والبركة. وكلُّ ما اتّصل بذلك، وارتبط به، وكان منه بسبيل، فلا بركة فيه البتة. وقد لعن عدوَّه إبليسَ، وجعله أبعدَ خلقه منه، فكلُّ ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به.

فمن ههنا كان للمعاصي أعظمُ تأثير في محْق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، فكلُّ وقتٍ عصيتَ الله فيه، أو مالٍ عُصِيَ اللهُ به، أو بدنٍ، أو جاهٍ، أو علمٍ،

(١) يشير إلىٰ ما روي: «الشام كنانتي، فمن أرادها بسوء رميته بسهم منها»، قال الألباني في «الضعيفة» (١/ ٧٠): «لا أصل له في المرفوع، ولعله من الإسرائيليات».

(٢) وكذا قال في «بدائع الفوائد» (١٣٣٥): «وصف الشام بالبركة في ست آيات»، ولكن قال فيه أيضًا (٦٨٢): «وما حول المسجد الأقصىٰ مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة»، وهذا هو الصواب، فهي أربعة مواضع: الأعراف (١٣٧)، والأنبياء (٧١، ٨١)، وسبأ (١٨)، فإذا أضفنا إليها آية الإسراء كانت خمسة.

أو عمل، فهو علىٰ صاحبه، ليس له، فليس عمرُه وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلّا ما أطاع اللهَ به.

ولهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائةَ سنةٍ أو نحوها، ويكون عمُرُه لا يبلغ عشر سنين أو نحوها؛ كما أنّ منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألفَ درهم أو نحوها؛ وهكذا الجاه والعلم.

وفي الترمذي[١] عنه ﷺ: «**الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلّا ذكرَ الله ﷻ وما والاه، وعالِمًا أو متعلّمًا**».

وفي أثر آخر: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ما كان لله**»[٢].

فهذا هو الذي فيه البركة خاصّة، والله المستعان.

فصـــل

ص(٢٠٥)

ومن عقوباتها: أنّها تجعل صاحبَها من السِّفْلة بعد أن كان مُهَيَّأً لأنْ يكون من العِلْية؛ فإنّ الله خلَق خلقَه قسمين: عِلية وسِفلة، وجعل علّيين مستقرّ العلية، وأسفل سافلين مستقرّ السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلَين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلِين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرمَ خلقه عليه، وأهلَ معصيته أهونَ خلقه عليه، وجعل العزّة لهؤلاء، والذلّة والصغار لهؤلاء، كما في «مسند أحمد» من حديث عبد الله بن عمر[٣] عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «**جُعل الذلّة والصَّغار علىٰ مَن خالف أمْري**».

---

(١) برقم (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٣٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٠٨) وغيرهم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٥٧) والخليلي في «الإرشاد» (٢/ ٧١١) والرافعي في «أخبار قزوين» (٢/ ٢٧٤) و(٣/ ١٤١) و (٤/ ١٣٥) وغيرهم، مرسلًا.

(٣) كذا في جميع النُّسخ «عبد الله بن عمرو»، وقد تقدم علىٰ الصواب -كما أثبتنا- في ص(٨٦).

فكلّما عملَ العبدُ معصيةً نزل إلىٰ أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتىٰ يكون من الأسفلين، وكلّما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتىٰ يكون من الأعلَين.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعودُ من وجهٍ، والنزولُ من وجهٍ، وأيّهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجةً واحدةً كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض هاهنا للنفوس غلطٌ عظيم، وهو أنّ العبد قد ينزل نزولًا بعيدًا أبعدَ ممّا بين المشرق والمغرب وممّا بين السماء والأرض، فلا يفي صعودُه ألفَ درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إنّ العبد لَيتكلّم بالكلمة الواحدة، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في النار أبعدَ ممّا بين المشرق والمغرب**»[(١)].

فأيُّ صعود يوازي هذه النزلة؟

والنزولُ أمرٌ لازمٌ للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلىٰ غفلة، فهذا متىٰ استيقظ من غفلته عاد إلىٰ درجته، أو إلىٰ أرفع منها بحسب يقظته.

ومنهم من يكون نزوله إلىٰ مباح لا ينوي به الاستعانة علىٰ الطاعة، فهذا متىٰ رجع إلىٰ الطاعة فقد يعود إلىٰ درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها؛ فإنّه قد يعود أعلىٰ همةً ممّا كان، وقد يكون أضعفَ همّةً، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلىٰ معصية: إمّا صغيرة أو كبيرة، فهذا يحتاج في عوده إلىٰ درجته إلىٰ توبة نصوح وإنابة صادقة.

واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلىٰ درجته التي كان فيها، بناءً علىٰ أنّ

(١) البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجوده كعدمه، فكأنّه لم يكن؛ أو لا يعود بناءً علىٰ أنّ التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة، وأمّا الدرجة التي فاتته فإنّه لا يصل إليها؟

قالوا: وتقرير ذلك أنّه كان مستعدًّا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصىٰ فيه لصعود آخر، وارتفاعُه بجملة أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كلَّ يوم بجملة ماله الذي يملكه، وكلّما تضاعف المال تضاعف الربح؛ فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاعٌ وربحٌ بجملة أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعودًا من نزول، وكان قبل ذلك صاعدًا من صعود، وبينهما بونٌ عظيم.

قالوا: ومَثَلُ ذلك رجلان مرتقيان في سلّمين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلىٰ أسفل ولو درجةً واحدة، ثمّ استأنف الصعود، فإنّ الذي لم ينزل يعلو عليه، ولا بدّ.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكمًا مقبولًا فقال: التحقيق أنّ من التائبين من يعود إلىٰ أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلىٰ مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلىٰ درجته [1].

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحدثته المعصيةُ للعبد من الذلّ والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خشيته؛ فقد تقوىٰ هذه الأمور حتىٰ يعود التائب إلىٰ أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقّه رحمةً، فإنّها نفتْ عنه داءَ العجب، وخلّصتْه من ثقته بنفسه وأعماله، ووضعتْ خدَّ ضراعته وذلّه وانكساره علىٰ عتبة باب سيّده ومولاه، وعرّفتْه قدرَه، وأشهدَتْه فقرَه وضرورتَه إلىٰ حفظ سيّده له، وإلىٰ عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجَتْ من قلبه صولة الطاعة، وكسرتْ أنفَه من أن يشمخ بها،

(١) انظر: «منهاج السنة» (٢/ ٤٣٤).

أو يتكبّر بها، أو يرىٰ نفسه بها خيرًا من غيره؛ وأوقفته بين يدي ربّه موقفَ الخطّائين المذنبين ناكسَ الرأس بين يدي ربّه، مستَحْيِيًا منه، خائفًا وجِلًا، محتقرًا لطاعته، مستعظمًا لمعصيته، قد عرف نفسَه بالنقص وَالذمّ، وربَّه منفردًا بالكمال والحمد والوفاء، كما قيل:

استأثرَ اللهُ بالوفاء وبالـ ـحمد وولّىٰ الملامةَ الرّجُلا(١)

فأيّ نعمةٍ وصلت من الله إليه استكثرها علىٰ نفسه، ورأىٰ نفسه دونها، ولم يرها أهلًا لها، وأيّ نقمة أو بليّة وصلت إليه رأىٰ نفسه أهلًا لما هو أكبر منها، ورأىٰ مولاه قد أحسن إليه، إذ لم يعاقبه علىٰ قدر جُرمه ولا شطرِه ولا أدنىٰ جزء منه، فإنّ ما يستحقّه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلًا عن هذا العبد الضعيف العاجز.

فإنّ الذنب وإنْ صَغُرَ، فإنّ مقابلةَ العظيمِ الذي لا شيءَ أعظم منه، الكبيرِ الذي لا شيء أكبر منه، الكريمِ الذي لا أجلَّ منه ولا أجملَ، المنعِمِ بجميع أصناف النعم دقيقِها وجليلِها = من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها؛ فإنّ مقابلةَ العظماء والأجلّاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كلُّ أحد مؤمن وكافر، وأرذلُ الناس وأسقطُهم مروءةً مَن قابلَهم بالرذائل، فكيف بعظيمِ السموات والأرض، ومَلِكِ السموات والأرض، وإلهِ أهل السموات والأرض؟

ولولا أنّ رحمتَه غلبت غضبَه، ومغفرتَه سبقت عقوبتَه، وإلّا(٢) لتدكدكت

---

(١) من قصيدة منسوبة إلىٰ الأعشىٰ في «ديوانه» (٢٨٣)، والرواية المشهورة: «بالوفاء وبالعدل».

(٢) «وإلّا» وقعت هنا في غير موقعها، ولا يستقيم المعنىٰ إلاّ بحذفها، وقد تكرّر استعمال «وإلّا» علىٰ هذا الوجه في كلام المؤلف وشيخه، ولعلّه كان أسلوبًا دارجًا في زمنهما. انظر مثلًا: «طريق الهجرتين» (٤٤)، و«شفاء العليل» (١١٩)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٢٧)، و«جامع المسائل» (١/ ٩٢، ١٧١).

الأرض بمن قابَلَه بما لا تليق مقابلتُه به، ولولا حلمُه ومغفرتُه لزالت السموات والأرض من معاصي العباد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فتأمّلْ ختمَ هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: الحليم الغفور، كيف تجد تحت ذلك أنّه لولا حلمُه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرّت السموات والأرض.

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنّة بذنب واحدٍ ارتكباه، وخالفا فيه نهيه، ولعَن إبليسَ، وطرده، وأخرجه من ملكوت السماء بذنب ارتكبه، وخالف فيه أمرَه. ونحن- معاشرَ الحمقىٰ- كما قيل:

نصِلُ الذنوبَ إلىٰ الذنوب ونرتجي ... دَرَكَ الجِنانِ لدىٰ النعيمِ الخالدِ[1]

ولقد علمنا أخرَجَ الأبوَينِ من ... ملكوتها الأعلىٰ بذنب واحد[2]

والمقصود أنّ العبد قد يكون بعد التوبة خيرًا ممّا كان قبل الخطيئة وأرفع درجةً، وقد تُضعِف الخطيئةُ همّتَه، وتُوهن عزمَه، وتُمرض قلبَه، فلا يقوىٰ دواء التوبة علىٰ إعادته إلىٰ الصحة الأولىٰ، فلا يعود إلىٰ درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت، ويعود إلىٰ مثل عمله، فيعود إلىٰ درجته.

هذا كلّه إذا كان نزوله إلىٰ معصية، فإن كان نزوله إلىٰ أمر يقدح في أصل إيمانه مثل الشكوك والريب والنفاق؛ فذاك نزول لا يُرجىٰ لصاحبه صعودٌ إلّا بتجديد إسلامه من رأسٍ.

---

(١) الدرَك: اللّحاق، وهو اسم من الإدراك (المصباح المنير).

(٢) البيتان لمحمود الورّاق في «عيون الأخبار» (٢/ ٣٧٤)، و«الكامل» (٥١٤)، و«العقد الفريد» (٣/ ١٧٩).

ص(٢١٢)

فصل

ومن عقوباتها: أنّها تُجرّئ علىٰ العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات؛ فيجترئ عليه الشياطين بالأذىٰ، والإغواء، والوسوسة، والتخويف، والتحزين، وإنسائه ما مصلحتُه في ذكره، ومضرّتُه في نسيانه؛ فتجترئ عليه الشياطين حتّىٰ تؤزّه إلىٰ معصية الله أزًّا.

ويجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه، حتىٰ الحيوان البهيم! قال بعض السلف: إنّي لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابّتي[1].

وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله.

وكذلك تجترئ عليه نفسُه، فتتأسد عليه، وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه، ولم تنقَدْ له، وتسوقه إلىٰ ما فيه هلاكه، شاء أم أبىٰ؛ وذلك لأنّ الطاعة حصنُ الربّ تبارك وتعالىٰ الذي من دخله كان من الآمنين، فإذا فارق الحصين اجترأ عليه قُطّاعُ الطريق وغيرهم، وعلىٰ حسب اجترائه علىٰ معاصي الله يكون اجتراءُ هذه الآفات والنفوس عليه.

وليس له شيء يردّ عنه، فإنّ ذكر الله، وطاعتَه، والصدقةَ، وإرشادَ الجاهل، والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر= وقايةٌ تردّ عن العبد، بمنزلة القوة التي تردّ المرض وتقاومه، فإذا سقطت القوة غلب واردُ المرض، فكان الهلاك.

فلا بُدّ للعبد من شيء يردّ عنه، فإنّ موجب السيئات والحسنات يتدافع، ويكون الحكم للغالب كما تقدّم، وكلّما قوي جانبُ الحسنات كان الردّ أقوىٰ، فإنّ

(١) من كلام الفضيل بن عياض، وقد سبق في ص (٨٠).

الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قول وعمل، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفعُ، والله المستعان.

فصــل

ص(٢١٣)

ومن عقوباتها: أنّها تخون العبدَ أحوجَ ما يكون إلىٰ نفسه، فإنّ كلَّ أحدٍ محتاجٌ إلىٰ معرفة ما ينفعه وما يضرّه في معاشه ومعاده، وأعلمُ الناس أعرَفهم بذلك علىٰ التفصيل، وأقواهم وأكْيَسُهم من قوي علىٰ نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه، وكفّها عما يضرّه.

وفي ذلك تفاوتت معارفُ الناس وهممُهم ومنازلُهم، فأعرفُهم من كان عارفًا بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشَدُهم من آثر هذه علىٰ هذه، كما أن أسفَههم من عكسَ الأمَر.

والمعاصي تخون العبد أحوجَ ما كان إلىٰ نفسه في تحصيل هذا العلم وإيثار الحظّ الأشرف العالي الدائم علىٰ الحظّ الخسيس الأدنىٰ المنقطع، فتحجبه الذنوبُ عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولىٰ به وأنفع له في الدارين.

فإذا وقع في مكروه، واحتاج إلىٰ التخلّص منه، خانه قلبُه ونفسُه وجوارحُه، وكان بمنزلة رجل معه سيفٌ قد غشِيَه الجرَبُ[1]، ولزم قِرابَه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدوّ يريد قتلَه، فوضع يده علىٰ قائم سيفه، واجتهد ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدوّ، وظفر به.

كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويجرَب، ويصير مُثخَنًا بالمرض، فإذا احتاج إلىٰ محاربة العدو به لم يجد معه شيئًا، والعبد إنّما يحارب ويصاول ويُقدِم بقلبه، والجوارح تَبَعٌ للقلب، فإذا لم يكن عند ملِكها قوّةٌ يدفع بها، فما الظنّ بها!

(١) الجرَب: الصدأ يركب السيف.

وكذلك النفس، فإنّها تتخنّث بالشهوات والمعاصي، وتضعف، أعني النفس المطمئنة، وإن كانت الأمّارة تقوىٰ وتتأسّد، وكلّما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقىٰ الحكم والتصرّف للأمّارة، وربما ماتت نفسه المطمئنّة موتًا لا يرجىٰ معه حياة، فهذا ميّت في الدنيا، ميّت في البرزخ، غير حيّ في الآخرة حياةً ينتفع بها، بل حياتُه حياةٌ يدرك بها الألم فقط.

والمقصود أنّ العبد إذا وقع في شدّة أو كربة أو بليّة خانه قلبُه ولسانُه وجوارحُه عمّا هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكّل علىٰ الله، والإنابة إليه، والجمعيّة عليه، والتضرّع والتذلّل والانكسار بين يديه.

ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينحبسَ القلب علىٰ اللسان بحيث يؤثّر الذكر، ولا ينحبسُ القلب واللسان علىٰ المذكور، بل إنْ ذكَرَ أو دعا ذكَرَ بقلب لاهٍ ساهٍ غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقَدْ له، ولم تطاوعه.

وهذا كلّه أثرُ الذنوب والمعاصي، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده، وضيّعهم، وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعَهم في الدفع عنه بغير قوة!

هذا، وثَمَّ أمرٌ أخوَفُ من ذلك وأدهىٰ منه وأمرّ، وهو أن يخونه قلبُه ولسانُه عند الاحتضار والانتقال إلىٰ الله تعالىٰ، فربما تعذّر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناسُ كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذلك، حتّىٰ قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله، فقال: آه! آه! لا أستطيع أن أقولها!

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال: شاه، رُخّ[1]، غلبتُك. ثمّ قضىٰ.

---

(١) الشاه والرُّخ من قطع الشطرنج.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا وقد تعبَتْ كيفَ الطريقُ إلىٰ حمّام مِنجابِ[١]

ثم قضىٰ[٢].

وقيل لآخر: قلْ: لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاننا تنتنا، حتىٰ قَضىٰ.

وقيل لآخر ذلك فقال: وما ينفعني ما تقول، ولم أدَعْ معصية إلّا ركبتُها، ثم قضىٰ، ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عنّي، وما أعرف أنّي صلّيتُ لله صلاةً، ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما يقول، وقضىٰ.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلّما أردتُ أن أقولها فلساني يُمسِك عنها.

وأخبرني من حضر بعض الشحّاذين عند موته، فجعل يقول: لله فلس، لله فلس، حتّىٰ قضىٰ.

وأخبرني بعض التجّار عن قرابة له أنّه احتضر، وهو عنده، فجعلوا يلقّنونه: لا إله إلا الله، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذه مشترىٰ جيّد، هذه كذا، حتىٰ قضىٰ.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبرًا! والذي يخفىٰ عليهم من أحوال المحتضَرين أعظم وأعظم.

وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكّن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن الله، وعطّل لسانَه عن

(١) «حمّام منجاب» بالبصرة، منسوب إلىٰ منجاب بن راشد الضبيّ؛ قاله ابن قتيبة في «المعارف» (٦١٤)، وكذا في «معجم البلدان» (٢/ ٢٩٩)، وقال الثعالبي في «ثمار القلوب» (٣١٨): «إن الحمام المذكور كان لامرأة اسمها منجاب» !

(٢) «كتاب المحتضرين» (١٧٨)، و«التعازي والمراثي» (٢٥٢)، وانظر: «محاضرات الأدباء» (٢/ ٥٠٢)، و«معجم البلدان»، وسيأتي البيت مع قصة في ص (٢٣٦).

ذكره، وجوارحَه عن طاعته، فكيف الظنّ به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وجَمْعِ الشيطانِ له كلَّ قوته وهمّته، وحَشْدِهِ عليه بجميع ما يقدر عليه؛ لينال منه فرصته، فإنّ ذلك آخر العمل، فأقوىٰ ما يكون عليه شيطانُه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال؟ فمَن تُرىٰ يَسلَمُ علىٰ ذلك؟

فهناك ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فكيف يوفَّق لحسن الخاتمة من أغفل اللهُ سبحانه قلبَه عن ذكره، واتّبَعَ هواه، وكان أمره فُرُطًا؟ فبعيدٌ من قلبٍ بعيدٍ من الله تعالىٰ، غافلٍ عنه، متعبّدٍ لهواه، أسيرٍ لشهواته؛ ولسانٍ يابسٍ من ذكره، وجوارحَ معطّلةٍ من طاعته مشتغلةٍ بمعصيته = أنْ توفَّقَ للخاتمة بالحسنىٰ.

ولقد قطع خوفُ الخاتمة ظهورَ المتقين، وكأنّ المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان! ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم:٣٩-٤٠].

يا آمنًا معْ قبيحِ الفعل منه أهَلْ ... أتاك توقيعُ أمنٍ أنت تَملكُه
جمعتَ شيئَينِ أمنًا واتّباعَ هوًىٰ ... هذا وإحداهما في المرء تُهلِكُه
والمحسنون علىٰ دَرْبِ المخاوفِ قد ... ساروا وذلك دربٌ لستَ تَسلكُه
فرّطتَ في الزرع وقتَ البَذْرِ مِن سَفَهٍ ... فكيف عند حصاد الناس تُدركُه
هذا وأعجبُ شيءٍ منك زهدُك في ... دار البقاء بعيشٍ سوف تَتركُه
مَنِ السفيهُ إذا بالله أنت أمِ الْـ ... مَغبونُ في البيع غَبْنًا سوف يُدركه[1]

(١) لعل الأبيات للمؤلف رحمه الله.

ص(٢٢٠)

فصل

ومن عقوباتها: أنّها تعمي القلب، فإن لم تُعْمِه أضعفَتْ بصيرتَه، ولا بُدَّ.

وقد تقدّم بيانُ أنها تضعفه، ولا بُدّ، فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدىٰ، وقوته علىٰ تنفيذه في نفسه وفي غيره، بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فإنّ الكمال الإنساني مداره علىٰ أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله في الدنيا والآخرة إلّا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنىٰ الله سبحانه علىٰ أنبيائه بهما في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥]، فالأيدي: القوىٰ في تنفيذ الحقّ، والأبصار: البصائر في الدين. فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه[١].

وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام:

فهؤلاء أشرف أقسام الخلق وأكرمهم علىٰ الله.

القسم الثاني: عكس هؤلاء، لا بصيرة في الدين، ولا قوّة علىٰ تنفيذ الحقّ، وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتُهم قذىٰ العيون، وحمّىٰ الأرواح، وسقم القلوب، يضيّقون الديار، ويُغلون الأسعار، ولا يستفاد بصُحبتهم إلّا العار والشنار!

القسم الثالث: مَن له بَصيرة بالحقّ ومَعرفة به، لكنّه ضعيفٌ لا قوّة له علىٰ تنفيذه ولا الدّعوة إليه، وهذا حالُ المؤمن الضعيف، والمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبّ إلىٰ الله منه.

القسم الرابع: من له قوّةٌ وهمّةٌ وعزيمةٌ، لكنه ضعيفُ البصيرة في الدين، لا يكاد يميّز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كلَّ سوداء تمرةً، وكلَّ بيضاء شحمةً، يحسب الورَمَ شحمًا، والدواءَ النافعَ سُمًّا.

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٩)، و«الفروسية» (١٢٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٩٣).

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضعًا لها سوىٰ القسم الأول، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، فأخبر سبحانه أنّ بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين.

وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر -الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين- علىٰ أنّ من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]، فلم يكتف منهم بمعرفة الحقّ والصبر عليه، حتّىٰ يوصي بعضهم بعضًا به، ويرشده إليه، ويحضّه عليه.

وإذا كان من عدا هؤلاء خاسرًا، فمعلوم أنّ المعاصي والذنوب تُعمي بصيرةَ القلب فلا يدرك الحقّ كما ينبغي، وتُضعِفُ قوتَه وعزيمتَه فلا يصبر عليه؛ بل قد تتوارد علىٰ القلب حتّىٰ ينعكس إدراكه، كما ينعكس سيرُه، فيدرك الباطلَ حقًّا، والحقَّ باطلًا، والمعروفَ منكرًا، والمنكرَ معروفًا، فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلىٰ الله والدار الآخرة، إلىٰ سفره إلىٰ مستقرّ النفوس الْمُبْطِلَة التي رضيَتْ بالحياة الدنيا، واطمأنَّتْ بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه.

ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلّا هذه العقوبة وحدها لكانت كافيةً داعيةً إلىٰ تركها والبعد منها، والله المستعان.

وهذا كما أنّ الطاعة تُنوِّر القلب، وتجلوه وتصقُله، وتقوّيه وتثبته، حتّىٰ يصير كالمرآة المجلوّة في جلائها وصفائها ويمتلئ نورًا؛ فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مُسْتَرِقي السَّمْع من الشهب الثواقب، فالشيطانُ يفْرَق من هذا القلب أشدَّ من فَرَقِ الذِّئب من الأسد، حتىٰ إنّ صاحبه لَيصرَعُ الشيطان، فيخِرّ صريعًا، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسيّ، وبه نظرة من الإنس!

فيا نظرةً من قلبِ حُرٍّ منوَّرٍ — يكاد لها الشيطانُ بالنور يحرَقُ

أفيستوي هذا القلبُ، وقلبٌ مُظلمةٌ أرجاؤُه، مختلفةٌ أهواؤه، قد اتّخذه الشيطانُ وطنَه، وأعدَّه مسكنَه، إذا تصبّح بطلعته حيّاه، وقال: فديتُ مَن لا يفلح في دنياه ولا في أخراه(١)!

قرينُك في الدنيا وفي الحشر بعدها — فأنت قرينٌ لي بكلّ مكانِ

فإنْ كنتَ في دار الشقاء فإنّني — وأنت جميعًا في شقًا وهوان

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٩].

فأخبر سبحانه أنْ من عشا عن ذكره -وهو كتابه الذي أنزله علىٰ رسوله- فأعرض عنه، وعميَ عنه، وعشَتْ بصيرتُه عن فهمه وتدبّره ومعرفةِ مراد الله منه = قيّض الله له شيطانًا عقوبةً له بإعراضه عن كتابه.

فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في المسير، ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولىٰ وبئس العشير.

رضيعَي لِبانٍ ثديَ أمٍّ تقاسما — بأسحمَ داجٍ عوضُ لا نتفرَّقُ(٢)

ثمّ أخبر سبحانه أنّ الشيطان يصدّ قرينه ووليّه عن سبيله الموصل إليه وإلىٰ جنّته، ويحسب هذا الضالُّ المصدودُ أنّه علىٰ طريق هدًىٰ، حتىٰ إذا جاء القرينان يوم

---

(١) عبارة المؤلف ناظرة إلىٰ قول البحتري، وقد سبق في ص (١٠٢):

وإذا رأىٰ إبليس طلعة وجهه — حيّا وقال: فديتُ من لم يفلح

(٢) للأعشىٰ في ديوانه (٢٧٥).

القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين، فبئس القرين كنتَ لي في الدنيا! أضللتَني عن الهدىٰ بعد إذ جاءني، وصددتَني عن الحقّ، وأغويتَني حتّىٰ هلكتُ، وبئس القرين أنت لي اليوم!

ولمّا كان المصابُ إذا شاركه غيرُه في مصيبته حصل بالتأسّي نوعُ تخفيفٍ وتسليةٍ = أخبر سبحانه أنّ هذا غيرُ موجودٍ وغيرُ حاصل في حقّ المشتركين في العذاب، وأنّ القرين لا يجد راحةً ولا أدنىٰ فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمَّتْ صارت مَسْلاةً كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرةُ الباكين حولي ... علىٰ إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزّي النفسَ عنه بالتأسّي[1]

فمنع الله سبحانه هذا القدرَ من الراحة عن أهل النار فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩].

ص(٢٢٥)

فصل

ومن عقوباتها: أنّها مددٌ من الإنسان يُمِدّ به عدوَّه عليه، وجيشٌ يقوّيه به علىٰ حربه.

وذلك أنّ الله سبحانه ابتلىٰ هذا الإنسانَ بعدوّ لا يفارقه طرفةَ عين؛ ينام ولا ينام عنه، ويغفل ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيلُه من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمرًا يكيده به يقدر علىٰ إيصاله إليه إلا أوصله، ويستعين عليه ببني أبيه من شياطين الجنّ وغيرهم من شياطين الإنس، قد نصب له الحبائل، وبغاه الغوائل، ومدّ حوله الأشراك، ونصب له الفِخاخ والشِّباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوَّكم وعدوَّ أبيكم، لا يفوتنّكم، ولا يكنْ حظُّه الجنةَ وحظُّكم النارَ، ونصيبُه

(١) ديوان الخنساء (٣٢٦).

الرحمة ونصيبُكم اللعنة! وقد علمتم أنّ ما جرىٰ عليّ وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله فبسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية؛ إذ قد فاتنا شركةُ صالحيهم في الجنّة. وقد أعلَمنا سبحانه بذلك كلّه من عدوّنا، وأمَرَنا أن نأخذ له أهبته، ونعدّ له عدّته.

ولَمّا علم سبحانه أنّ آدم وبنيه قد بُلُوا بهذا العدوّ، وأنّه قد سُلِّط عليهم، أمدَّهم بعساكر وجند يلقَونه بها، وأمدّ عدوَّهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدّة العُمُر التي هي بالإضافة إلىٰ الآخرة كنفَس واحد من أنفاسها، واشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة، يقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتلون، وأخبر أنّ ذلك وعدٌ مؤكّد عليه في أشرف كتبه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثمّ أخبر أنّه لا أوفىٰ بعهده منه سبحانه، ثمّ أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرَها فلينظر إلىٰ المشتري مَنْ هو؟ وإلىٰ الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلىٰ مَن جرىٰ علىٰ يديه هذا العقد. فأيُّ فوزٍ أعظم من هذا؟ وأيُّ تجارةٍ أربح منه؟

ثمّ أكّد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

ولم يسلّط سبحانه هذا العدوّ علىٰ عبده المؤمن الذي هو أحبُّ أنواع المخلوقات إليه إلّا لأنّ الجهاد أحبُّ شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجاتٍ، وأقربهم إليه وسيلةً، فعقد سبحانه لواءَ هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته، وهو القلب الذي هو محلُّ معرفتِه، ومحبّتِه، وعبوديتِه، والإخلاصِ له، والتوكلِ عليه، والإنابةِ

إليه، فولّاه أمرَ هذا الحرب، وأيّده بجُندٍ من الملائكة لا يفارقونه، معقِّبات من بين يديه ومن خلفه، يُعقِبُ بعضُهم بعضًا، كلّما ذهب بَدَلٌ جاء بَدَلٌ آخر، يثبّتونه، ويأمرونه بالخير، ويحضّونه عليه، ويعِدُونه بكرامة الله، ويصبّرونه، ويقولون: إنّما هو صبرُ ساعة، وقد استرحتَ راحة الأبد.

ثم أمدّه سبحانه بجُندٍ آخر من وحيه وكلامه، فأرسل إليه رسوله، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوةً إلىٰ قوته، ومددًا إلىٰ مدده، وعدّةً إلىٰ عدّته.

وأمدّه مع ذلك بالعقل وزيرًا له ومدبّرًا، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحةً له، وبالإيمان مثبّتًا له ومؤيدًا وناصرًا، وباليقين كاشفًا له عن حقيقة الأمر؛ حتّىٰ كأنه يعاين ما وعد الله به أولياءَه وحزبَه علىٰ جهاد أعدائه، فالعقل يدبّر أمرَ جيشه، والمعرفة تضع له أمورَ الحرب وأسبابها في مواضعها اللائقة بها، والإيمان يثبّته ويقوّيه ويصبّره، واليقين يُقْدِم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثمّ أمدّ سبحانه القائمَ بهذا الحرب بالقوىٰ الظاهرة والباطنة، فجعل العينَ طليعتَه، والأذنَ صاحبَ خبره، واللسانَ ترجمانَه، واليدين والرجلين أعوانَه، وأقام ملائكتَه وحمَلَةَ عرشه يستغفرون له ويسألون له أن يقِيَه السّيئاتِ ويدخله الجنّات.

وتولّىٰ سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه، وقال: هؤلاء حزبي، وحزب الله هم المفلحون، وهؤلاء جندي ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، وعلّم عبادَه كيفية هذا الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

ولا يتمّ أمر هذا الجهاد إلّا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتمّ له الصبر إلّا بمصابرة العدو، وهي مواقفته[١] ومنازلته، فإذا صابر عدوَّه احتاج إلىٰ أمر آخر وهو المرابطة،

---

(١) يقال: واقفه مواقفة ووِقافًا: وقف معه في حرب أو خصومة.

وهي لزوم ثغر القلب وحراسته؛ لئلّا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو، فيجوس خلالَ الديار، ويُفسِد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يُخْلي مكانها، فيصادفَ العدوُّ الثغرَ خاليًا، فيدخل منه.

فهؤلاء أصحابُ رسول الله ﷺ خيرُ الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حمايةً وحراسةً من الشيطان، وقد أخلَوا المكان الذي أمِروا بلزومه يوم أُحد، فدخل منه العدوّ، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوىٰ الله، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلّا بالتقوىٰ، ولا تقوم التقوىٰ إلّا علىٰ ساق الصبر.

فانظر الآن فيك إلىٰ التقاء الجيشين واصطفاف العسكرين، وكيف تُدال مرةً، ويُدال عليك أخرىٰ؟

أقبلَ مَلِكُ الكفر بجنوده وعساكره، فوجد القلبَ في حصنه جالسًا علىٰ كرسي مملكته، أمرُه نافذٌ في أعوانه، وجندُه قد حفّوا به، يقاتلون عنه، ويدافعون عن حوزته، فلم يمكنه الهجوم عليه إلّا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه؛ فسأل عن أخصّ الجند به وأقربهم منه منزلةً، فقيل له: هي النفس، فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فَعِدُوها به، ومَنُّوها إيّاه، وانقشوا صورةَ المحبوب فيها في يقظتها ومنامها، فإذا اطمأنّتْ إليه وسكنتْ عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها، ثم جُرُّوها بها إليكم.

فإذا خامرتْ علىٰ القلب، وصارت معكم عليه، ملكتم ثغرَ العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل، فرابطوا علىٰ هذه الثغور كلّ المرابطة، فمتىٰ دخلتم منها إلىٰ القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مثخَن بالجراحات، ولا تُخلوا هذه الثغور، ولا تمكّنوا سريّة تدخل منها إلىٰ القلب، فتُخرجَكم منها.

وإن غُلِبتم فاجتهدوا في إضعاف السريّة ووَهَنِها حتىٰ لا تصل إلىٰ القلب، وإنْ وصلتْ إليه ضعيفةً لا تغني عنه شيئًا.

فإذا استوليتم علىٰ هذه الثغور فامنعوا ثغرَ العين أن يكون نظرُه اعتبارًا، بل اجعلوا نظره تفرُّجًا واستحسانًا وتلهِّيًا، فإنْ استرَقَ نظرةَ عبرةٍ فأفسِدوها عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة، فإنّه أقرب إليه، وأعلَق بنفسه، وأخفّ عليه. ودونكم ثغَر العين، فإنّ منه تنالون بغيَتكم، فإنّي ما أفسدتُ بني آدم بشيء مثل النظر، فإنّي أبذر به في القلب بَذْرَ الشهوة، ثمّ أسقيه بماء الأمنية، ثمّ لا أزال أعِدُه وأمنّيه حتىٰ أقوّي عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلىٰ الانخلاع من العصمة.

فلا تهملوا أمر هذا الثغر، وأفسِدوه بحسب استطاعتكم، وهوّنوا عليه أمرَه، وقولوا له: ما مقدار نظرةٍ تدعوك إلىٰ تسبيح الخالق، والتأمّل لبديع صنعته وحسن هذه الصورة التي إنّما خُلِقَتْ ليستدلّ بها الناظرُ عليه؟ وما خلق الله لك العينين سدًىٰ، وما خلق هذه الصورةَ لِيحجُبها عن النظر!

وإن ظفرتم به قليلَ العلم فاسدَ العقل، فقالوا: هذه الصورة مظهرٌ من مظاهر الحقّ ومجلًىٰ من مجاليه، فادعوه إلىٰ القول بالاتّحاد، فإنْ لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص (١).

ولا تقنعوا منه بدون ذلك، فإنّه يصير به من إخوان النصارىٰ، فمُروه حينئذ بالعفّة والصيانة والعبادة والزهد في الدنيا، واصطادوا عليه الجهال، فهذا من أقرب خلفائي وأكبر جندي، بل أنا من جنده وأعوانه!

(١) الاتحاد: وحدة الوجود، وهو القول بأنّ الحق عين الخلق.

والحلول العام: القول بأنّ الله حالّ بذاته في كلّ مكان، والحلول الخاصّ: كقول النسطورية من النصارىٰ في المسيح بأنّ اللاهوت حلّ في الناسوت. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ١٧١ - ١٧٢)، و«شرح النونية» لمحمد خليل هراس (١/ ٥٩ - ٦٨).

ص(٢٣١)

فصل

ثمّ امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يُفسِد عليكم الأمرَ، فاجتهدوا أن لا تُدخِلوا منه إلّا الباطلَ، فإنّه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه، وتخيّروا له أعذب الألفاظ وأسحرَها للألباب، وامزجوه بما تهوى النفوس مزجًا، وألقُوا الكلمة، فإنْ رأيتم منه إصغاءً إليها فزُجّوه بأخواتها، وكلّما صادفتم منه استحسانُ شيءٍ فالهَجُوا له بذكره.

وإيّاكم أن يدخل من هذا الثغر شيءٌ من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء! فإن غُلِبتم على ذلك، ودخل من ذلك شيء، فحُولوا بينه وبين فهمه وتدبّره، والتفكر فيه، والعظة به، إمّا بإدخال ضدّه عليه، وإمّا بتهويل ذلك وتعظيمه، وأنّ هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه، فلا سبيل لها إليه، وهو حمل ثقيل عليها لا تستقِلّ به، ونحو ذلك؛ وإمّا بإرخاصه على النفوس وأنّ الاشتغال ينبغي أن يكون أهمَّ بما هو أعلى عند الناس، وأعزّ عليهم، وأغرب عندهم، وزبونه القابلون له أكثر.

وأمّا الحقّ فهو مهجور، وقابله معرِّضٌ نفسَه للعداوة، والرائج بين الناس أولى بالإيثار، ونحو ذلك. فيُدخِلون الباطلَ عليه في كلّ قالب يقبله ويخِفّ عليه، ويُخرجون له الحقَّ في كلّ قالب يكرهه ويثقل عليه.

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يُخرِجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول، وتتبّع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس، ونحو ذلك، ويُخرِجون اتّباعَ السنّة، ووصفَ الربّ تعالى بما وصف به نفسَه، ووصفه به رسولُه، في قالب التشبيه والتجسيم والتكييف.

ويسمون علوَّ الله على خلقه، واستواءَه على عرشه، ومباينتَه لمخلوقاته

«تحيّزًا»، ويسمّون نزولَه إلىٰ سماء الدنيا، وقوله: «**من يسألني فأعطيه**»(١) تحرُّكًا وانتقالًا، ويسمّون ما وصف به نفسَه من اليد والوجه أعضاءً وجوارح، ويسمّون ما يقوم به من أفعاله «حوادث»، وما يقوم به من صفاته «أعراضًا»، ثمّ يتوصلون إلىٰ نفي ما وصف به نفسَه بنفي هذه الأمور، ويُوهمون الأغمار وضعفاءَ البصائر أنّ إثبات الصفات التي نطق بها كتابُ الله وسنةُ رسوله يستلزم هذه الأمور، ويُخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم.

وأكثرُ الناس ضعفاءُ العقول يقبلون الشيء بلفظٍ، ويردّونه بعينه بلفظ آخر! قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، فسمّاه «زخرفًا» وهو باطل؛ لأنّ صاحبه يزخرفه ويزيّنه ما استطاع، ويُلقيه إلىٰ سمع المغرور، فيغترُّ به.

والمقصود أنّ الشيطان قد لزم ثغرَ الأذن، يُدخِل فيها ما يضرّ العبدَ ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه.

فصل

ص(٢٣٤)

ثمّ يقول: قوموا علىٰ ثغر اللسان، فإنّه الثغرُ الأعظمُ، وهو قُبالة الملك(٢)، فأجْرُوا عليه من الكلام ما يضرّه ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيءٌ ممّا ينفعه من ذكر الله تعالىٰ، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، أو التكلّم بالعلم النافع.

ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان لا تبالُون بأيّهما ظفرتم:

أحدهما: التكلّم بالباطل، فإنّ المتكلمَ بالباطل أخٌ من إخوانكم، ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

---

(١) البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) قبالة الشيء: تجاهه، وما استقبلك منه.

والثاني: السكوت عن الحقّ، فإنّ الساكتَ عن الحقّ أخٌ لكم أخرس، كما أنّ الأولَ أخٌ لكم ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع إخوانكم لكم، أمَا سمعتم قولَ الناصح: المتكلِّمُ بالباطل شيطانٌ ناطق، والساكتُ عن الحقّ شيطانٌ أخرس.

فالرباطَ الرباطَ علىٰ هذا الثغر أن يتكلّم بحقٍّ، أو يمسك عن باطلٍ، وزيّنوا له التكلّمَ بالباطل بكلّ طريقٍ، وخوّفوه من التكلّم بالحقّ بكلّ طريق.

واعلموا يابَنِيَّ أنّ ثغر اللسان هو الذي أُهلِكُ منه بني آدم، وأُكُبُّهم منه علىٰ مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذتُه من هذا الثغر!

وأوصيكم بوصيّة، فاحفظوها: لِينطِقْ أحدكم علىٰ لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر علىٰ لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها.

وكونوا أعوانًا علىٰ الإنس بكلّ طريق، وادخلوا عليهم من كلّ باب، واقعدوا لهم كلّ مرصد، أمَا سمعتم قسمي الذي أقسمتُ به لربّهم حيث قلتُ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

أو ما تَروني قد قعدتُ لابن آدم بطرقِه كلِّها، فلا يفوتني من طريق إلّا قعدتُ له بطريق غيره حتىٰ أصيب منه حاجتي أو بعضَها، وقد حذّرهم ذلك رسولهم، فقال لهم: «**إنّ الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلّها، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسلِمُ وتذَر دينك ودين آبائك؟ فخالفه، وأسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فخالفه وهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد، فتُقتَلُ، فيُقسَم المال، وتُنكح الزوجةُ**»![1].

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٣٤)، وأحمد (١٥٩٥٨)، وابن حبان (٤٥٩٣)، وابن أبي عاصم في الجهاد (١٣)، والبخاري في تاريخه (٤/ ١٨٧-١٨٨) وغيرهم، وصححه ابن حبان، والعراقي، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في «الإصابة» (٣/ ٦٤).

فهكذا فاقعُدوا لهم بكلّ طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدّق فاقعدوا له علىٰ طريق الصدقة، وقولوا له في نفسه: أتُخرج المال، فتبقىٰ مثل هذا السائل، وتصير بمنزلته أنت وهو سواء؟ أوَ ما سمعتم ما ألقيتُ علىٰ لسان رجل سأله آخَرُ أن يتصدّق عليه، وقال: هي أموالنا، إنْ أعطيناكموها صرنا مثلكم.

واقعدوا له بطريق الحجّ، فقالوا: طريقه مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال.

وهكذا فاقعدوا له علىٰ سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوبتها وآفاتها.

ثمّ اقعدوا علىٰ طرق المعاصي، فحسِّنوها في أعيُن بني آدم، وزيِّنوها في قلوبهم، واجعلوا أكبر أعوانكم علىٰ ذلك النساء، فمن أبوابهنّ فادخلوا عليهم، فنعمَ العون هنّ لكم! ثمّ الزموا ثغرَ اليدين والرجلين فامنعوها أن تبطش بما يضرّكم أو تمشي فيه.

واعلموا أنّ أكبر عَونكم علىٰ لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمّارة، فأعينوها واستعينوا بها، وأمِدّوها واستمدّوا منها، وكونوا معها علىٰ حرب النفس المطمئنة، فاجتهدوا في كسْرها وإبطالِ قواها، ولا سبيل إلىٰ ذلك إلّا بقطع موادّها عنها، فإذا انقطعت موادّها، وقويت موادّ النفس الأمّارة، وأطاعت لكم أعوانُها؛ فاستنزِلُوا القلبَ من حصنه، واعزلوه عن مملكته، وولُوا مكانه النفس، فإنّها لا تأمر إلّا بما تهوَونه وتحبّون،ه ولا تجيئكم بما تكرهونه البتة، مع أنّها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرَتْ إلىٰ فعله.

فإن أحسستم من القلب منازعةً إلىٰ مملكته، وأردتم الأمنَ من ذلك، فاعقدوا بينه وبين النفس عقدَ النكاح، فزيّنوها، وجمّلوها، وأرُوها إيّاه في أحسنِ صورةِ عروسٍ توجد، وقولوا له: ذُقْ طعمَ هذا الوصال والتمتعّ بهذه العروس، كما ذقتَ طعمَ الحرب، وباشرتَ مرارة الطعن والضرب، ثمّ وازِنْ بين لذّة هذه المسالمة

ومرارة تلك المحاربة، فدع الحربَ تضع أوزارها، فليست بيومٍ وينقضي، وإنّما هو حرب متّصل بالموت، وقواك تضعف عن حِراب دائم.

واستعينوا يا بنيّ بجندين عظيمين لن تُغلَبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفِلوا قلوبَ بني آدم عن اللهِ والدارِ الآخرة بكلّ طريق، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك، فإنّ القلب إذا غفل عن الله تمكّنتم منه ومن أعوانه.

والثاني: جند الشهوات فزيّنوها في قلوبهم، وحسِّنوها في أعينهم.

وصولوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم في بني آدم أبلغُ منهما، واستعينوا علىٰ الغفلة بالشهوات، وعلىٰ الشهوات بالغفلة، واقرنوا بين الغافلَين، ثمّ استعينوا بهما علىٰ الذاكر، ولا يغلب واحدٌ خمسةً، فإنّ مع الغافلَين شيطانَين، صاروا أربعةً، وشيطان الذاكر معهم.

وإذا رأيتم جماعةً مجتمعين علىٰ ما يضرّكم من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه، ولم تقدروا علىٰ تفريقهم، فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطّالين، فقرّبوهم منهم، وشوّشوا عليهم بهم.

وبالجملة فأعِدّوا للأمور أقرانَها، وادخلوا علىٰ كلّ واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته، فساعدوه عليها، وكونوا عونًا له علىٰ تحصيلها. وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم، ويصابروكم، ويرابطوا عليكم الثغورَ؛ فاصبروا أنتم، وصابروا، ورابطوا عليهم الثغورَ، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب، فلا تصطادون بني آدم في أعظم من هذين الموطنين!

واعلموا أنّ منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب، وسلطان غضبه ضعيف مقهور، فخذوا عليه طريق الشهوة، ودَعُوا طريق الغضب. ومنهم من يكون سلطان

الغضب عليه أغلب، فلا تُخْلوا طريقَ الشهوة عليه، ولاتعطّلوا ثغرَها، فإنّ من لم يملك نفسه عند الغضب فإنّه بالحرىٰ أن لا يملكها عند الشهوة، فزوِّجوا بين غضبه وشهوته، وامزجوا أحدهما بالآخر، وادعوه إلىٰ الشهوة من باب الغضب، وإلىٰ الغضب من طريق الشهوة.

واعلموا أنّه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين.

وإنّما أخرجتُ أبوَيهم من الجنّة بالشهوة، وإنّما ألقيتُ العداوة بين أولادهم بالغضب، فيه قطعتُ أرحامَهم، وسفكتُ دماءَهم، وبه قتل أحدُ ابنَي آدم أخاه.

واعلموا أنّ الغضب جمرةٌ في قلب ابن آدم، والشهوةَ نارٌ تثور من قلبه، وإنّما تُطفأ النارُ بالماء والصلاة والذكر والتكبير، فإيّاكم أن تمكِّنوا ابنَ آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة، فإنّ ذلك يطفئ عنهم نارَ الغضب والشهوة، وقد أمرهم نبيُّهم بذلك، فقال: **«إنّ الغضبَ جمرةٌ في قلب ابن آدم، أمَا رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحسَّ بذلك فليتوضأ»**(١).

وقال لهم: **«إنّما تُطفَأ النارُ بالماء»**(٢).

وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة، فحُولُوا بينهم وبين ذلك، وأنْسُوهم إيّاه، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب، وأبلغُ أسلحتِكم فيهم وأنكاها: الغفلةُ واتّباع الهوىٰ، وأعظمُ أسلحتِهم فيكم وأمنعُ حصونهم: ذكرُ الله ومخالفة الهوىٰ، فإذا رأيتم الرجل مخالفًا لهواه، فاهربوا من ظلّه، ولا تدنُوا منه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٠)، وأحمد (١١١٤٣)، والحاكم (٨٥٤٣) وغيرهم، من طريق علي بن زيد بن جدعان، وهو إلىٰ الضعف أقرب، وخاصّةً إذا تفرّد بهذا السياق الطويل.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٤)، وأحمد (٤/ ٢٢٦)، والبخاري في «تاريخه» (٧/ ٨)، والطبراني (١٧/ ١٦٧)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٥)، بإسنادٍ ضعيف.

والمقصود أنّ الذنوب والمعاصي سلاحٌ ومددٌ يُمِدُّ بها العبدُ أعداءَه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل:

وما يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ... ما يبلغ الجاهلُ من نفسه(١)

ومن العجائب أنّ العبد يسعىٰ بجهده في هوان نفسه، وهو يزعم أنّه لها مكرم، ويجتهد في حرمانها أعلىٰ حظوظها وأشرفها، وهو يزعم أنّه يسعىٰ في حظّها، ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدسِيَتها، وهو يزعم أنّه يُعلِيها ويرفعها ويكبّرها!

وكان بعض السلف يقول في خطبته: ألا رُبَّ مهينٍ لنفسه وهو يزعم أنّه لها مكرم، ومُذِلٍّ لنفسه وهو يزعم أنّه لها مُعِزّ، ومصغّرٍ لنفسه وهو يزعم أنّه لها مكبّر، ومضيّعٍ لنفسه وهو يزعم أنّه مراع لحقّها. وكفىٰ بالمرء جهلًا أن يكون مع عدوه علىٰ نفسه، يبلغ منها بفعله ما لا يبلغه عدوُّه (٢)، والله المستعان.

فصل

ص(٢٤٣)

ومن عقوباتها: أنّها تنسي العبد نفسَه، فإذا نسي نفسَه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسىٰ العبد نفسَه؟ وإذا نسيَ نفسه، فأيَّ شيء يذكر؟ وما معنىٰ نسيانه نفسَه؟

قيل: نعم، ينسىٰ نفسَه أعظمَ نسيان، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩].

فلما نسوا ربَّهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة:٦٧]، فعاقب سبحانه من نسِيَه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنّه أنساه نفسَه.

---

(١) قائله صالح بن عبد القدوس كما في «التمثيل والمحاضرة» (٧٧)، و«الحماسة البصرية» (٨٧٤).

(٢) لم أقف عليه، وقد وردت الجملةُ الأولىٰ من قول أبي الدرداء عند البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٤٤)، وفي سنده ضعف.

ونسيانُه سبحانه للعبد: إهمالُه، وتركُه، وتخلّيه عنه، وإضاعتُه؛ فالهلاك أدنىٰ إليه من اليد للفم!

وأمّا إنساؤه نفسَه فهو: إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، يُنسيه ذلك جميعَه، فلا يُخطِره بباله، ولا يجعله علىٰ ذكره، ولا يصرف إليه همّتَه فيرغبَ فيه، فإنه لا يمرّ بباله حتىٰ يقصدَه ويُؤثِره.

وأيضًا فيُنسيه عيوبَ نفسه ونقصَها وآفاتِها، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها.

وأيضًا يُنسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامَها، فلا يخطر بقلبه مداواتُها، ولا السعيُ في إزالة عللها وأمراضهَا التي تؤول به إلىٰ الفساد والهلاك؛ فهو مريضٌ مثخَنٌ بالمرض، ومرضه مُترامٍ به إلىٰ التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته. وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأيُّ عقوبةٍ أعظمُ من عقوبة مَن أهمل نفسَه، وضيّعها، ونسي مصالحها، وداءَها ودواءَها، وأسبابَ سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبديّة في النعيم المقيم؟

ومن تأمّل هذا الموضع تبيّن له أنّ أكثر هذا الخلق قد نسُوا أنفسَهم حقيقةً، وضيّعوها، وأضاعوا حظّها من الله، وباعوها رخيصةً بثمنٍ بخسٍ بيعَ الغبن. وإنّما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر كلّ الظهور يومَ التغابن، يومَ يظهر للعبد أنه غُبنَ في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي اتّجر فيها لمعاده، فإنّ كلّ أحد يتّجر في هذه الدنيا لآخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنّهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظَّهم فيها ولذّاتِهم بالآخرة وحظِّهم فيها، فأذهبوا طيّباتِهم في حياتهم الدنيا، واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنّوا إليها، وكان سعيُهم لتحصيلها، فباعوا، واشتروا، واتجروا، وباعوا آجلًا بعاجل، ونسيئةً بنقدٍ، وغائبًا بناجزٍ؛ وقالوا: هذا

هو الحزم، ويقول أحدهم:

خذْ ما تراه ودع شيئًا سمعتَ به(١)

وكيف أبيع حاضرًا نقدًا مُشاهَدًا في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرىٰ غير هذه؟ وينضمّ إلىٰ ذلك ضعفُ الإيمان، وقوةُ داعي الشهوة، ومحبّةُ العاجلة، والتشبه ببني الجنس، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦]، وقال فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦].

فإذا كان يومُ التغابن ظهر لهم الغبنُ في هذه التجارة؛ فتتقطّع عليها النفوسُ حسرات.

وأمّا الرابحون، فإنّهم باعوا فانيًا بباقٍ، وخسيسًا بنفيسٍ، وحقيرًا بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا مِن أولها إلىٰ آخرها حتّىٰ نبيع حظّنا من الله والدار الآخرة بها؟ فكيف بما ينال العبدُ منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغَفْوةِ حُلْمٍ، لا نسبة له إلىٰ دار البقاء البتة؟

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس:٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢-٤٦].

وقال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقال تعالىٰ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ

---

(١) للمتنبي في ديوانه (٤٩٠) وعجز البيت:

في طلعة الشمس ما يغنيك عنْ زُحَلِ

ﭐلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

فهذا حقيقة هذه الدنيا عند موافاة القيامة، فلما علموا قلّةَ لبثهم فيها، وأنّ لهم دارًا غيرَ هذه الدار، هي دار الحيَوان ودار البقاء = رأوا من أعظم الغبن بيعَ دار البقاء بدار الفناء، فاتّجروا تجارة الأكياس، ولم يغترّوا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يومَ التغابن ربحُ تجارتهم ومقدارُ ما اشتروه، وكلُّ أحد في هذه الدنيا بائعٌ مشترٍ متّجرٌ، وكل الناس يغدو، فبائعٌ نفسَه فموبِقُها، أو مبتاعُها فمُعتِقُها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا أوّلُ نقده من ثمن هذه التجارة، فتاجرُوا أيّها المفلسون! ويا من لا يقدر علىٰ هذا الثمن، ها هنا ثمن آخر، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعطِ هذا الثمن: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

والمقصود أنّ الذنوب تُنسي العبدَ حظَّه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفىٰ بذلك عقوبةً، والله المستعان.

فصل

ص(٢٤٨)

ومن عقوباتها: أنها تُزيل النِّعَمَ الحاضرةَ، وتقطع النعم الواصلة، فتُزيل الحاصلَ، وتمنع الواصلَ، فإنّ نعم الله ما حُفِظ موجودُها بمثل طاعته، ولا استُجْلِبَ مفقدُها بمثل طاعته، فإنّ ما عنده لا يُنال إلّا بطاعته.

وقد جعل الله سبحانه لكلّ شيء سببًا وآفةً: سببًا يجلبه، وآفةً تبطله. فجعل أسبابَ نعمِه الجالبةَ لها طاعتَه، وآفاتِها المانعةَ منها معصيتَه، فإذا أراد حفظَ نعمته علىٰ عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذَلَه حتىٰ عصاه بها.

ومن العجب علمُ العبدِ بذلك مشاهدةً في نفسه وغيره، وسماعًا لما غاب عنه مِن أخبار مَن أزيلت نِعمُ الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم علىٰ معصية الله، كأنّه مستثنًىٰ من هذه الجملة، أو مخصوص من هذا العموم، وكأنّ هذا أمرٌ جارٍ علىٰ الناس لا عليه، وواصلٌ إلىٰ الخلق لا إليه!

فأيُّ جهلٍ أبلغ من هذا؟ وأيُّ ظلمٍ للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

فصل

ص(٢٤٩)

ومن عقوباتها: أنّها تباعد عن العبد وليَّه، وأنفعَ الخلقِ له، وأنصحَهم له، ومَن سعادتُه في قربه منه، وهو الملَك الموكَّلُ به، وتُدني منه عدوَّه، وأغشَّ الخلق له، وأعظمَهم ضررًا له، وهو الشيطان؛ فإنّ العبد إذا عصىٰ الله تباعد منه الملَك بقدر تلك المعصية، حتّىٰ إنّه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفي بعض الآثار: «**إذا كذب العبدُ تباعد منه الملَك ميلًا مِن نتَنِ ريحه**»[1]،

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٢)، والطبراني في «الصغير» (٨٥٣)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٧٧)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١٣٧)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٨٣) وغيرهم، والحديث منكر لا يثبت.

فإذا كان هذا تباعُدَ الْمَلكِ منه من كذبةٍ واحدةٍ، فماذا يكون مقدارُ بعده منه ممّا هو أكبر من ذلك وأفحش منه؟

وقال بعض السلف: إذا ركب الذكَرُ الذكَرَ عجّت الأرضُ إلىٰ الله، وهربت الملائكةُ إلىٰ ربّها، وشكتْ إليه عظيمَ ما رأتْ[1].

وقال بعض السلف: إذا أصبح العبدُ ابتدره الملَك والشيطانُ، فإنْ ذكر الله وكبّره وحمِده وهلّله طرد الملكُ الشيطانَ وتولّاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه، وتولّاه الشيطان.

ولا يزال الملَك يقرب من العبد حتىٰ يصير الحكم والغلبة والطاعة له، فتتولّاه الملائكة في حياته، وعند موته، وعند بعثه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت:٣٠-٣١].

وإذا تولّاه الملَكُ تولّاه أنصحُ الخلق وأنفعُهم وأبرّهم، فثبّته، وعلّمه، وقوّىٰ جَنانَه، وأيّده، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال:١٢]، ويقول له الملك عند الموت: «لا تخف، ولا تحزن، وأبشِر بالذي يسرّك»[2]، ويُثبِّتُهُ بالقول الثابت أحوجَ ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المساءلة.

فليس أحدٌ أنفعَ للعبد من صحبة الملَك له، وهو وليّه في يقظته ومنامه، وحياته، وعند موته، وفي قبره، ومؤنسُه في وحشته، وصاحبُه في خلوته، ومحدّثُه في سرّه،

---

(١) نسبَ المؤلفُ أوّلَهُ في «روضة المحبين» (٥٠٥) إلىٰ عباس الدُّوري، ثم نقل نصًّا أطول ممّا هنا فيه (٥١٤): عن بعض العلماء، أخرجه الآجرّي في «ذم اللواط» (٢) عن عباس الدوري قال: «بلغني أنّ الأرض تعجّ من ذكر علىٰ ذكر»، وذكره الذهبي في «الكبائر» (٧٠) بمعناه.

(٢) انظر ما سبق من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ص (٣٨).

يحارب عنه عدوَّه، ويدافعه عنه، ويعينه عليه، ويعِدُه بالخير، ويبشّره به، ويحثّه علىٰ التصديق بالحقّ، كما جاء في الأثر الذي يروىٰ مرفوعًا وموقوفًا: «**إنّ لِلملَكِ بقلبِ ابن آدم لَمَّةً، وللشيطان لَمّةً، فلمّةُ الملَك إيعادٌ بالخير، وتصديقٌ بالوعد، ولَمَّةُ الشيطان إيعادٌ بالشرّ، وتكذيب بالحق**»(١).

وإذا اشتدّ قربُ الملك من العبد تكلّم علىٰ لسانه، وألقىٰ علىٰ لسانه القولَ السديدَ، وإذا بعُدَ منه، وقرُبَ منه الشيطان، تكلّم علىٰ لسانه، وألقىٰ عليه قول الزور والفحش، حتىٰ ترىٰ الرجلَ يتكلّم علىٰ لسانه الملَكُ، والرجلَ يتكلّم علىٰ لسانه الشيطانُ.

وفي الحديث: «**إنّ السكينة تنطق علىٰ لسان عمر**»(٢).

وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل، فيقول: ما ألقاها علىٰ لسانك إلّا الملَكُ، ويسمع ضدَّها، فيقول: ما ألقاها علىٰ لسانك إلّا الشيطان، فالملَكُ يُلقي في القلب الحقَّ، ويُلقيه علىٰ اللسان، والشيطانُ يُلقي الباطل في القلب، ويُجريه علىٰ اللسان.

فمن عقوبة المعاصي أنّها تُبعِد من العبد وليَّه الذي سعادتُه في قربِه ومجاورته وموالاتِه، وتُدني منه عدوَّه الذي هلاكُه وشقاوتُه وفساده في قُربِه وموالاتِه، حتّىٰ إنّ الملَكَ لَينافحُ عن العبد ويرُدّ عنه إذا سفِه عليه السفيهُ وسبّه، كما اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان، فجعل أحدُهما يسبّ الآخَر وهو ساكتٌ، فتكلّم بكلمة يردّ بها علىٰ صاحبه، فقام النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لمّا رددتُ عليه بعضَ قولِه

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، وابن حبان (٩٩٧)، والطبري (٣/ ٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٨١٠)، والبزار (٢٠٢٧) وغيرهم، عنه، والموقوف أصح.

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة»، وعبد الله في «زوائد الفضائل» (٣١٠، ٤٧٠، ٦٠١، ٦٢٣، ٦٣٤، ٧١١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/ ١٠٨)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٤٠٣) وغيرهم، وهو ثابت موقوفًا من قول عليٍّ رضي الله عنه.

قمتَ. فقال: «**كان الملك ينافح عنك، فلمّا رددتَ عليه جاء الشيطانُ، فلم أكن لأجلِسَ**»[(١)].

وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمّن الملَكُ علىٰ دعائه، وقال: «**لك بمثله**»[(٢)]، وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمّنت الملائكةُ علىٰ دعائه[(٣)].

وإذا أذنب العبدُ المؤمنُ الموحّدُ المتبع لسبيله وسنّةِ رسوله استغفر له حملةُ العرش ومن حوله.

وإذا نام علىٰ وضوء بات في شِعاره ملَكٌ.

فملَكُ المؤمنِ يردّ عنه ويحارب ويدافع، ويعلّمه، ويثبّته، ويشجّعه، فلا يليق به أن يسيءَ جوارَه، ويبالغَ في أذاه وطردِه عنه وإبعادِه، فإنّه ضيفه وجاره. وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلىٰ الجار من لزوم الإيمان وموجَباته؛ فما الظنّ بإكرام أكرَمِ الأضيافِ وخير الجيران وأبرّهم؟

وإذا آذىٰ العبدُ الملَكَ بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربّه وقال: لا جزاك الله خيرًا، كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان، قال بعض الصحابة: «إنّ معكم من لا يفارقكم، فاستحيُوا منهم وأكرِموهم»[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٩٦)، والبخاري في «تاريخه» (٢/ ١٠٢)، وذكره الدارقطني في «العلل» (٨/ ١٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٢٤٢)، عن سعيد بن المسيب مرسلًا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠).

(٤) لم أقف عليه موقوفًا علىٰ الصحابة، وإنما ورد مرفوعًا من حديث عبد الله بن عمر أخرجه الترمذي (٢٨٠٠)، ولفظه: «إياكم والتعزي، فإنّ معكم من لا يفارقكم إلّا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلىٰ أهله، فاستحيوهم وأكرموهم»، قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلّا من هذا الوجه».

ولا ألأمَ ممّن لا يستحي من الكريم العظيم القدرِ، ولا يُجلّه، ولا يوقّره، وقد نبّه سبحانه علىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١]، أي: استحيُوا هؤلاء الحافظين الكرامَ، وأكرِمُوهم، وأجِلُّوهم أن يروا منكم ما تستحيُوا[١] أن يراكم عليه مَن هو مثلُكم.

والملائكة تتاذّىٰ مما يتأذّىٰ منه بنو آدم[٢]، فإذا كان ابن آدم يتأذّىٰ ممّن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظنّ بأذىٰ الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان.

فصـــل

ص(٢٥٧)

ومن عقوباتها: أنّها تستجلب موادّ هلاك العبد في دنياه وآخرته، فإنّ الذنوب هي أمراض متىٰ استحَكمَتْ قتلَتْ، ولا بُدّ.

وكما أنّ البدن لا يكون صحيحًا إلّا بغذاءٍ يحفظ قوته، واستفرغ يستفرغ الموادّ الفاسدة والأخلاط الرديئة التي متىٰ غلبت عليه أفسدته، وحِميةٍ يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشىٰ ضررَه؛ فكذلك القلبُ لا تتمّ حياتُه إلّا بغذاءٍ من الإيمان والأعمال الصالحة يحفظ قوّته، واستفرغ بالتوبة النصوح يستفرغ الموادّ الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحميةٍ تُوجب له حفظ الصحة وتجنّب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضادّ الصحّة. والتقوىٰ اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوىٰ بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادّة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب الموادّ المؤذية، وتُوجب التخليطَ المضادَّ للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح.

(١) كذا في جميع النُّسخ، والوجه: «تستحيون».

(٢) أخرجه مسلم (٥٦٤).

فانظر إلىٰ بدنٍ عليلٍ قد تراكمت عليه الأخلاط الرديئة وموادّ المرض، وهو لا يستفرغها ولا يحتمي لها، كيف تكون صحّته وبقاؤه؟ ولقد أحسن القائل:

جسـمُك بالحِمْيـة حصّنتَـه مخافـةً مـن ألـمٍ طـاري
وكان أولىٰ بـك أن تحتمـي مـن المعاصـي خشـيةَ النار [١]

فمن حفظ القوّةَ بامتثال الأوامر، واستعمل الحِمْيةَ باجتناب النواهي، واستفرغ التخليطَ بالتوبة النصوح = لم يدَعْ للخير مطلبًا، ولا من الشرّ مهربًا، والله المستعان.

فصـل

ص(٢٥٨)

فإن لم ترُعْك[٢] هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثيرًا في قلبك، فأحضِره العقوباتِ الشرعيّةَ التي شرعها الله ورسوله علىٰ الجرائم، كما قطع اليد في سرقة ثلاثة دراهم، وقطَع اليدَ والرجلَ في قطع الطريق علىٰ معصوم المال والنفس، وشقَّ الجلدَ بالسوط علىٰ كلمة قذفٍ لمحصَن، أو قطرةِ خمرٍ يُدخِلها جوفَه، وقتَلَ بالحجارة أشنعَ قِتلةٍ في إيلاج الحشفة في فرج حرام، وخفّف هذه العقوبة عمّن لم يتم عليه نعمة الإحصان بمائة جَلدةٍ ونفي سنة عن وطنه وبلده إلىٰ بلاد الغربة، وفرّق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع علىٰ ذاتِ رحمٍ محرّم منه، أو ترَكَ الصلاةَ المفروضة، أو تكلّم بكلمة كفر، وأمر بقتلِ من وطئ ذكرًا مثله وقتلِ المفعول به، وأمر بقتل من أتىٰ بهيمةً وقتل البهيمة معه، وعزم علىٰ تحريق بيوت المتخلفين عن

(١) لمحمود الورّاق، ورواية البيت الأول في «محاضرات الأدباء» (٢/ ٤٠٧):

عمـرُك قـد أفنيتَـه تحتمـي فيـه مـن البـاردِ والحـارِ

وانظر: ديوانه ص(٨٧).

(٢) راعه: أفزعه، ويحتمل: «لم يَزَعْك»، من وزعه: كفّه وزجره.

الصلاة في الجماعة، وغير ذلك من العقوبات التي رتّبها علىٰ الجرائم، وجعلها بحكمته علىٰ حسب الدواعي إلىٰ تلك الجرائم، وحسب الوازع عنها.

فما كان الوازع عنه طبيعيًّا -وليس في الطباع داعٍ إليه- اكتفىٰ فيه بالتحريم مع التعزير ولم يرتّب عليه حدًّا كأكل الرجيع، وشرب الدم، وأكل الميتة. وما كان في الطباع داعٍ إليه رتّب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داعي الطبع إليه[1].

ولهذا لمّا كان داعي الطباع إلىٰ الزِّنىٰ من أقوىٰ الدواعي كانت عقوبته العظمىٰ أشنعَ القتلات وأعظمَها، وعقوبته السهلة أعلىٰ أنواع الجَلْد مع زيادة التغريب، ولَمّا كان اللواط فيه الأمران كان حدّه القتل بكلّ حال، ولَمّا كان داعي السرقة قويًّا، ومفسدتها كذلك، قطع فيها اليد.

وتأمّلْ حكمتَه في إفساد العضو الذي باشرَ به الجناية، كما أفسد علىٰ قاطع الطريق يدَه ورجلَه اللَّتَيْن هما آلةُ قطعه، ولم يُفسِدْ علىٰ القاذف لسانَه الذي جنىٰ به، إذْ مفسدةُ قطعه تزيد علىٰ مفسدة الجناية ولا تبلغها، فاكتفىٰ من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد.

فإن قيل: فهلّا أفسد علىٰ الزاني فرجه الذي باشر به المعصية؟

قيل: لوجوه:

أحدها: أنّ مفسدة ذلك تزيد علىٰ مفسدة الجناية؛ إذ فيه قطع النسل وتعريضه للهلاك.

الثاني: أنّ الفرج عضوٌ مستورٌ لا يحصل بقطعه مقصود الحدّ من الردع والزجر لأمثاله من الجُناة، بخلاف قطع اليد.

الثالث: أنّه إذا قطع يدَه أبقىٰ له يدًا أخرىٰ تُعوِّض عنها، بخلاف الفرج.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣٤/ ١٩٨).

الرابع: أنّ لذّة الزنىٰ عمّت جميع البدن، فكان الأحسن أن تعمّ العقوبة جميع البدن، وذلك أولىٰ من تخصيصها ببَضْعة منه.

فعقوبات الشارع جاءت علىٰ أتمّ الوجوه، وأوفقِها للعقل، وأقوَمِها بالمصلحة.

والمقصود أنّ الذنوب إمّا أن تترتّب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية، أو يجمعهما الله للعبد، وقد يرفعهما عمّن تاب وأحسن.

فصـــل

ص(٢٦٠)

وعقوباتُ الذنوب نوعان: شرعيّةٌ وقدريّةٌ.

فإذا أقيمت الشرعيّةُ رفَعَتْ العقوباتِ القدريةَ أو خفّفتها، ولا يكاد الربّ تعالىٰ يجمع علىٰ عبده بين العقوبتين، إلّا إذا لم تفِ إحداهما برفع موجَب الذنب ولم تكفِ في زوال دائه.

وإذا عُطِّلت العقوبات الشرعيّة استحالت قدريّةً، وربما كانت أشدّ من الشرعيّة، وربما كانت دونها، ولكنّها تعمّ، والشرعية تخصّ، فإنّ الرب تبارك وتعالىٰ لا يعاقِب شرعًا إلّا من باشر الجناية أو تسبّب إليها.

وأمّا العقوبة القدريّة فإنّها تقع عامّةً وخاصّةً، فإنّ المعصية إذا خفيت لم تضرّ إلّا صاحبَها، وإذا أُعلِنت ضرّت الخاصّة والعامّة، وإذا رأىٰ الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يعمّهم الله بعقابه.

وقد تقدّم أنّ العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه علىٰ قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع له، وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع: القتل، والقطع، والجلد، وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه، وهو الزنا واللواط، فإنّ هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الإنساب ونوع الإنسان.

قال الإمام أحمد: «لا أعلم بعد القتل ذنبًا أعظم من الزنىٰ»، واحتجّ بحديث

عبد الله بن مسعود أنّه قال: يا رسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خَلَقَك**»، قال: قلتُ: ثمّ أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافةَ أن يطعَمَ معك**»، قال: قلتُ: ثمّ أيّ؟ قال: «**أن تُزانيَ بحليلةِ جارك**»، فأنزل الله سبحانه تصديقَها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان:٦٨][١].

والنبي ﷺ ذكر من كلّ نوع أعلاه، ليطابق جوابُه سؤالَ السائل، فإنّه سأله عن أعظم الذنب، فأجابه بما تضمّن ذكرَ أعظمِ أنواعها، وما هو أعظم كلّ نوع.

فأعظم أنواع الشرك: أن يجعل العبد لله نِدًّا.

وأعظم أنواع القتل: أن يقتل ولدَه خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه.

وأعظم أنواع الزنىٰ: أنْ يزنيَ بحليلة جاره، فإنّ مفسدة الزنىٰ تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحقّ.

فالزنىٰ بالمرأة التي لها زوج أعظمُ إثمًا وعقوبةً من التي لا زوج لها؛ إذ فيه انتهاكُ حرمة الزوج، وإفسادُ فراشه، وتعليقُ نسبٍ عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه، فهو أعظم إثمًا وجرمًا من الزنىٰ بغير ذات البعل.

فإن كان زوجها جارًا له انضاف إلىٰ ذلك سوءُ الجوار وأذىٰ جاره بأعلىٰ أنواع الأذىٰ، وذلك من أعظم البوائق، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «**لا يدخل الجنةَ من لا يأمن جارُه بوائقَه**»[٢]، ولا بائقةَ أعظمُ من الزنىٰ بامرأته، فالزنىٰ بمائة امرأة لا زوجَ لها أيسرُ عند الله من الزنىٰ بامرأة الجار.

فإن كان الجار أخًا له أو قريبًا من أقاربه انضمّ إلىٰ ذلك قطيعةُ الرحم، فيتضاعف

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦)، و«البوائق»: جمع بائقة، وهي الغائلة والداهية والفتك.

الإثم، فإن كان الجار غائبًا في طاعة الله: كالصلاة وطلب العلم والجهاد؛ تضاعفَ الإثمُ، حتّىٰ إنّ الزاني بامرأة المغازي في سبيل الله يوقَف له يوم القيامة، ويقال: خُذ من حسناته ما شئتَ، قال النبي ﷺ: «**فما ظنّكم**»[1] أي: ما ظنّكم أن يترك له من حسنات؟ قد حُكِّم في أن يأخذ منها ما شاء، علىٰ شدّة الحاجة إلىٰ حسنة واحدة، حيثُ لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقًّا يجب له عليه.

فإن اتّفق أن تكون المرأة رحمًا منه انضاف إلىٰ ذلك قطيعة رحمها، فإن اتّفق أن يكون الزاني محصَنًا كان الإثم أعظم، فإن كان شيخًا كان أعظم إثمًا، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلّمهم الله يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم[2].

فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام، أو بلد حرام، أو وقت معظّم عند الله: كأوقات الصلاة، وأوقات الإجابة؛ تضاعف الإثمُ.

وعلىٰ هذا فاعتبِر مفاسدَ الذنوب، وتضاعُفَ درجاتها في الإثم والعقوبة. والله المستعان.

فصل

ص(٢٦٤)

وجعل سبحانه القطعَ بإزاء إفساد الأموال الذي لا يمكن الاحتراز منه، فإنّ السارق لا يمكن الاحتراز منه؛ لأنّه يأخذ المال في اختفاء، وينقُب الدُّورَ، ويتسوّر من غير الأبواب، فهو كالسنّور أو الحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم، فلم ترتفع مفسدة سرقته إلىٰ القتل، ولا تندفعُ بالجلد، فأحسنُ ما دُفِعَتْ به مفسدتُه إبانة العضو الذي يتسلّط به علىٰ الجناية.

وجعل الجَلْدَ بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٧).

فدارت عقوباته -سبحانه- الشرعيّة علىٰ هذه الأنواع الثلاثة، كما دارت الكفّارات علىٰ ثلاثة أنواع: العتق وهو أعلاها، والإطعام، والصيام.

ثم إنّه سبحانه جعل الذنوبَ ثلاثة أقسام:

قسمًا فيه الحدّ، فهذا لم يشرع فيه كفارة، اكتفاءً بالحدّ.

وقسمًا لم يرتِّبْ عليه حدًّا، فشرع فيه الكفّارةَ: كالوطء في نهار رمضان، والوطء في الإحرام، والظهار، وقتل الخطأ، والحنث في اليمين، وغير ذلك.

وقسمًا لم يرتِّبْ عليه حدًّا ولا كفارة، وهو نوعان:

أحدهما: ما كان الوازع عنه طبعيًّا: كأكل العَذِرة، وشرب البول والدم.

والثاني: ما كانت مفسدته أدنىٰ من مفسدة ما رتّب عليه الحد: كالنظر، والقُبْلة، واللمس، والمحادثة، وسرقة فلس، ونحو ذلك.

وشرع الكفّارة في ثلاثة أنواع:

أحدها: ما كان مباحَ الأصل ثمّ عرض تحريمه، فباشره في الحال التي عرض فيها التحريم: كالوطء في الإحرام والصيام، وطَرْدُه الوطءُ في الحيض والنفاس، بخلاف الوطء في الدبر، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصحّ، فإنّه لا يباح في وقت دون وقت، فهو بمنزلة التلوّط وشرب المسكر.

النوع الثاني: ما عقده لله من نذر، أو بالله من يمين، أو حرّمه الله ثم أراد حِلّه؛ فشرع الله سبحانه حِلَّه بالكفارة، وسماها تحِلّةً، وليست هذه الكفارة ماحيةً لهتك حرمة الاسم بالحِنْث كما ظنّه بعض الفقهاء، فإنّ الحنث قد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًّا، وقد يكون مباحًا، وإنّما الكفارة حِلّ لما عقده.

النوع الثالث: ما تكون فيه جابرةً لما فات، ككفارة قتل الخطأ وإن لم يكن هناك إثم، وكفارة قتل الصيد خطأً، فإنّ ذلك من باب الجوابر، والنوع الأول من باب الزواجر، والنوع الوسط من باب التحلّة لما منعه العقد.

ولا يجتمع الحدّ والتعزير في معصية، بل إن كان فيها حدٌّ اكتفيَ به، وإلّا اكتفىٰ بالتعزير، ولا يجتمع الحدّ والكفارة في معصية، بل كلّ معصية فيها حدّ فلا كفارة فيها، وما فيه كفارة فلا حدّ فيه.

وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لاحدّ فيها؟ فيه وجهان.

وهذا كالوطء في الإحرام والصيام، ووطء الحائض، إذا أوجبنا فيه الكفارة:

فقيل: يجب التعزير لما انتُهِك من الحرمة بركوب الجناية.

وقيل: لا تعزير في ذلك اكتفاءً بالكفارة؛ لأنّها جابرة وماحية.

فصل

ص(٢٦٧)

وأمّا العقوبات القدرية فهي نوعان: نوع علىٰ القلوب والنفوس، ونوع علىٰ الأبدان والأموال.

والتي علىٰ القلوب نوعان:

أحدهما: آلام وجوديّة يُضرَب بها القلبُ.

والثاني: قطع الموادّ التي بها حياته وصلاحه عنه، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها.

وعقوبة القلوب أشدّ العقوبتين، وهي أصل عقوبة الأبدان.

وهذه العقوبة تقوىٰ وتتزايد حتىٰ تسري من القلب إلىٰ البدن، كما يسري ألم البدن إلىٰ القلب، فإذا فارقت النفسُ البدنَ صار الحكم متعلّقًا بها، فظهرت عقوبة القلب حينئذ، وصارت عيانيّة ظاهرةً، وهي المسمّاة بعذاب القبر، ونسبته إلىٰ البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلىٰ هذه الدار.

ص(٢٦٨)

فصل

والتي على الأبدان أيضًا نوعان: نوعٌ في الدنيا، ونوع في الأخرى، وشدّتها ودوامها بحسب مفاسد ما رُتّبت عليه في الشدّة والخفّة.

فليس في الدنيا والآخرة شرٌّ أصلًا إلّا الذنوب وعقوباتها، فالشرُّ اسمٌ لذلك كلّه، وأصله من شرّ النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبيُّ ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا**»(١)، وسيئات الأعمال من شرور النفس، فعاد الشرّ كلّه إلى شرّ النفس، فإنّ سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: «ومن سيئات أعمالنا»، هل معناه:

السيّئ من أعمالنا، فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه ويكون بمعنى «من»؟ وقيل معناه: من عقوباتها التي تسوء، فيكون التقدير: ومن عقوبات أعمالنا التي تسوؤنا.

ويرجِّح هذا القول أنّ الاستعاذة تكون قد تضمّنت جميع الشرّ، فإنّ شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة، وهي تستلزم العقوبات السيئة فنبّه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها منه إذ هي أصله. ثم ذكر غاية الشرّ ومنتهاه، وهو السيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام، فتضمنت هذه الاستعاذة أصلَ الشرِّ، وفروعَه، وغايتَه، ومقتضاه.

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ فهذا يتضمن طلبَ وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي

(١) أخرجه الترمذي (١١٠٥)، وأحمد (٣٧٢١)، (٤١١٦)، وابن ماجه (١٨٩٢)، والنسائي (١١٦٤)، وأبو داود (٢١١٨)، وغيرهم، عن ابن مسعود، بإسناد صحيح.

تسوء صاحبها، فإنّه سبحانه متىٰ وقاهم العملَ السيّئ وقاهم جزاءه السيّئ، وإن كان قوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ أظهرَ في عقوبات الأعمال المطلوبِ وقايتُها يومئذ.

فإن قيل: فقد سألوه سبحانه أن يقيَهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدلّ علىٰ أنّ المراد بالسيئات التي سألوا وقايتها: الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظيرَ ما استعاذ منه النبي ﷺ، ولا يرد علىٰ هذا قوله يومئذ فإنّ المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم، وهي سيئات في أنفسها.

قيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها.

فقد تضمّنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمّل ما تضمّنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلىٰ المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدَّموا بين يدي استغفارهم توسّلَهم إلىٰ الله سبحانه بسعة علمه وسعة رحمته.

فسعةُ علمه تتضمّن علمَه بذنوبهم وأسبابِها، وضعفِهم عن العصمة، واستيلاءِ عدوّهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها؛ وعلمَه بهم إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنّةٌ في بطون أمهاتهم، وعلمَه السابق بأنّه لا بُدّ أن يعصوه، وأنّهَ يحبّ العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه.

وسعة رحمته تتضمّن أنّه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهلِ توحيده ومحبته، فإنّه واسع الرحمة، لا يخرج عن دائرة رحمته إلّا الأشقياء، ولا أشقىٰ ممّن لم تسعه رحمته التي وسعَتْ كلَّ شيء.

ثمّ سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله - وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته - فتابوا ممّا يكره، واتّبعوا السبيل التي يحبّها.

ثمّ سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنّاتِ عدن التي وعدهم بها، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد فإنّه وعدهم بها بأسباب من جملتها: دعاء ملائكته لهم بأن يدخلهم إيّاها برحمته، فدخلوها برحمته التي منها أن وفّقهم لأعمالها، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثمّ أخبر سبحانه عن ملائكته أنّهم قالوا عقيب هذه الدعوة:

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي: مصدر ذلك وسببه وغايته صادرٌ عن كمال قدرتك وكمال علمك، فالعزّة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم. وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه ما يشاء، ويأمر وينهىٰ، ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر.

والمقصود: أنّ عقوبات السيئات تتنوع إلىٰ: عقوباتٍ شرعيةٍ وعقوباتٍ قدريةٍ، وهي إمّا في القلب وإمّا في البدن وإمّا فيهما، وعقوباتٍ في دار البرزخ بعد الموت وعقوباتٍ يوم حشر الأجساد.

فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنّه بمنزلة السكران والمخدَّر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحسّ بالمؤلم. فترتّبُ العقوبات علىٰ الذنوب كترتّب الإحراق علىٰ النار، والكسر علىٰ الانكسار[1]، والإغراق علىٰ الماء، وفساد البدن علىٰ السموم، والأمراض علىٰ الأسباب الجالبة لها.

---

(١) كذا في جميع النُّسخ، ومقتضىٰ السياق: «والانكسار علىٰ الكسر».

وقد تقارن المضرّة للذنب، وقد تتأخرّ عنه إمّا يسيرًا وإمّا مدةً، كما يتأخّر المرض عن سببه أو يقارنه، وكثيرًا ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام، ويذنب الذنب فلا يرىٰ أثره عقيبه، ولا يدري أنّه يعمل عمله علىٰ التدريج شيئًا فشيئًا، كما تعمل السموم والأشياء الضارّة حذو القُذّة بالقذّة. فإنْ تدارك العبدُ بالأدوية والاستفراغ والحمية وإلّا فهو صائرٌ إلىٰ الهلاك. هذا إذا كان ذنبًا واحدًا لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب علىٰ الذنب كلّ يوم وكلّ ساعة؟ فالله المستعان.

فصــل

ص(٢٧٣)

فاستحضِر بعض العقوبات التي رتّبها الله سبحانه علىٰ الذنوب، وجوِّزْ وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعيًا للنفس إلىٰ هجرانها.

وأنا أسوق لك منها طرفًا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

فمنها: الختم علىٰ القلوب والأسماع، والغشاوة علىٰ الأبصار، والإقفال علىٰ القلوب، وجعل الأكِنّة عليها، والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الربّ، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهيرَ القلب، وجعل الصدر ضيّقًا حرجًا كأنما يصعّد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا علىٰ مرضها، وإركاسها ونكسها بحيث تبقىٰ منكوسة؛ كما ذكر الإمام أحمد (١) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنّه قال: القلوب أربعة: فقلبٌ أجرَدُ فيه سراجٌ يُزهِر، فذلك قلب المؤمن، وقلبٌ أغلَفُ، فذلك قلب

(١) لم أقف عليه عند أحمد، ولعله في «الزهد» له، فالمطبوع ناقص.

والأثر أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٣٩)، والطبري (١/ ٤٠٦)، وابن أبي شيبة (٣٠٣٩٥، ٣٧٣٨٤)، والخطابي في «الغريب» (٢/ ٣٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٦)، عن أبي البختري عن حذيفة موقوفًا، وفيه انقطاع.

الكافر، وقلبٌ منكوس، فذلك قلب المنافق، وقلبٌ تُمِدُّه مادتان: مادّة إيمان ومادّة نفاق، وهو لما غَلَبَ عليه منهما.

ومنها: التثبيط عن الطاعة والإقعاد عنها.

ومنها: **جعل القلب أصمّ لا يسمع الحقّ**، أبكم لا ينطق به، أعمىٰ لا يراه؛ فيصير النسبة بين القلب وبين الحقّ الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصمّ والأصوات، وعين الأعمىٰ والألوان، ولسان الأخرس والكلام.

وبهذا يعلم أنّ الصمَم والبكَم والعَمَىٰ للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وليس المراد نفي العمىٰ الحسّي عن البصر، كيف وقد قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور:٦١]، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢]، وإنّما المراد أنّ العمىٰ التامّ في الحقيقة عمىٰ القلب، حتىٰ إنّ عمىٰ البصر بالنسبة إليه كلا عمىٰ، حتّىٰ إنه يصحّ نفيه بالنسبة إلىٰ كماله وقوته، كما قال ﷺ: «**ليس الشديد بالصُّرعة، ولكنّ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب**»(١).

وقوله: «**ليس المسكين بالطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يُفطَن له فيتُصدّقَ عليه**»(٢)، ونظائره كثيرة.

والمقصود أنّ من عقوبات المعاصي جعلَ القلبِ أعمىٰ أصمّ أبكم.

ومنها: **الخسف بالقلب**، كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلىٰ أسفل سافلين، وصاحبه لا يشعر.

وعلامة الخسف به أن لا يزال جوّالًا حول السفليات والقاذورات والرذائل،

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

كما أنّ القلب الذي رفعه الله وقرّبه إليه لا يزال جوّالًا حول البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق.

قال بعض السلف: إنّ هذه القلوب جوّالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُشّ(١).

ومنها: **مسخ القلب**، فيُمسَخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته.

فمن القلوب ما يُمسَخ على خُلُق خنزير؛ لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يُمسخ على خُلُق كلبٍ أو حمارٍ أو حيّةٍ أو عقربٍ، وغير ذلك.

وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨]، قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنزير وأخلاق الحمار، ومنهم من يتطوّس في ثيابه كما يتطوّس الطاووس في ريشه، ومنهم من يكون بليدًا كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألَف ويُؤلَف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كلّه كالغنم، ومنهم أشباه الذئاب، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها(٢).

وقد شبّه الله تعالى أهل الجهل والغيّ بالحُمُر تارةً، وبالكلب تارةً، وبالأنعام تارةً، وتقوى هذه المشابهة باطنًا، حتّى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورًا خفيفًا يراه المتفرّسون، وتظهر في الأعمال ظهورًا يراه كلّ أحد، ولا يزال يقوى حتى يستتبعَ

---

(١) هذا من كلام أحمد بن خضرويه البلخي، من أصحاب حاتم الأصمّ (٢٣٧هـ)، كما في «طبقات الصوفية» (١٠٤)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٢٩٥).

و«الحشّ»: موضع قضاء الحاجة.

(٢) انظر: «العزلة» للخطابي (١٥٩)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٢٧٠).

الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التامّ، فيقلب الله سبحانه الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة: يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله، كم من قلب منكوس وصاحبُه لا يشعر! وقلبٍ ممسوخ، وقلب مخسوفٍ به! وكم من مفتون بثناء الناس عليه، ومغرورٍ بستر الله عليه، ومستدرَجٍ بنعَم الله عليه!

وكلُّ هذه عقوبات وإهانة، ويظنّ الجاهل أنها كرامة.

ومنها: **مكرُ الله بالماكر**، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ، وإزاغته لقلب الزائغ عن الحق.

ومنها: **نكسُ القلبِ** حتى يرى الباطلَ حقًّا والحقَّ باطلًا، والمعروفَ منكرًا والمنكرَ معروفًا، ويُفسد ويرى أنّه يُصلح، ويصدُّ عن سبيل الله وهو يرى أنّه يدعو إليها، ويشتري الضلالة بالهدى وهو يرى أنّه على الهدى، ويتّبع هواه وهو يزعم أنّه مطيع لمولاه.

وكلّ هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب.

ومنها: **حجاب القلب عن الربّ في الدنيا**، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٤-١٥]، فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم، فيصلوا إليها، فيَروا ما يُصلِحها ويزكّيها، وما يُفسدها ويُشقيها؟ وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم، فتصل القلوب إليه، فتفوز بقربه وكرامته، وتقرَّ به عينًا، وتطيب به نفسًا، بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبين قلوبهم، وحجابًا بينهم وبين ربّهم وخالقهم.

ومنها: **المعيشة الضَّنْك** في الدنيا وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

وفُسّرت المعيشة الضنك بعذاب القبر(١)، ولا ريب أنّه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعمُّ منه، وإن كانت نكرةً في سياق الإثبات، فإنّ عمومها من حيث المعنىٰ، فإنّه سبحانه رتّب المعيشة الضنك علىٰ الإعراض عن ذكره.

فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعّم في الدنيا بأصناف النعيم، ففي قلبه من الوحشة والذلّ والحسرات التي تقطّع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنّما يواريه عنه سكرُ الشهوات والعشق وحبّ الدنيا والرياسة، إن لم ينضمَّ إلىٰ ذلك سكرُ الخمر! فسكرُ هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنّه يفيق صاحبه ويصحو، وسكرُ الهوىٰ وحبّ الدنيا لا يصحو صاحبه إلّا إذا صار في عسكر الأموات.

فالمعيشة الضنك لازمةٌ لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله علىٰ رسوله ﷺ في دنياه، وفي البرزخ، ويوم معاده.

ولا تقرّ العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلّا بإلهها ومعبودها الذي هو حقّ، وكلّ معبود سواه باطلٌ، فمن قرّت عينه بالله قرّت به كلُّ عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات، والله تعالىٰ إنّما جعل الحياة الطيبة لمن آمنِ به وعمل صالحًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، فضَمِن لأهل الإيمانِ والعملِ الصالحِ الجزاءَ في الدنيا بالحياة الطيّبة وبالحسنىٰ يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، وهم أحياء في الدارين.

---

(١) كما جاء من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد مرفوعًا، وعن ابن مسعود، وابن عباس موقوفًا.

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

ونظيرها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا علىٰ الحياة الطيّبة في الدارين، فإنّ طيبَ النفس، وسرورَ القلب وفرحَه ولذّتَه وابتهاجَه وطمأنينتَه وانشراحَه ونورَه وسعتَه وعافيتَه من الشهوات المحرّمة والشبهات الباطلة = هو النعيم علىٰ الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه، فقد كان يقول بعضُ من ذاق هذه اللذّة: لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه لجالدُونا عليه بالسُّيوف (١).

وقال آخر: إنّه ليمرّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنّة في مثل هذا إنّهم لفي عيش طيب(٢).

وقال آخر: إنّ في الدنيا جنّة، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنّة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنّةَ الآخرة (٣).

وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذه الجنّة بقوله: «**إذا مررتم برياض الجنّة فارتَعوا**»، قالوا: وما رياض الجنّة؟ قال: «**حِلَق الذِّكر**»(٤).

(١) من كلام إبراهيم بن أدهم، وقد سبق في ص (١١٣).

(٢) من كلام أبي سليمان المغربي، وقد سلف في ص (١١٣).

(٣) تقدم في ص (١١٣) أنّ المؤلف نقل نحوه عن شيخ الإسلام في «المدارج» و«الوابل الصيب».

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥١٠)، وأحمد (١٢٥٤٥)، وأبو يعلىٰ (٣٤٣٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٣٦)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٥٢)، وابن عساكر (١٠/ ٣٨٦)، من حديث ثابت عن أنس، وهو ضعيف، وهذا الحديث من منكراته.

وقال: «**ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنّة**»(١).

ولا تظن أنّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، مختصٌّ بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذّةٍ ونعيم في الدنيا أطيبُ من برّ القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الربّ تعالىٰ ومحبته، والعمل علىٰ موافقته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟

وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ خَليلِهِ بسَلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٨٣-٨٤]، وقال حاكيًا عنه أنّه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

والقلب السليم هو الذي سَلِمَ منَ الشِّرك، والغِلّ، والحقد، والحسد، والشحّ، والكبر، وحبّ الدنيا والرياسة، فسلِمَ من كلّ آفة تُبعده من الله، وسلِمَ من كلّ شبهةٍ تعارض خبرَه، ومن كلّ شهوةٍ تعارض أمرَه، وسلِمَ من كلّ إرادة تزاحم مراده، وسلِمَ من كلّ قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنّة معجّلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي الجنّة يوم المعاد.

ولا تتمّ له سلامتُه مطلقًا حتىٰ يسلَم من خمسةِ أشياء: من شركٍ يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السنّة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذِّكر، وهوًىٰ يناقض التجريدَ والإخلاص.

وهذه الخمسة حُجُبٌ عن الله، وتحتَ كلّ واحدٍ منها أنواع كثيرة تتضمّن أفرادًا لا تنحصر.

ولذلك اشتدّت حاجة العبد بل ضرورته إلىٰ أن يسأل الله أن يهديه الصراطَ

(١) أخرجه البخاري عن عبد الله المازني (١١٩٥)، وأبي هريرة (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩٠).

المستقيمَ؛ فليس العبدُ أحوجَ منه إلىٰ هذه الدعوة، وليس شيء أنفعَ له منها، فإنّ الصراط المستقيم يتضمّن علومًا وإراداتٍ وأعمالًا وتُروكًا ظاهرةً وباطنةً تجري عليه كلَّ وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثرَ ممّا يعلمه.

وما يعلمه قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه، وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد تريدُه نفسُه، وقد لا تريدُه كسلًا وتهاونًا، أو لقيام مانعٍ وغير ذلك، وما تريدُه قد يفعلُه، وقد لا يفعلُه، وما يفعلُه قد يقوم فيه بشروط الإخلاص، وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة، وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه، وقد يُصرَف قلبُه عنه.

وهذا كلُّه واقعٌ سارٍ في الخلق، فمستقِلٌّ ومستكثِرٌ.

وليس في طباع العبد الهدايةُ إلىٰ ذلك، بل متىٰ وُكِلَ إلىٰ طباعه حِيل بينه وبين ذلك كلّه، وهذا هو الإركاس الذي أركسَ الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلىٰ طباعهم، وما خُلِقَتْ عليه نفوسُهم من الجهل والظلم.

والربُّ تبارك وتعالىٰ علىٰ صراط مستقيم في قضائه وقدره، ونهيه وأمره، فيهدي من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم بفضله ورحمته، وجعله الهداية حيث تصلح، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته؛ لعدم صلاحية المحلّ، وذلك موجَب صراطه المستقيم الذي هو عليه.

فهو علىٰ صراطٍ مستقيم، ونصب لعباده من أمره صراطًا مستقيمًا دعاهم جميعًا إليه حجّةً منه وعدلًا، وهدىٰ من شاء منهم إلىٰ سلوكه نعمةً منه وفضلًا، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه.

فإذا كان يوم لقائه نصَبَ لخلقه صراطًا مستقيمًا يُوصِلهم إلىٰ جنّته، ثمّ صَرَف

عنه من صَرَف عنه في الدنيا، وأقام عليه من أقامه عليه في الدنيا، وجعل نورَ المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نورًا ظاهرًا يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الجسر، وحفِظَ عليهم نورَهم حتىٰ قطعوه، كما حفِظ عليهم الإيمانَ به حتىٰ لَقُوه، وأطفأ نورَ المنافقين أحوجَ ما كانوا إليه، كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا، وأقام أعمال العصاة بجنبتي الصراط كلاليبَ وحَسَكًا تخطَفُهم، كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه، وجعل قوّة سيرهم وسرعتهم عليه علىٰ قدر قوّة سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا.

ونصب للمؤمنين حوضًا يشربون منه بإزاء شربهم مِن شَرْعه في الدنيا، وحرَمَ من الشُّرب منه هناك من حرمه من الشرب من شرعه ودينه هاهنا.

فانظر إلىٰ الآخرة كأنّها رأي عين، وتأمَّلْ حكمةَ الله سبحانه في الدارين؛ تعلَمْ حينئذٍ علمًا يقينًا لا شكّ فيه أنّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرة وعنوانُها وأنموذجُها، وأنّ منازل الناس فيها في السعادة والشقاوة علىٰ حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدّهما، وبالله التوفيق.

فمن أعظم عقوبات الذنوب: الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة.

ص(٢٨٦)

فصل

ولما كانت الذنوب متفاوتةً في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها.

ونحن نذكر فيها بعون الله وتوفيقه فصلًا وجيزًا جامعًا، فنقول:

أصلها نوعان: تركُ مأمورٍ، وفعلُ محظورٍ، وهما الذَّنْبَان اللّذان ابتلىٰ الله سبحانه بهما أبوي الجنّ والإنس.

وكلاهما ينقسم باعتبار محلّه إلىٰ ظاهرٍ علىٰ الجوارح، وباطن في القلب.

وباعتبار متعلَّقه إلىٰ حقّ لله، وحقّ لخلقه، وإن كان كلُّ حقّ لخلقه فهو متضمّن لحقّه، لكن سمّي حقًّا للخلق؛ لأنّه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم.

ثم هذه الذنوبُ تنقسمُ إلىٰ أربعةِ أقسام: مَلَكيّة، وشَيطانية، وسَبعية، وبَهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

فالذنوب المَلَكية: أن يتعاطىٰ ما لا يصلح له من صفات الربوبية: كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلوّ، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ويدخل في هذا: الشركُ بالربِّ تعالىٰ، وهو نوعان: شركٌ به في أسمائه وصفاته، وجعلُ آلهةٍ أخرىٰ معه، وشركٌ به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العملَ الذي أُشرِكَ فيه مع الله غيرُه.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول علىٰ الله بلا علم في خلقهِ وأمره، فمَن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيتَه وملكَه، وجعل له ندًّا، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

فصل

ص(٢٨٨)

وأمّا الشيطانية، فالتشبّه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغشّ، والغلّ، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعته وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلىٰ البدع والضلال.

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإنْ كانت مفسدته دونه.

فصل

ص(٢٨٨)

وأمّا السبعية، فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثّب علىٰ الضعفاء والعاجزين، ويتولّد منها أنواع أذىٰ النوع الإنساني، والجرأة علىٰ الظلم والعدوان.

وأمّا الذنوب البهيميّة، فمثل الشَّرَه، والحرص علىٰ قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولّد الزنىٰ، والسرقة، وأكل أموال اليتامىٰ، والبخل والشحّ، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلىٰ سائر الأقسام، فهو يجرّهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلىٰ الذنوب السبعية، ثمّ إلىٰ الشيطانية، ثمّ إلىٰ منازعة الربوبيّة والشرك في الوحدانيّة.

ومن تأمّل هذا حقَّ التأمّل تبيّن له أنّ الذنوب دِهْلِيزُ [1] الشرك والكفر، ومنازعة الله ربوبيّتَه.

ص(٢٨٩)

فصـــل

وقد دلّ القرآنُ والسنّةُ وإجماعُ الصحابةِ والتابعينَ بعدهم والأئمّةِ علىٰ أنّ من الذنوب كبائرَ وصغائرَ، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنّه قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان، مكفِّراتٌ لما بينهنّ، إذا اجتُنِبَت الكبائر**»[2].

وهذه الأعمال المكفّرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصّر عن تكفير الصغائر، لضعفِها وضعفِ الإخلاص فيها والقيام بحقوقها؛ بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الدّاء كميّةً وكيفيةً.

الثانية: أن تقاوم الصغائرَ، ولا ترتقي إلىٰ تكفير شيء من الكبائر.

(١) الدِّهليز بكسر الدّال: ما بين الباب والدار، فارسي معرب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣).

الثالثة: أن تقوَىٰ علىٰ تكفير الصغائر، وتبقىٰ فيها قوةٌ تكفّر بها بعضَ الكبائر.

فتأمَّلْ هذا، فإنّه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفي الصحيحين[1] عنه ﷺ أنّه قال: «**ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر**»؟ قلنا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور**».

وفي الصحيحين[2] عنه ﷺ: «**اجتنبوا السبعَ الموبقات**»، قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «**الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النَّفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكل مال اليتيم، وأكل الرِّبا، والتَّولّي يوم الزَّحف، وقذف المُحصنات الغافلات المؤمنات**».

وفي الصحيحين[3] عنه ﷺ أنّه سئل: أيّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تدعو لله ندًّا، وهو خَلَقك**»، قيل: ثمّ أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافةَ أن يطعَمَ معك**»، قيل: ثمّ أيّ؟ قال: «**أن تُزانيَ بحليلة جارك**»، فأنزل الله تعالىٰ تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان:٦٨].

واختلف الناس في الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ علىٰ قولين.

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها:

فقال عبد الله بن مسعود: هي أربع[4].

وقال عبد الله بن عمر: هي سبع[5].

---

(١) البخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٧).

(٢) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٣) تقدم تخريجه في ص (١٦٠).

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ٤٠) وسنده صحيح.

(٥) الذي وجدته عن ابن عمر أنها تسع، كما رواه عنه طيسلة بن مَيّاس. انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٤/ ٣٦٧)، والطبري (٥/ ٣٩).

أمّا القول بأنها سبع فقد ورد عن علي بن أبي طالب، وعبيد بن عمير الليثي، وعطاء. انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٢٣٥ - ٢٣٨).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هي تسعة [١].

وقال غيره: هي أحد عشر [٢].

وقال آخر: هي سبعون [٣].

وقال أبو طالب المكي: جمعتُها من أقوال الصحابة، فوجدتها:

أربعة في القلب، وهي: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

وأربعة في اللسان، وهي: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغَموس، والسحر.

وثلاث[٤] في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا.

واثنان في الفرج، وهما: الزنا، واللواطة.

واثنان في اليدين، وهما: القتل، والسرقة.

وواحد في الرِّجْلَيْن، وهو الفرارُ من الزحف.

وواحدٌ يتعلَّق بجميع الجسد وهو عقوق الوالدين[٥].

والذين لم يحصروها بعَددٍ، منهم من قال: كلّ ما نهىٰ الله عنه في القرآن فهو

---

(١) كذا بتأنيث العدد في جميع النُّسخ، وقد تقدّم أنّ هذا القول ثابت عن ابن عمر.

(٢) كذا في النُّسخ ما عدا (ف) كان فيها «أحد عشرة»، فأصلحها بعضهم: «إحدىٰ عشرة». وقد رُوي هذا القول عن ابن مسعود (زاد المسير ٢/ ٦٦)، وعن عليٍّ (تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٠).

(٣) روىٰ طاووس وغيره عن ابن عباس أنها إلىٰ السبعين أقرب، وروىٰ عنه سعيد بن جبير أنها إلىٰ السبعمائة أقرب. انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٢٤٥).

(٤) كذا في جميع النُّسخ بتذكير العدد، خلافًا لما سبق.

(٥) انظر: «قوت القلوب» (٢/ ٢٨٨)، و«فتح الباري» (١٢/ ١٨٣).

كبيرة، وما نهىٰ عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة [(١)].

وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيدٌ مِن لعن، أو غضب، أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيءٌ من ذلك فهو صغيرة [(٢)].

وقيل: كلّ ما رتّب عليه حدٌّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، فهو كبيرة، وما لم يرتّب عليه لا هذا ولا هذا، فهو صغيرة [(٣)].

وقيل: كلّ ما اتّفقت الشرائع علىٰ تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

وقيل: كلّ ما لعن الله أو رسولُه فاعلَه فهو كبيرة.

وقيل: هي ما ذُكِرَ [(٤)] من أول سورة النساء إلىٰ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١].

والذين لم يقسموها إلىٰ كبائر وصغائر [(٥)] قالوا: الذنوب كلّها بالنسبة إلىٰ الجراءة علىٰ الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره كبائر، فالنظر إلىٰ من عُصيَ أمره وانتهكت محارمه يوجبُ أن تكون الذنوب كلّها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٢٤٤).

(٢) رُوي نحو هذا عن ابن عباس، والحسن البصري. انظر: «شرح مسلم» للنووي (٢/ ٤٤٤).

(٣) قال ابن حجر: «وممّن نصّ علىٰ هذا: الإمامُ أحمد فيما نقله القاضي أبو يعلىٰ، ومن الشافعية الماوردي، ولفظه: الكبيرة ما وجبت فيه الحدود، أو توجَّه إليها الوعيد». انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤١٠).

(٤) وهو قول ابن مسعود فيما روىٰ عنه مسروق، وعلقمة، وإبراهيم. انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٢٣٣)، ونقل عن ابن عباس أيضًا في «زاد المسير» (٢/ ٦٦).

(٥) منهم أبو إسحاق الإسفراييني، وأبو بكر بن الطيب الباقلاني، وحكاه القاضي عياض عن المحققين، واختاره إمام الحرمين، وبيّن أنه لا يخالف ما قاله الجمهور. انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٤٠٩).

قالوا: ويوضِّح هذا أنّ الله سبحانه لا تضرّه الذنوب ولا يتأثّر بها، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلّا مجرد معصيته ومخالفته، ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب.

قالوا: ويدلّ عليه أنّ مفسدة الذنوب إنّما هي متابعة للجراءة والتوثّب علىٰ حقّ الربّ تعالىٰ؛ ولهذا لو شرب رجلٌ خمرًا، أو وطئ فرجًا حرامًا وهو لا يعتقد تحريمه، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام، ولو فعل ذلك مَن يعتقد تحريمه لكان آتيًا بإحدىٰ المفسدتين، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول، فدلّ علىٰ أنّ مفسدة الذنب متابعة للجراءة والتوثب.

قالوا: ويدلّ علىٰ هذا أنّ المعصية تتضمّن الاستهانةَ بأمرِ المطاع ونهيه، وانتهاكَ حرمته، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب.

قالوا: فلا ينظر العبد إلىٰ كِبَرِ الذنب وصغره في نفسه، ولكن ينظر إلىٰ قَدْر مَن عصاه وعظمته، وانتهاك حرمته بالمعصية، وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصيةٍ ومعصيةٍ، فإنّ مَلِكًا مُطاعًا عظيمًا لو أمر أحدَ مملوكيه أن يذهب في مهمّ له إلىٰ بلد بعيد، وأمر آخرَ أن يذهب في شغلٍ له إلىٰ جانب الدار، فعصَياه وخالفا أمره، لكانا في مقته والسقوط من عينه سواءً.

قالوا: ولهذا كانت معصية من ترك الحجَّ من مكة أو ترك الجمعةَ وهو جار المسجد أقبحَ عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد.

والواجب علىٰ هذا أكثر من الواجب علىٰ هذا، ولو كان مع رجل مائتا درهم فمنع زكاتها، ومع آخر مائتا ألف ألف فمنع زكاتها لاستويا في منع ما وجب علىٰ كلّ واحد منهما، ولا يبعد استواؤهما في العقوبة؛ إذْ كان كلّ منهما مصرًّا علىٰ منع زكاة ماله، قليلًا كان المال أو كثيرًا.

ص(٢٩٥)

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال:

إنّ الله ﷻ أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السموات والأرض، لِيُعرفَ، ويوحَّد، ويُعبَدَ، ويكون الدين كلّه له، والطاعة كلّها له، والدعوة له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧].

فأخبر سبحانه أنّ القصدَ بالخلق والأمر أن يُعرَفَ بأسمائه وصفاته، ويُعبَد وحده لا يُشرَكُ به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، فأخبر أنّه أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل، ومن أعظم القسط: التوحيدُ، بل هو رأسُ العدل وقِوامُه، وإنّ الشرك لظلم عظيم؛ فالشرك أظلَمُ الظلمِ، والتوحيد أعدَلُ العدلِ، فما كان أشدَّ منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتُها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشدّ موافقةً لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات، وأفرض الطاعات.

فتأمَّلْ هذا الأصلَ حقَّ التأمّل، واعتبِرْ به تفاصيلَه تَعرِفْ به حكمة أحكمِ الحاكمين وأعلمِ العالمين فيما فرضه علىٰ عباده، وحرّمه عليهم؛ وتفاوُتَ مراتبِ الطاعات والمعاصي.

ولمّا كان الشرك بالله منافيًا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرّم الله الجنّةَ على كلّ مشرك، وأباح دمَه ومالَه وأهلَه لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم، لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبلَ مِن مشركٍ عملًا، أو يقبلَ فيه شفاعةً، أو يستجيب له في الآخرة دعوةً، أو يُقيل له فيها عثرةً، فإنّ المشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له من خلقه نِدًّا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غايةُ الظلم منه؛ وإن كان المشرك لم يظلم ربَّه، وإنّما ظلم نفسه.

ووقعت مسألة، وهي: أنّ المشرك إنّما قصدُه تعظيمُ جناب الربّ تبارك وتعالى، وأنّه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلّا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانَةَ بجناب الربوبية، وإنما قَصَدَ تعظيمَه، وقال: إنّما أعبد هذه الوسائطَ لِتُقرِّبني إليه، وتُدخِلَني عليه، فهو المقصود، وهذه وسائل وشفعاء، فلِمَ كان هذا القدر موجبًا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى، ومخلَّدًا في النار، وموجبًا لسفك دمَاء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟

وترتّب على هذا سؤال آخر، وهو أنّه هل يجوز أن يشرعَ اللهُ سبحانه لعباده التقرّبَ إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيحٌ في الفِطَر والعقول، ممتنعٌ أن تأتي به شريعةٌ، بل جاءت الشرائعُ بتقرير ما في الفِطَر والعقول مِن قُبحه الذي هو أقبح من كلّ قبيح؟ وما السرّ في كونه لا يُغفَر من بين سائر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].

فتأمَّلْ هذا السؤالَ، واجمع قلبك وذهنك على جوابه، ولا تستَهْوِنْه، فإنّه به يحصل الفرقُ بين الموحّدين والمشركين، والعالمين بالله والجاهلين به، وأهل الجنّة وأهل النار.

فنقول، وبالله التوفيق والتأييد، ومنه نستمِدّ المعونة والتسديد، فإنّه من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلِلْ فلا هادي له، ولا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع:

الشرك شركان:

شرك يتعلّق بذات المعبود، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقدُ أنّه سبحانه لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

والشرك الأول نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبحُ أنواع الشرك، كشرك فرعون؛ إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، وقال لهامان: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر:٣٦]، ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨].

والشرك والتعطيل متلازمان؛ فكل مشركٍ معطِّل، وكل معطِّل مشرك، لكنّ الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقِرًّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنّه عطّل حقَّ التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

- تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.
- وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدّس، بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله.
- وتعطيل معاملته عمّا يجب علىٰ العبد من حقيقة التوحيد.

ومن هذا: شركُ طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثَمَّ خالق ومخلوق، ولا هاهنا شيئان، بل الحقّ المنزَّه هو عين الخلق المشبَّه[1].

ومنه: شركُ الملاحدة القائلين بقِدَم العالم وأبديّته، وأنّه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادثُ بأسرها مستندة عندهم إلىٰ أسباب ووسائط اقتضت إيجادَها يسمّونها العقول والنفوس.

---

(١) قوله: «الحق المنزّه ...» من كلام ابن عربي في «فصوص الحكم»، (ص: ٧٨).

ومن هذا: شركُ مَن عطّل أسماءَ الربّ تعالىٰ، وأوصافَه، وأفعالَه من غُلاة الجَهمية والقَرامطة، فلم يُثبتوا له اسمًا، ولا صفةً، بل جعلوا المخلوق أكملَ منه؛ إذ كمالُ الذات بأسمائها وصفاتها.

ص(٣٠٠)

فصــل

النوع الثاني: شركُ مَن جعل معه إلهًا آخرَ، ولم يعطِّل أسماءه وصفاته وربوبيته، كشرك النصارىٰ الذين جعلوه ثالث ثلاثةٍ، فجعلوا المسيح إلهًا وأمّه إلهًا.

ومن هذا: شركُ المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلىٰ النور، وحوادث الشرّ إلىٰ الظلمة.

ومن هذا: شركُ القدرية القائلين بأنّ الحيوان هو الذي يخلق أفعالَ نفسه، وأنّها تحدُث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته، ولهذا كانوا أشباهَ المجوس.

ومن هذا: شركُ الذي حاجّ إبراهيمَ في ربّه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، فهذا جعل نفسه ندًّا لله، يحيي ويميت بزعمه كما يحيي الله ويميت، فألزمه إبراهيم أنّ طردَ قولك أن تقدِرَ علىٰ الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، وليس هذا انتقالًا كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزام علىٰ طرد الدليل إن كان حقًّا.

ومن هذا: شركُ كثير ممّن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها أربابًا مدبّرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

ومن هذا: شرك عُبّاد الشمس، وعُبّاد النار، وغيرهم.

ومن هؤلاء من يزعم أنّ معبوده هو الإله علىٰ الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الالهة، ومنهم من يزعم أنّه إلهٌ من جملة الآلهة، وأنّه إذا خصّه بعبادته، والتبتّل إليه، والانقطاع إليه أقبل عليه، واعتنىٰ به، ومنهم من يزعم أنّ معبوده الأدنىٰ يقرّبه

إلىٰ المعبود الذي هو فوقه، والفوقانيُّ يقرّبه إلىٰ من هو فوقه، حتىٰ تقرّبه تلك الآلهةُ إلىٰ الله سبحانه؛ فتارة تكثر الوسائط، وتارةً تقِلّ.

فصل

ص(٣٠١)

وأمّا الشرك في العبادة، فهو أسهلُ من هذا الشرك، وأخفُّ أمرًا، فإنّه يصدر ممّن يعتقد أنّه لا إله إلا الله، وأنّه لا يضرّ وينفع ويعطي ويمنع إلّا الله، وأنّه لا إله غيره ولا ربّ سواه، ولكن لا يُخلِص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظِّ نفسه تارةً، ولطلب الدنيا تارةً، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارةً، فلِلّه من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظّه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، ولِلخَلْق نصيب، وهذا حالُ أكثر الناس.

وهو الشرك الذي قال فيه النبيُّ ﷺ فيما رواه ابن حِبّان في «صحيحه»[1]: «**الشرك في هذه الأمّة أخفىٰ من دبيب النمل**»، قالوا: وكيف ننجو منه يا رسول الله؟ قال: «**قل: اللهم إنّي أعوذ بك أن أشرِك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**».

فالرياءُ كلّه شركٌ، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، أي: كما أنّه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرّد بالإلهية يجب أن يُفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء، المقيَّد بالسنّة.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[2].

---

(١) قوله: «الحق المنزّه ...» من كلام ابن عربي في «فصوص الحكم»، (ص: ٧٨).

(٢) ليس في المطبوع، ولعل المؤلف وَهِم فيه، وقد ثبت موقوفًا عن ابن مسعود، وابن عباس.

وهذا الشركُ في العبادة يُبطِل ثوابَ العمل، وقد يعاقَب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنّه يُنزِله منزلةَ من لم يعمله، فيعاقبَ علىٰ ترك الأمر.

فإنّ الله سبحانه إنّما أمر بعبادته خالصة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أُمِرَ به، بل الذي أتىٰ به شيء غير المأمور به، فلا يصحّ، ولا يقبل منه.

ويقول الله تعالىٰ: «**أنا أغنىٰ الشركاءِ عن الشِّرك، فمَن عَمِل عملًا أشرك معي فيه غيري، فهو للذي أشركَ به، وأنا منه بريء**»[1].

وهذا الشرك ينقسم إلىٰ: مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر.

والنوع الأول ينقسم إلىٰ كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفورًا.

فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم أن يحبّ مخلوقًا كما يحبّ الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقال أصحابُ هذا الشرك لآلهتهم -وقد جمعتهم الجحيم-: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

ومعلومٌ أنّهم ما سوَّوهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنّما سوّوهم به في الحبّ والتألّه والخضوع لهم والتذلّل، وهذا غاية الظلم والجهل.

فكيف يُسوَّىٰ الترابُ بربّ الأرباب؟ وكيف يسوّىٰ العَبيد بمالك الرِّقاب؟ وكيف يسوّىٰ الفقيرُ بالذات، الضعيفُ بالذات، العاجزُ بالذات، المحتاجُ بالذات، الذي ليس له من ذاته إلّا العدم = بالغنيّ بالذات، القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التامّ من لوازم ذاته؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

فأيُّ ظلمٍ أقبحُ من هذا؟ وأيُّ حكمٍ أشدُّ جورًا منه حيث عَدَلَ من لاعَدْلَ له بخلقه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، فعدَل المشركُ مَن خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض، فيا لك من عَدْلٍ تضمّنَ أكبرَ الظلم وأقبحه!

فصل

ص(٣٠٥)

ويتبع هذا الشرك الشركُ به سبحانه في الأفعال والأقوال والإرادات والنيّات.

فالشرك في الأفعال: كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبودية وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، وتقبيل القبور واستلامها والسجود لها.

وقد لعن النبيُّ ﷺ من اتّخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجدَ يُصلىٰ لله فيها، فكيف بمن اتّخذ القبور أوثانًا يعبدها من دون الله!

ففي الصحيحين عنه أنّه قال: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1].

وفي الصحيح عنه: «**إنّ من شرار الناس مَن تدركهم الساعةُ وهم أحياء، والذين يتّخذون القبور مساجد**»[2].

وفي الصحيح أيضًا عنه: «**إنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون القبور مساجد، ألّا فلا تتّخذوا القبور مساجد، فإنّي أنهاكم عن ذلك**»[3].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٦١٥) من طريق الحسن، وهو لم يسمع من عمر.

وأخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (١٠١٨) من طريق آخر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٣) البخاري (٤٣٥،٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان[١] عنه ﷺ: «**لعن الله زوّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج**».

وقال: «**اشتدّ غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٢].

وقال: «**إنّ من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوّروا فيه تلك الصورة، أولئك شِرار الخلق عند الله يوم القيامة**»[٣].

فهذا حال مَن سَجد لله في مسجدٍ علىٰ قبر، فكيف حال من سجد للقبر نفسِه! وقد قال ﷺ: «**اللهمّ لا تجعل قبري وثنًا يُعبَد**»[٤].

وقد حمىٰ النبيُّ ﷺ جانبَ التوحيد أعظم حماية، حتىٰ نهىٰ عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها[٥]؛ لئلّا يكون ذريعةً إلىٰ التشبّه بعُبّاد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسدّ الذريعةَ بأنّ منع من الصلاة بعد العصر والصبح[٦] لاتّصال هذين الوقتين بالوقتين اللّذَين يسجد المشركون فيهما للشمس.

(١) أخرجه أحمد (٣٨٤٤)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (٦٨٤٧)، والبزار (١٧٢٤) وغيرهم، عن ابن مسعود مرفوعًا، وذكره البخاري في الفتن معلّقًا بصيغة الجزم بالشطر الأول فقط. راجع: «فتح الباري» (١٣/ ١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٣) «مسند أحمد» (٢٠٣٠)، وابن حبان (٣١٧٩)، وكذا الترمذي (٣٢٠)، وأبو داود (٣٢٣٦)، وابن ماجه (١٥٧٥)، والنسائي (٢٠٤٣)، وحسّنه الترمذي.

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار- ٤٤٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٤٣) عن أبي سعيد مرفوعًا، وفيه عمر بن صهبان، وقد اجتمعوا علىٰ ضعفه.

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨).

(٦) أخرجه أحمد (٧٣٥٨)، والبخاري في «تاريخه» (٣/ ٤٧)، وابن سعد (٢/ ٢١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣١٧) عن أبي هريرة مرفوعًا، وفي إسناده مقال.

وقد ثبت عن عمر بن الخطاب من قوله، انظر: «علل الدارقطني» (٢/ ٢٢٠ - ٢٢١).

وأمّا السجود لغير الله فقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلّا لله**»[(١)].

و«لا ينبغي» في كلام الله ورسوله للذي هو في غاية الامتناع شرعًا؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس:٦٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١١]، وقوله عن الملائكة: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان:١٨].

فصـــل

ص(٣١٠)

ومن الشرك به سبحانه: الشركُ به في اللفظ، كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد، وأبو داود عنه ﷺ أنّه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، صحّحه الحاكم وابن حبان[(٢)].

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئتَ، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنّه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلْتني لله نِدًّا؟ قل: ما شاء الله وحدَه**»[(٣)].

هذا مع أنّ الله قد أثبت للعبد مشيئةً، كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨] فكيف بمن يقول: أنا متوكّل علىٰ الله وعليك، وأنا في حسْبِ الله وحسْبِك، ومالي إلّا الله وأنت، وهذا من الله ومنكَ، وهذا من بركَات الله وبركاتك، واللهُ لي في السماء، وأنتَ لي في الأرض، أو يقول: واللهِ وحياةِ فلان، أو يقول: نذرًا لله ولفلان، أو أنا تائب لله ولفلان، أو أرجو الله وفلانًا، ونحو ذلك؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢)، ومسلم (٨٢٨).

(٢) البخاري (٥٨١،٥٨٤، ٥٨٦)، ومسلم (٨٢٥،٨٢٦،٨٢٧).

(٣) أخرجه ابن حبان (٤١٦٢)، وابن أبي الدنيا في «العيال» (٥٣٤)، عن أبي هريرة في قصة الجملين، وسنده حسن.

فوازِن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثمّ انظر: أيُّهما أفحَشُ يتبيّن لك أنّ قائلَها أولىٰ بجواب النبي ﷺ القائل تلك الكلمة، وأنّه إذا كان قد جعله لله نِدًّا بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسولَ الله ﷺ في شيء من الأشياء، بل لعله أن يكون من أعدائه، نِدًّا لربّ العالمين.

فالسجود، والعبادة، والتوكّل، والإنابة، والتقوىٰ، والخشية، والتحسّب، والتوبة، والنذر، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبّدًا، والطواف بالبيت، والدعاء كُلّ ذلك محضُ حقّ الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملَكٍ مقرَّب ولا نبيّ مرسَل.

وفي مسند الإمام أحمد[1] أنّ رجلًا أُتِيَ به إلىٰ النبيِّ ﷺ قد أذنب ذنبًا، فلمّا وقف بين يديه قال: اللهم إنّي أتوب إليك، ولا أتوب إلىٰ محمّد، فقال: «**عرَفَ الحقَّ لأهله**».

فصل

ص(٣١٢)

وأمّا الشرك في الإرادات والنيّات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غيرَ وجه الله، أو نوىٰ شيئًا غيرَ التقرّبِ إليه وطلبِ الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإراداته ونيّته، وهذه هي الحنيفيّة ملّةُ إبراهيم التي أمر الله بها عبادَه كلَّهم، ولا يقبل من أحدٍ غيرَها، وهي حقيقة الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وهي ملّة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.

(١) أخرجه أحمد (٦٠٧٢)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وابن حبان (٢١٧٧)، والحاكم (٧٨١٤) وغيرهم.

ص(٣١٣)

فصل

إذا عرفتَ هذه المقدمةَ انفتحَ لك بابُ الجواب عن السؤال المذكور، فنقولُ ومِن الله وحده نستمِدُّ الصوابَ:

حقيقة الشرك هو التشبّه بالخالق والتشبيه للمخلوق به. هذا هو «التشبيه» في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف اللهُ بها نفسَه، ووصفه بها رسولُه سبحانه، فعكَسَ من نكسَ اللهُ قلبَه، وأعمىٰ عينَ بصيرته، وأركسه بلَبْسه الأمرَ وجعلِ التوحيد تشبيهًا والتشبيه تعظيمًا وطاعةً.

فالمشرك مشبِّه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فإنّ من خصائص الإلهية التفرّدَ بملك الضرّ والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعلُّقَ الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده. فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبّهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولاموتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلًا عن غيره، شبيهًا لمن له الأمر كلُّه، فأزِمّةُ الأمور كلّها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده بابَ رحمة لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه تشبيهُ هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغنيّ بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمالُ المطلقُ من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ وذلك يوجب أن تكون العبادة كلّها له وحده، والتعظيمُ والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكّل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحبّ = كلُّ ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرةً أن يكون له وحده، ويُمنَع عقلًا وشرعًا وفطرةً أن يكون لغيره.

فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبّه ذلك الغيرَ بمن لا شبيهَ له، ولا مثل

له، ولا ندَّ له، وذلك أقبح التشبيه وأبطلُه، ولشدّةِ قبحه وتضمّنِه غايةَ الظلم أخبر سبحانه عبادَه أنّه لا يغفره، مع أنّه كتب علىٰ نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبوديةُ التي قامت علىٰ ساقين لا قِوَام لها بدونهما: غايةُ الحبّ مع غايةِ الذلّ، هذا تمام العبودية، وتفاوتُ منازلِ الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين؛ فمن أعطىٰ حبَّه وذلَّه وخضوعه لغير الله فقد شبّهه به في خالص حقّه، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحُه مستقِرّ في كلّ فطرة وعقل، ولكن غيّرت الشياطين فِطَرَ أكثر الخلق وعقولَهم، وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها، ومضىٰ علىٰ الفطرة الأولىٰ من سبقت له من الله الحسنىٰ، فأرسل إليهم رُسُلَه، وأنزل عليهم كتبَه بما يوافق فِطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورًا علىٰ نور، ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبّه المخلوقَ به.

ومنها: التوكّل، فمن توكّل علىٰ غيره فقد شبّهه به.

ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها: الحلف باسمه تعظيمًا وإجلالًا له، فمن حلف بغيره فقد شبّهه به.

هذا في جانب التشبيه.

وأمّا في جانب التشبّه به، فمن تعاظمَ وتكبَّر، ودعا الناس إلىٰ إطرائه في المدح، والتعظيم، والخضوع، والرجاء، وتعليق القلب به خوفًا ورجاءً والتجاءً واستعانةً به، فقد تشبّه بالله، ونازعه ربوبيته وإلهيّته، وهو حقيق بأن يُهينه اللهُ غايةَ الهوان، ويُذِلَّه غاية الذلّ، ويجعله تحت أقدام خلقه، وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «**يقول الله** ﷻ:

العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذّبتُه»[١].

وإذا كان المصوّر الذي يصنع الصورة بيده من أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة لتشبّهه بالله في مجرّد الصنعة، فما الظنّ بالتشبّه بالله في الربوبية والإلهية؟ كما قال ﷺ: «**أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة المصوّرون، يقال لهم: أحْيُوا ما خلقتم**»[٢].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنّه قال: «**قال الله ﷻ: ومن أظلم ممّن ذهب يخلق خلقًا كخلقي؟ فَلْيخلقوا ذرّةً! فليخلقوا شعيرةً**»[٣].

فنبّه بالذرّة والشعيرة علىٰ ما هو أعظم منهما وأكبر.

والمقصود أنّ هذا حال من تشبّه به في صنعة صورة، فكيف حال من تشبّه به في خواصّ ربوبيته وإلهيته؟ وكذلك من تشبّه به في الاسم الذي لا ينبغي إلّا لله وحده، كملِك الأملاك، وحاكم الحكّام، ونحوه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إنّ أخنَع الأسماءِ عند الله رجل تسمّىٰ بـ«شاهان شاه»: ملِك الملوك، ولا ملِك إلا الله**»[٤].

وفي لفظٍ: «**أغيَظُ رجل علىٰ الله رجلٌ تسمّىٰ بملِك الأملاك**»[٥].

فهذا مقتُ الله وغضبه علىٰ من تشبّه به في الاسم الذي لا ينبغي إلّا له، فهو سبحانه ملِكُ الملوك وحده، وهو حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم علىٰ الحكام كلهم، ويقضي عليهم كلّهم، لا غيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) الجملة الأولىٰ من حديث ابن مسعود، والأخرىٰ من حديث ابن عمر رضي الله عنهم. أخرجهما البخاري (٥٩٥٠، ٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨،٢١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣)، والأخنع: الأوضع والأحقر.

(٥) أخرجه مسلم (٢١٤٣).

ص(٣١٨)

فصل

إذا تبيّن هذا، فههنا أصل عظيم يكشف سرّ المسألة، وهو أنّ أعظمَ الذنوب عند الله إساءةُ الظنّ به، فإنّ المسيء به الظنَّ قد ظنّ به خلافَ كماله المقدّس، وظنّ به ما يناقض أسماءه وصفاته.

ولهذا توعّد الله سبحانه الظانّين به ظنّ السوء بما لم يتوعّد به غيرَهم، كما قال تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [الفتح:٦]، وقال تعالىٰ لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

وقال تعالىٰ حاكيًا عن خليله إبراهيم ﷺ إنّه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٥-٨٧] أي: فما ظنّكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيرَه؟ وماذا ظننتم به حتىٰ عبدتم معه غيرَه؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيّته من النقص حتىٰ أحوجكم ذلك إلىٰ عبوديّة غيره؟

فلو ظننتم به ما هو أهله من أنّه بكلّ شيء عليم، وعلىٰ كلّ شيء قدير، وأنّه غنيّ عن كلّ ما سواه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، وأنّه قائم بالقسط علىٰ خلقه، وأنّه المتفرّد بتدبير خلقه، لا يشرَكه فيه غيرُه، والعالم بتفاصيل الأمورًا فلا تخفىٰ عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلىٰ معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلىٰ من يستعطفه.

وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنّهم محتاجون إلىٰ من يعرّفهم أحوالَ الرعية وحوائجَهم، وإلىٰ من يُعينهم علىٰ قضاء حوائجهم، وإلىٰ من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلىٰ الوسائط ضرورةً لحاجتهم، وعجزهم، وضعفهم، وقصور علمهم.

فأما القادرُ علىٰ كلّ شيء، الغنيُّ بذاته عن كلّ شيء، العالمُ بكل شيءٍ، الرحمنُ الرحيمُ الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء، فإدخالُ الوسائط بينه وبين خلقه تنقُّصٌ بحقِّ رُبوبيته، وإلهيته، وتوحيده؛ وظنٌّ به ظنَّ السَّوْء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفِطَر، وقُبحُه مستقِرّ في العقول السليمة فوقَ كلّ قبيح.

ويوضّح هذا أنّ العابد معظِّم لمعبوده، متألِّه له، خاضع ذليل له.

والربّ تعالىٰ وحده هو الذي يستحقّ كمال التعظيم والإجلال والتألّه والخضوع والذلّ، وهذا خالص حقّه، فمن أقبح الظلم أن يُعطَىٰ حقُّه لغيره، أو يُشرَك بينه وبينه فيه، ولا سيّما إذا كان الذي جُعِلَ شريكَه في حقّه هو عبده ومملوكه، كما قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨] أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكُه شريكَه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصلح لسواي؟ فمن زعم ذلك فما قدَرني حقَّ قدري، ولا عظّمني حقّ تعظيمي، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي.

فما قدر اللهَ حقّ قدره مَن عبد معه غيرَه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣-٧٤].

فما قدر اللهَ حقَّ قدره من عبد معه مَن لا يقدر علىٰ خلق أضعفِ حيوانٍ وأصغره، وإنْ سلبه الذبابُ شيئًا ممّا عليه لم يقدر علىٰ استنقاذ منه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، فما قدر

مَن هذا شأنُه وعظمتُه حقَّ قدره مَن أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه! فما قدر القويَّ العزيزَ حقَّ قدره من أشرك معه الضعيف الذليل!

وكذلك ما قدره حقَّ قدره من قال: إنّه لم يرسل إلىٰ خلقه رسولًا ولا أنزل كتابًا، بل نسبه إلىٰ ما لا يليق به ولا يحسن منه، من إهمالِ خلقه، وتضييعهم، وتركِهم سدًىٰ، وخلقِهم باطلًا عبثًا.

ولا قدَره حقَّ قدره مَن نفىٰ حقائق أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، فنفىٰ سمعه وبصره، وإرادته واختياره، وعلوَّه فوق خلقه، وكلامه، وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد؛ أو نفىٰ عموم قدرته وتعلّقها بأفعال عباده من طاعاتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الربّ؛ فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون! تعالىٰ الله عن قول أشباه المجوس علوًّا كبيرًا.

وكذلك ما قدره حقَّ قدره من قال: إنّه يعاقب عبده علىٰ ما لا يفعله العبد، ولا له عليه قدرة، ولا تأثير له فيه البتة، بل هو نفس فعل الربّ جلّ جلاله، فيعاقب عبدَه علىٰ فعله، وهو سبحانه الذي جبر العبدَ عليه، وجبرُه علىٰ الفعل أعظمُ من إكراه المخلوق للمخلوق، وإذا كان من المستمرّ في الفِطَر والعقول أنّ السيّد لو أكره عبدَه علىٰ فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحًا، فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يُجبر العبدَ علىٰ فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير، ولا هو واقعٌ بإرادته، بل ولا هو فعله البتة، ثمّ يعاقب عليه عقوبة الأبد؟ تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقول هؤلاء شرّ من قول أشباه المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حقّ قدره.

وكذلك ما قدره حقَّ قدره من لم يصُنْه عن بئر ولا حُشّ ولا مكان يُرغب عن ذكره، بل جعله في كلّ مكان؛ وصانه عن عرشه أن يكون مستويًا عليه، يصعد إليه الكلم الطيّب والعمل الصالح، وتعرج الملائكة والروح إليه وتنزل من عنده، ويدبّر الأمر من السماء إلىٰ الأرض ثم يعرج إليه، فصانه عن استوائه علىٰ سرير الملك، ثم جعله في كلّ مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قدره حقَّ قدره مَن نفىٰ حقيقة محبّته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا مَن نفىٰ حقيقةَ حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا مَن نفىٰ حقيقة فعله ولم يجعل له فعلًا اختياريًّا يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفىٰ حقيقة مجيئه وإتيانه، واستوائه علىٰ عرشه، وتكليمه موسىٰ من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلىٰ غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفَوها، وزعموا أنّهم بنفيها قد قدروه حقَّ قدره.

وكذلك لم يقدُره حقَّ قَدْره من جعل له صاحبةً وولدًا، أو جعله يحِلّ في مخلوقاته، أو جعله عينَ هذا الوجود.

وكذلك لم يقدُره حقّ قدره من قال: إنّه رفع أعداءَ رسوله وأهل بيته، وأعلىٰ ذكرَهم، وجعل فيهم الملك والخلافة والعِزّ، ووضع أولياء رسولِهِ وأهلِ بيته، وأهانهم، وأذلّهم، وضرب عليهم الذلَّة أينما ثقفوا.

وهذا يتضمّن غاية القدح في الربّ، تعالىٰ عن قول الرافضة علوًّا كبيرًا.

وهذا القول مشتقّ من قول اليهود والنصارىٰ في ربّ العالمين: إنّه أرسل ملكًا ظالِمًا، فادّعىٰ النبوة لنفسه، وكذب علىٰ الله، ومكث زمنًا طويلًا يكذب عليه كلّ وقت، ويقول: قال كذا، وأمر بكذا، ونهىٰ عن كذا، وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم، ويقول: الله أباح لي ذلك! والربّ تعالي

يُظهره، ويؤيّده، ويعليه، ويُعزّه، ويجيب دعواته، ويمكّنه ممن يخالفه، ويقيم الأدلّة علىٰ صدقه، ولا يعاديه أحد إلّا ظفر به، فيصدّقه بقوله وفعله وتقريره، ويُحدِث أدلّةَ تصديقه شيئًا بعد شيء.

ومعلوم أنّ هذا يتضمّن أعظمَ القدح والطعن في الربّ سبحانه وتعالىٰ وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته. تعالىٰ الله عن قول الجاحدين علوًّا كبيرًا.

فوازِنْ بين قول هؤلاء وبين قول إخوانهم من الرافضة تجد القولين:

رضيعي لِبانٍ ثديَ أمٍّ تقاسما بأسحمَ داجٍ عوضُ لا نتفرَّقُ[1]

وكذلك لم يقدُرْه حقَّ قدره مَن قال: إنّه يجوز أن يعذّب أولياءه، ومن لم يعصِه طرفةَ عين، ويدخلهم دار الجحيم، وينعمَ أعداءه، ومن لم يؤمن به طرفة عين، ويدخلهم دار النعيم، وإنّ كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء، وإنّما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمنعناه للخبر، لا لمخالفة حكمته وعدله، وقد أنكر سبحانه في كتابه علىٰ من جوّز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام.

وكذلك لم يقدُره حقَّ قدره مَن زعم أنّه لا يحييٰ الموتىٰ، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي المحسنَ فيه بإحسانه والمسيءَ بإساءته، ويأخذ للمظلوم فيه حقّه من ظالمه، ويكرم المتحمّلين للمشاقّ في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبيّن لخلقه الذي يختلفون فيه، ويُعلِمُ الذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين.

وكذلك لم يقدُرْه حق قدره من هان عليه أمرُه فعصاه، ونهيُه فارتكبه، وحقُّه فضيّعه، وذكرُه فأهمله وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثرَ عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهمّ عنده من طاعته، فلله الفَضْلةُ من قلبه وقوله وعمله، وسواه المقدَّم

(١) تقدم البيت في ص (١٣٧).

في ذلك؛ لأنّه المهمّ عنده، يستخِفّ بنظر الله إليه واطّلاعه عليه، وهو في قبضته، وناصيتُه بيده، ويُعظِّم نظرَ المخلوق إليه واطّلاعَه عليه بكلّ قلبه وجوارحه.

ويستحيي من الناس ولا يستحيي من الله، ويخشىٰ الناس ولا يخشىٰ الله، ويعامل الخلقَ بأفضلِ ما يقدر عليه، وإنْ عاملَ اللهَ عاملَه بأهونِ ما عنده وأحقرِه، وإن قام في خدمة إلهه من البشر قام بالجدّ والاجتهاد وبذلِ النصيحة، وقد فرغّ له قلبه وجوارحه، وقدّمه عَلىٰ كثير من مصالحه، حتىٰ إذا قام في حقّ ربّه - إن ساعد القدرُ - قام قيامًا لا يرضىٰ مثلَه مخلوق من مخلوق، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوق لمثله! فهل قدر اللهَ حقَّ قدره من هذا وصفُه؟

وهل قدره حقَّ قدره مَن شارك بينه وبين عدوِّه في محض حقّه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذلّ والخضوع والخوف والرجاء؟ فلو جعل له مِن أقرب الخلق إليه شريكًا في ذلك لكان ذلك جراءةً وتوثّبًا علىٰ محض حقّه، واستهانةً به، وتشريكًا بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلّا له سبحانه، فكيف وإنّما شرَّكَ بينه وبين أبغضِ الخلق إليه، وأهونهم عليه، وأمقتِهم عنده، وهو عدوُّه علىٰ الحقيقة، فإنّه ما عُبدَ من دون الله إلّا الشيطان، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

ولما عبد المشركون الملائكةَ بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهم يظنّون أنّهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فالشيطان يدعو المشرك إلىٰ عبادته، ويوهمه أنّه ملَك.

وكذلك عُبّاد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنّهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج.

ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان، فيسجد لها الكفّار، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها.

وكذلك من عبد المسيحَ وأمَّه لم يعبدهما، وإنّما عبد الشيطان، فإنّه يزعم أنّه يعبد مَن أمَرَه بعبادته وعبادة أمّه، ورضِيَها لهم، وأمرهم بها.

وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه، لا عبدُ الله ورسولُه.

فنزِّلْ هذا كلَّه على قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠]، فما عبد أحد من بني آدم غيرَ الله كائنًا من كان إلّا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضي الشيطان.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، أي من إغوائهم وإضلالهم: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨].

فهذه إشارةٌ لطيفة إلىٰ السرّ الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنّه لا يُغفَر بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في العذاب، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل علىٰ الله سبحانه أن يشرع عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يظنّ بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضىٰ به؟ تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فصل

ص(٣٢٩)

فلما كان الشركُ أكبرَ شيء منافاةً للأمر الذي خلق الله له الخلق وأمر لأجله بالأمر؛ كان أكبر الكبائر عند الله.

وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدّم، فإنّ الله سبحانه خلق الخلق، وأنزل الكتب؛ لتكون الطاعة له وحده، والشركُ والكبرُ ينافيان ذلك.

ولذلك حرّم الله الجنّة علىٰ أهل الشرك والكبر، فلا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر [1].

فصل

ص(٣٢٩)

ويلي ذلك في كبر المفسدة: القولُ علىٰ الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفُه بضدّ ما وصف به نفسَه ووصَفَه به رسولُه.

فهو أشدُّ شيءٍ مناقضةً ومنافاةً لكمال من له الخلق والأمر، وقدحٌ في نفس الربوبية وخصائص الربّ.

فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك، وأعظم إثمًا عند الله؛ فإنّ المشرك المقِرَّ بصفات الربّ خيرٌ من المعطِّل الجاحد لصفات كماله. كما أنّ من أقرَّ لملِكٍ بالْمُلْك، ولم يجحد مُلكه، ولا الصفات التي استحقّ بها الملك، لكن جعل معه شريكًا في بعض الأمور يُقرّبه إليه = خيرٌ ممّن جحد صفاتِ الملِك وما يكون به مَلِكًا.

هذا أمر مستقرّ في سائر الفِطَر والعقول. فأين القدح في صفات الكمال والجحدُ لها، من عبادة واسطةٍ بين المعبود الحقّ وبين العابد يتقرَّب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظامًا له وإجلالًا؟ فداءُ التعطيل هو الداءُ العضالُ الذي لا دواء له.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

ولهذا حكىٰ الله عن إمام المعطِّلة فرعون أنّه أنكر علىٰ موسىٰ ما أخبر به من أنّ ربّه فوق السموات، فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

واحتجّ الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه علىٰ المعطِّلة بهذه الآية، وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب.

والقول علىٰ الله بلا علم والشرك متلازمان.

ولما كانت البدع المضِلّة جهلًا بصفات الله وتكذيبًا بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله عنادًا وجهلًا كانت من أكبر الكبائر - إن قصرت عن الكفر - وكانت أحبَّ إلىٰ إبليس من كبار الذنوب.

كما قال بعض السلف: البدعة أحبُّ إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأنّ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها[١].

وقال إبليس: أهلكتُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلمَّا رأيتُ ذلك بثثتُ فيهم الأهواءَ، فهم يذنبون، ولا يتوبون؛ لأنّهم يحسبون أنّهم يحسنون صُنْعًا![٢]

ومعلوم أنّ المذنب إنّما ضرره علىٰ نفسه، وأمّا المبتدع فضرره علىٰ النوع، وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة.

(١) من كلام سفيان الثوري، أخرجه ابن الجعد في «مسنده» (١٨٨٥)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٠٩)، وسنده حسن.

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (١٣٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧)، والهمذاني العطار في «فتيا وجوابها في الاعتقاد» (١١) وغيرهم، وسنده واهٍ، فيه عبد الغفور: متروك الحديث، وكان يضع الحديث. وعثمان بن مطير أيضًا ضعيف.

والمبتدع قد قعد للناس علىٰ صراط الله المستقيم يصدُّهم عنه، والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع قادحٌ في أوصاف الربّ وكماله، والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع مناقضٌ لما جاء به الرسول، والعاصي ليس كذلك.

والمبتدع يقطع علىٰ الناس طريقَ الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه.

فصل

ص(٣٣٢)

ثمّ لَمّا كان الظلمُ والعدوان منافيًا للعدل الذي قامت به السموات والأرض، وأرسل الله سبحانه رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس به = كان من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته في العِظَم بحسب مفسدته في نفسه.

وكان قتلُ الإنسان ولدَه الطفلَ الصغيرَ الذي لا ذنب له، وقد جبل الله سبحانه القلوبَ علىٰ رحمته، وعَطَفَها عليه، وخصّ الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة، فقتله خشيةَ أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله = من أقبح الظلم وأشدّه، وكذلك قتلُه أبويه الذين كانا سبب وجوده، وكذلك قتله ذا رحمه.

وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه، واستحقاقِ مَن قَتلَه السعيَ في إبقائه ونصيحته، ولهذا كان أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة من قتل نبيًّا، أو قتله نبيٌّ، ويليه من قتل إمامًا، أو عالِمًا يأمر الناس بالقسط، ويدعوهم إلىٰ الله، وينصحهم في دينهم.

وقد جعل الله سبحانه جزاءَ قتل النفس المؤمنة عمدًا الخلودَ في النار، وغضب الجبار، ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له، هذا موجَب قتل المؤمن عمدًا، ما لم يمنع منه مانع، ولا خلاف أنّ الإسلام الواقع بعد القتل طوعًا واختيارًا مانع من نفوذ ذلك الجزاء.

وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه؟

فيه قولان للسلف والخلف، وهما روايتان عن أحمد.

والذين قالوا: لا تمنع التوبة من نفوذه، رأوا أنّه حقّ لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا، وخرج منها بظلامته، فلا بُدَّ أن يُستوفَىٰ له في دار العدل.

قالوا: وما استوفاه الوارث وإنّما استوفىٰ محض حقّه الذي خيّره الله بين استيفائه والعفو عنه، وما ينفع المقتولَ من استيفاء وارثه، وأيّ استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه؟ وهذا أصحّ القولين في المسألة أنّ حقّ المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعي وغيرهم.

ورأت طائفة أنّه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث، فإنّ التوبة تهدم ما قبلها، والذنب الذي قد جناه قد أقيم عليه حدّه.

قالوا: وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر، وما هو أعظم إثمًا من القتل، فكيف تقصر عن محو أثر القتل؟ وقد قبل الله توبة الكفّار الذين قتلوا أولياءه، وجعلهم من خيار عباده، ودعا الذين حرّقوا أولياءه، وفتنوهم عن دينهم إلىٰ التوبة، وقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فهذه في حقّ التائب، وهي تتناول الكفر وما دونه.

قالوا: وكيف يتوب العبد من الذنب، ويعاقَب عليه بعد التوبة؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه.

قالوا: وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه، ولا يمكن تسليمها إلىٰ المقتول، فأقام الشارع وليّه مقامَه، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلىٰ المقتول، بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه، فإنّه يقوم مقام تسليمه للمورث.

والتحقيق في هذه المسألة: أنّ القتل يتعلّق به ثلاث[1] حقوق: حقّ لله، وحقّ للمقتول، وحقّ للولي، فإذا سلّم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا إلىٰ الولي ندمًا علىٰ ما فعل، وخوفًا من الله، وتوبةً نصوحًا، سقط حقُّ الله بالتوبة، وحقُّ الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حقّ المقتول يعوّضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يذهب حقّ هذا، ولا تبطل توبة هذا.

وأما مسألة المال فقد اختلف فيها:

فقالت طائفة: إذا أدىٰ ما عليه من المال إلىٰ الوارث فقد برئ من عهدته في الآخرة، كما بريء منها في الدنيا.

وقالت طائفة: بل المطالبةُ لمن ظلمه بأخذه باقيةٌ عليه يوم القيامة، وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له، فإنّه منعه من انتفاعه به في طول حياته، ومات ولم ينتفع به، وهذا ظلم لم يستدركه هو، وإنما انتفع غيره باستدراكه.

وبنوا علىٰ هذا أنّه لو انتقل من واحدٍ إلىٰ واحدٍ وتعدّد الورثة كانت المطالبة به للجميع؛ لأنّه حقّ كان يجب عليه دفعه إلىٰ كلّ واحد منهم عند كونه هو الوارث، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد.

وفصَّل شيخنا بين الطائفتين، فقال: إنْ تمكّن الموروث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذه حتىٰ مات صارت المطالبة به للوارث في الآخرة، كما هي كذلك في الدنيا، وإن لم يتمكّن من طلبه وأخذه بل حال بينه وبينه ظلمًا وعدوانًا فالطلب له في الآخرة.

وهذا التفصيل من أحسن ما يقال، فإنّ المال إذا استهلكه الظالم علىٰ الموروث، وتعذّر عليه أخذه منه، صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل، ودارِه التي أحرقها غيرُه، وطعامِه وشرابه الذي أكله وشربه غيرُه.

(١) كذا بتذكير العدد في جميع النُّسخ.

ومثل هذا إنما تلف علىٰ الموروث لا علىٰ الوارث، فحقُّ المطالبة لمن تلِفَ علىٰ ملكه.

بقي أن يقال: فإذا كان المال عقارًا أو أرضًا أو أعيانًا قائمةً باقيةً بعد الموت، فهي ملك للوارث، يجب علىٰ الغاصب دفعها إليه كلّ وقت، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله استحقّ المطالبة بها عند الله، كما يستحق المطالبة بها في الدنيا.

وهذا سؤال قويّ لا مخلص منه إلّا بأن يقال: المطالبة لهما جميعًا، كما لو غصب مالًا مشتركًا بين جماعة استحقّ كلّ منهم المطالبة بحقّه منه، وكما لو استولىٰ علىٰ وقف مرتّب علىٰ بطون، فأبطل حقّ البطون كلّهم منه، كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم، ولم يكن بعضهم أولىٰ بها من بعض، والله أعلم.

فصـــل ص(٣٣٧)

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال تعالىٰ: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة:٣٢].

وقد أشكل فهم هذا علىٰ كثير من الناس، وقالوا: معلوم أنّ إثمَ قاتلِ مائةٍ أعظمُ عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنّما أُتوا من ظنّهم أنّ التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة، واللفظُ لم يدلّ علىٰ هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذُه بجميع أحكامه.

وقد قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦] وقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وذلك لا يوجب أنّ لبثهم في الدنيا إنّما كان هذا المقدار.

وقال النبي ﷺ: «**من صلّىٰ العشاءَ في جماعةٍ فكأنما قام نصف الليل، ومن صلّىٰ**

الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كلَّه»[١] أي: مع العشاء، كما جاء في لفظ آخر[٢].

وأصرح من هذا قولُه: «**مَن صَام رمضانَ وأتبعه ستًا من شوال فكأنّما صام الدهر**»[٣]، وقولُه: «**مَن قَرأ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنّما قرأ ثلث القرآن**»[٤].

ومعلوم أنّ ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبَّه به، فيكونَ قدرهما سواءً، ولو كان قدرُ الثواب سواءً لم يكن لمصلي العشاء والفجر جماعةً منفعة في قيام الليل غير التعب والنصب.

وما أوتي عبدٌ بعد الإيمان أفضلَ من الفهم عن الله ورسوله، وذلك فضل الله يوتيه من يشاء.

فإن قيل: ففي أيّ شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعًا؟

قيل: **في وجوه متعددة**:

أحدها: أنّ كلًّا منهما عاصٍ لله ورسوله، مخالفٌ لأمره، متعرّضٌ لعقوبته، وكلٌّ منهما قد باء بغضب الله، ولعنته، واستحقاق الخلود في نار جهنم، وأعدّ له عذابًا عظيمًا، وإن تفاوتت دركات العذاب، فليس إثم من قتل نبيًّا أو إماما عادلًا أو عالِمًا يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس.

الثاني: أنّهما سواء في استحقاق إزهاق النفس.

الثالث: أنّهما سواء في الجراءة علىٰ سفك الدم الحرام، فإنّ من قتل نفسًا بغير استحقاق، بل لمجرّد الفساد في الأرض أو لأخذ ماله، فإنّه يتجرّأ علىٰ قتل كلّ من ظفر به، وأمكنه قتلُه، فهو مُعادٍ للنوع الإنساني.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٦).

(٢) ساقه أحمد في «المسند» (١/ ٥٧) (٤٠٨).

(٣) والحديث أخرجه مسلم (١١٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (٨١١) بنحوه.

ومنها: أنّه يسمَّىٰ قاتلًا أو فاسقًا أو ظالِمًا أو عاصيًا بقتله واحدًا، كما يسمّىٰ كذلك بقتله الناس جميعًا.

ومنها: أنّ الله سبحانه جعل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالحمّىٰ والسهر[(١)]، فإذا أتلف القاتل من هذا الجسد عضوًا، فكأنّما أتلف سائر الجسد، وآلم جميع أعضائه، فمن آذىٰ مؤمنًا واحدًا فكأنّما آذىٰ جميع المؤمنين، ومن آذىٰ جميع المؤمنين آذىٰ جميع الناس، فإنّ الله إنّما يدفع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم، فإيذاء الخفير إيذاء المخفر.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لا تقتلُ نفسٌ ظلمًا بغير حقٍّ إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنّه أول مَن سَنّ القتل**»[(٢)].

ولم يجئ هذا الوعيد في أوّل زانٍ، ولا أوّل سارق، ولا أول شارب مسكرٍ؛ وإن كان أولُ المشركين قد يكون أولىٰ بذلك من أول قاتلَ؛ لأنه أول من سنّ الشرك، ولهذا رأىٰ النبي ﷺ عمرو بن لُحَيّ يعذّب أعظمَ العذاب في النار؛ لأنّه أول من غيّر دين إبراهيم[(٣)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١]، أي: فيقتدي بكم مَن بعدكم، فيكون إثم كفره عليكم، وكذلك حكم من سنّ سنةً سيئة فاتّبعَ عليها.

وفي جامع الترمذي[(٤)] عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «**يجيء المقتول**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦).

(٤) برقم (٣٠٢٩)، والنسائي (٤٠٠٥)، وغيره، وصحّحه ابنُ حجر في «موافقة الخُبْر الخَبَر» (٢/ ٣٣٤).

بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخُب دمًا، يقول: يا رب سَلْ هذا: فيمَ قتلني»؟ فذكروا لابن عباس التوبة، فتلا هذه الآية: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء:٩٣]، ثم قال: ما نسخت هذه الآية ولا بدّلت، وأنّىٰ له التوبة! قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وفيه أيضًا[١] عن نافع قال: نظر عبد الله بن عمر يومًا إلىٰ الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم عند الله حرمةً منك، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وفي صحيح البخاري[٢] عن جُندَب قال: أول ما يُنتِن من الإنسان بطنُه، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلّا طيِّبًا فليفعل، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنّة ملءُ كفّ من دمٍ أهراقه فليفعل.

وفي صحيحه أيضًا[٣] عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«لا يزالُ المؤمنُ في فسحةٍ من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا»**.

وذكر البخاري[٤] أيضًا عن ابن عمر قال: من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسَه فيها: سفكُ الدم الحرام بغير حِلّه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة[٥] يرفعه: **«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»**.

---

(١) برقم (٢٠٣٢) وفي أوله متن مرفوع، وأخرجه ابن حبان (٥٧٦٣)، وأبو الشيخ في «التنبيه والتوبيخ» (٩٠) - ولم يذكر الموقوف- والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٢٦) وغيرهم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) برقم (٧١٥٢).

(٣) برقم (٦٨٦٢).

(٤) برقم (٦٨٦٣).

(٥) بل أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود، أما حديث أبي هريرة، فقد أخرجه ابن ماجه (٣٩٤٠).

وفيهما أيضًا[١] عنه ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**».

وفي صحيح البخاري[٢] عنه ﷺ: «**من قتل معاهَدًا لم يَرَحْ رائحة الجنّة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**».

هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان في عهده وأمانه، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن؟

وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرّةٍ حبسَتْها حتىٰ ماتت جوعًا وعطشًا، فرآها النبيُّ ﷺ في النار، والهرّةُ تخدِشها في وجهها وصدرها[٣]، فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتىٰ مات بغير جرم؟

وفي بعض السنن[٤] عنه ﷺ: «**لَزوالُ الدنيا أهونُ علىٰ الله مِن قتلِ مؤمنٍ بغير حقّ**».

فصل

ص(٣٤٥)

ولما كانت مفسدة الزنىٰ من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الإنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقّي ما يُوقع أعظمَ العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كلٍّ منهم امرأةَ صاحبه وابنتَه وأختَه وأمَّه، وفي ذلك خراب العالم = كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه، ورسوله بها في سنته، كما تقدّم.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنىٰ[٥].

---

(١) البخاري (٧٠٧٧ - ٧٠٨٠)، ومسلم (٦٥ - ٦٦).

(٢) برقم (٣١٦٦).

(٣) سبق تخريج الحديث في ص (٤٨).

(٤) أخرجه النسائي (٣٩٩٠)، وابن أبي عاصم في «الديات» (٨)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢١) وغيرهم، وقد صح موقوفًا.

(٥) تقدم في ص (١٧٩).

وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، فقرن الزنىٰ بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاءَ ذلك الخلودَ في العذاب المضاعف ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهىٰ قبحه حتىٰ استقرّ فحشه في العقول حتىٰ عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه[1]، عن عمرو ابن ميمون الأودي قال: «رأيتُ في الجاهلية قردًا زنىٰ بقردة، فاجتمع القرود عليهما، فرجموهما حتىٰ ماتا»، ثمّ أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلًا، فإنّه سبيلُ هلكةٍ وبوارٍ وافتقار في الدنيا، وسبيلُ عذابٍ وخزيٍ ونكالٍ في الآخرة.

ولَمّا كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصّه بمزيد ذمّ، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢].

وعلّق سبحانه فلاح العبد علىٰ حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلىٰ الفلاح بدونه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:١-٧].

وهذا يتضمّن ثلاثة أمور: أنّ من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنّه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحقّ اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساةُ ألم الشهوة ومعاناتُها أيسر من بعض ذلك.

---

(١) برقم (٣٨٤٩) بنحوه.

ونظير هذا أنّه سبحانه ذمّ الإنسان، وأنّه خُلِقَ هلوعًا لا يصبر علىٰ سرّاء ولا ضرّاء، بل إذا مسّه الخير منَعَ وبخِلَ، وإذا مسّه الشرُّ جزعَ، إلّا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه، فذكر منهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المعارج:٢٩-٣١].

وأمر تعالىٰ نبيّه ﷺ أن يأمر المؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يُعلِمَهم أنّه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها، ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩].

ولمّا كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمرَ بغضّه مقدمًا علىٰ حفظ الفرج، فإنّ الحوادث مبداها من النظر، كما أنّ معظم النار من مستصغَر الشرر؛ فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينَه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات، فينبغي للعبد أن يكون بوّاب نفسه علىٰ هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط علىٰ ثغورها، فمنها يدخل عليه العدوّ، فيجوس خلال الديار، ويتبّر ما عَلا تتبيرًا!

فصل

ص(٣٤٨)

وأكثر ما تدخل المعاصي علىٰ العبد من هذه الأبواب الأربعة، فنذكر في كلّ واحد منها فصلًا يليق به:

فأمّا اللحظات فهي رائدُ الشهوةِ ورسولها، وحفظها أصلُ حفظ الفرج، فمن أطلق بصره أورده موارد الهلَكات.

وقال النبيُّ ﷺ: «**لا تُتْبعِ النظرةَ النظرةَ، فإنّما لك الأولىٰ، وليست لك الآخِرة**»[1].

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (٢٢٩٧٤، ٢٢٩٩١) وغيرهم.

وفي «المسند»[(١)] عنه ﷺ: «**النظرةُ سهمٌ مسمومٌ من سِهام إبليس، فمَن غضّ بصره عن محاسن امرأةٍ لله أورثَ الله قلبَه حلاوةً إلىٰ يوم يلقاه**»، هذا معنىٰ الحديث.

وقال: «**غُضّوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم**»[(٢)].

وقال: «**إيّاكم والجلوسَ علىٰ الطرقات**»، قالوا: يا رسول الله، مجالسُنا ما لنا منها بُدٌّ، قال: «**فإن كنتم لا بُدّ فاعلين، فأعطوا الطريق حقَّه**»، قالوا: وما حقّه؟ قال: «**غضّ البصر، وكفّ الأذىٰ، وردّ السلام**»[(٣)].

والنظر أصلُ عامّة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإنّ النظرة تولّد خطرةً، ثم تولّد الخطرة فكرةً، ثم تولّد الفكرة شهوةً، ثم تولّد الشهوة إرادةً، ثم تقوىٰ فتصير عزيمةً جازمةً، فيقع الفعل، ولا بدّ، ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر علىٰ غضّ البصر أيسرُ من الصبر علىٰ ألم ما بعده.

قال الشاعر:

كلُّ الحوادث مبداها من النظرِ ... ومعظمُ النار من مستصغَر الشررِ
كم نظرةٍ بلغت من قلب صاحبها ... كمبلغ السهم بين القوس والوتَرِ
والعبد مادام ذا طَرْفٍ يقلّبه ... في أعين العِين موقوفٌ علىٰ الخطرِ
يسرّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَه ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضررِ[(٤)]

ومن آفات النظر: أنّه يورث الحسرات، والزفرات، والحرقات، فيرىٰ العبد ما

---

(١) لم أقف عليه في «المسند»، والحديث أخرجه الحاكم (٧٨٧٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٢) بإسناد فيه مقال.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٧)، وابن حبان (٢٧١)، والحاكم (٨٠٦٦) وصححه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم في اللباس والينة (٢١٢١).

(٤) الأبيات الأربعة في «روضة المحبين»، والبيتان الأخيران منها في «المدهش» (٢٩٦).

ليس قادرًا عليه، ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب أن ترىٰ ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك علىٰ بعضه.

قال الشاعر:

وكنتَ متىٰ أرسلتَ طرفَك رائدًا … لقلبك يومًا أتعبتك المناظرُ

رأيتَ الذي لا كلُّه أنت قادرٌ … عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ [١]

وهذا البيت يحتاج إلىٰ شرح: ومراده أنّك ترىٰ ما لا تصبر عن شيء منه، ولا تقدر علىٰ شيء منه، فإنّ قوله: «لا كلّه أنت قادر عليه» نفيٌ لقدرته علىٰ الكلّ، التي لا تنتفي إلّا بنفي القدرة عن كلّ واحد.

وكم ممن أرسل لحظاته، فما أقلعت إلّا وهو يتشحّط بينهنّ قتيلًا، كما قيل:

يا ناظرًا ما أقلعتْ لحظاتُه … حتّىٰ تشحّط بينهن قتيلُ [٢]

ولي من أبيات:

ملّ السلامةَ فاغتدت لحظاتُه … وقفًا علىٰ طلل يُظَنّ جميلا

ما زال يتبع إثرَه لحظاتِه … حتىٰ تشحّط بينهنّ قتيلا

ومن العجب أنّ لحظة الناظر سهمٌ لا يصل إلىٰ المنظور إليه حتىٰ يتبوّأ مكانًا من قلب الناظر.

ولي من قصيدة:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا … أنتَ القتيلُ بما تَرمي فلا تُصِبِ

وباعثَ الطرْفِ يرتاد الشفاءَ له … احبِس رسولك لا يأتيك بالعطب

---

(١) البيتان في «حماسة أبي تمام» دون عزو، انظر: «شرح المرزوقي» (١٢٣٨).

(٢) البيت من مقطوعة مضمومة الروي لأبي نواس في ديوانه (٢٥٥).

وأعجب من ذلك أنّ النظرة تجرح القلبَ، فيتبعُها جرحًا علىٰ جرح، ثمّ لا يمنعه ألمُ الجراحة من استدعاء تكرارها.

وَلي أيضًا في هذا المعنىٰ:

مـا زلـتَ تُتبـعُ نظـرة في نظـرةٍ ... في إثـر كلِّ مليحـةٍ ومليـحِ

وتظن ذاك دواءَ جرحك وَهْوفي التـ ... ـحقيق تجريـحٌ علـىٰ تجريـحِ

فذبحتَ طرفَك باللِّحاظِ وبالبكا ... فالقلـبُ منـك ذبيـحٌ ايُّ ذبيـحِ

وقد قيل: حبسُ اللحَظاتِ أيسرُ من دوام الحسَرات[1].

فصـــل

ص(٣٥٣)

وأمّا الخطرات فشأنها أصعب، فإنّها مبدأ الخير والشرّ، ومنها تتولّد الإرادات والهمم والعزائم، فمَن راعىٰ خطراتِه ملَكَ زمامَ نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراتُه فهواه ونفسه له أغلَب، ومَن استهان بالخطرات قادته قسرًا إلىٰ الهلكات.

ولا تزال الخطرات تتردّد علىٰ القلب حتىٰ تصير مُنًىٰ باطلة ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩].

وأخسُّ الناس همّةً، وأوضعهم نفسًا مَن رَضِي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتحلّىٰ بها، وهي -لعمر الله- رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطّالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزَورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، كما قال الشاعر:

مُنًىٰ إنْ تكن حقًّا تكن أحسن الْمُنَىٰ ... وإلّا فقد عِشْنا بها زمنًا رَغْدَا[2]

---

(١) وسيأتي الكلام علىٰ فوائد غضّ البصر في ص (٢٥٢).

(٢) لرجل من بني الحارث، انظر: «شرح الحماسة» للمرزوقي (١٤١٣).

وهي أضرُّ شيء علىٰ الإنسان، وتتولّد من العجز والكسل، وتولّد التفريط والحسرة والندم، والمتمنّي لَمّا فاته مباشرةُ الحقيقة بحسّه نحَتَ صورتَها في قلبه، وعانقها، وضمّها إليه، فقنع بوصال صورةٍ وهميّةٍ خياليّة صوّرها فكرُه، وذلك لا يُجدي عليه شيئًا، وإنّما مثله مثل الجائع والظمآن يصوّر في وهمه صورةَ الطعام والشراب، وهو يأكل ويشرب.

والسكون إلىٰ ذلك واستحلاؤه يدلّ علىٰ خساسة النفس ووضاعتها، وإنّما شرف النفس وزكاتها وطهارتها وعلوّها بأن ينفي عنها كلَّ خطرة لا حقيقة لها، ولا يرضىٰ أن يخطرها بباله، ويأنف لنفسه منها.

ثمّ الخطراتُ بعدُ أقسامٌ تدور علىٰ أربعة أصول:

خطراتٌ يستجلِب بها منافعَ دنياه.

وخطراتٌ يستدفع بها مضارَّ دنياه.

وخطراتٌ يستجلب بها مصالح آخرته.

وخطراتٌ يستدفع بها مضارّ آخرته.

فَلْيحصر خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها، فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لِتزاحُمِ متعلّقاتها قدّم الأهمَّ الذي يخشىٰ فوته، وأخّر الذي ليس بأهمَّ ولا يخاف فوته.

بقي قسمان آخران: أحدهما مهمّ لا يفوت، والثاني غير مهمّ، ولكنه يفوت.

ففي كلٍّ منهما ما يدعو إلىٰ تقديمه، فهنا يقع التردّد والحيرة، فإنْ قدّم المهمَّ خشي فواتَ ما دونه، وإن قدّم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم.

وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلّا بتفويت الآخر، فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة.

ومن هاهنا ارتفع من ارتفع، وأنجح من أنجح، وخاب من خاب، فأكثرُ من ترىٰ ممن يعظِّم عقله ومعرفتَه يُؤثِر غيرَ المهمِّ الذي لا يفوت علىٰ المهمِّ الذي يفوت، ولا تجد أحدًا يسلَم من ذلك، ولكن مستقِلّ ومستكثِر.

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرىٰ التي عليها مدار الشرع والقدر، وإليها مرجع الخلق والأمر، وهي إيثارُ أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها، والدخولُ في أدنىٰ المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها، فيفوّت مصلحةً لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدةً لدفع ما هو أعظم منها، فخطرات العاقل وفكَره لا تتجاوز ذلك، وبذلك جاءت الشرائع، ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلّا علىٰ ذلك.

وأعلىٰ الفِكَر وأجلّها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة، **فما كان لله أنواع**:

أحدها: الفكرة في آياته المنزلة، وتعقّلها وفهم مراده منها.

ولذلك أنزلها الله تعالىٰ، لا لمجرّد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة.

قال بعض السلف: أُنزِل القرآنُ لِيُعمَل به، فاتخذوا تلاوته عملًا (١).

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة، والاعتبار بها، والاستدلال بها علىٰ أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبرّه وجوده، وقد حضّ الله سبحانه عباده علىٰ التفكر في آياته وتدبّرها وتعقّلها، وذمّ الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه، وإحسانه، وإنعامه علىٰ خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفةَ الله، ومحبّتَه، وخوفه، ورجاءَه، ودوامُ الفكرة في ذلك مع الذِّكر يصبغ القلبَ في المعرفة والمحبة صبغة.

(١) من كلام الحسن البصري، انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٥١)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٥٥)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ٢٢٣)، وفيه (٢/ ٨٨) من كلام ابن مسعود.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها وفي عيوب العمل.

وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهي بابٌ لكلّ خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمّارة، ومتىٰ كُسِرَتْ عاشت النفس المطمئنّة، وانتعشت، وصار الحكم لها، فحيِيَ القلب ودارت كلمته في مملكته، وبثّ أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهمّ كلّه عليه؛ فالعارف ابن وقته [1]، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلُّها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيّعه لم يستدركه أبدًا.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: صحبتُ الصوفية، فلم أستفد منهم سوىٰ حرفين: **أحدهما قولهم**: الوقت سيف، فإنْ قطعته وإلّا قطعك، وذكر الكلمة الأخرىٰ.

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادّة حياته الأبديّة في النعيم المقيم، ومادّة معيشته الضّنْك في العذاب الأليم، وهو يمرّ أسرع مِن مرّ السحاب، فما كان من وقته لله وبالله، فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته، وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته، وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر، فإمّا وساوس شيطانية، وإمّا أماني باطلة وخدع كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارىٰ والممسوسين والموسوسين.

ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق:

إن كان منزلتي في الحشر عندكمُ ... ما قد لقيتُ فقد ضيّعتُ أيامي

---

(١) انظر في قولهم «العارف ابن وقته» وتفسيره: «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٣).

أمنيّـةٌ ظفـرتْ نفسـي بهـا زمنًـا ... واليوم أحسَبها أضغاثَ أحلامِ[1]

واعلم أنّ ورود الخاطر لا يضرّ، وإنّما يضرّ استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر كالمارّ علىٰ الطريق، فإنْ لم تستدعِه وتركتَه مرّ وانصرف عنك، وإن استدعيتَه سَحَرك بحديثه وخَدْعه وغروره، وهو أخفّ شيء علىٰ النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء علىٰ القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

وقد ركّب الله سبحانه في الإنسان نفسًا أمّارةً ونفسًا مطمئنّة، وهما متعاديتان، فكلُّ ما خفّ علىٰ هذه ثَقُل علىٰ هذه، وكلّ ما التذّت به هذه تألّمت به الأخرىٰ، فليس علىٰ النفس الأمّارة أشقُّ من العملِ لله، وإيثارِ رضاه علىٰ هواها؛ وليس لها أنفعُ منه، وليس علىٰ النفس المطمئنّة أشقُّ من العمل لغير الله، وإجابةِ داعي الهوىٰ؛ وليس عليها أضرُّ منه، والملَك مع هذه عن يَمنةِ القلب، والشيطان مع تلك عن يَسْرةِ القلب، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلىٰ أن تستوفي أجلَها من الدنيا، والباطل كلّه يتحيّز مع الشيطان والأمّارة، والحقّ كلّه يتحيّز مع الملَك والمطمئنّة، والحروب دُوَل وسِجال، والنصر مع الصبر، ومن صَبَر وصابرَ ورابَطَ واتّقىٰ الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة.

وقد حكم الله حكمًا لا يبدّل أبدًا أنّ العاقبة للتقوىٰ، والعاقبة للمتقين.

فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تُنْقَش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوشُ لوحه ما بين كذب، وغرور، وخدع، وأماني باطلة، وسراب لا حقيقة له؟ فأيّ حكمة وعلم وهدًىٰ ينتقش مع هذه النقوش؟ وإذا أراد أن ينتقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محلٍّ مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه، فإنْ لم يُفرِّغ القلبَ من الخواطر الرديّة لم يستقرّ فيه الخواطر النافعة، فإنّها لا تستقرّ إلّا في

(١) البيتان لابن الفارض في ديوانه (٢٠٧).

محل فارغ، كما قيل:

أتاني هواها قبلَ أن أعْرفَ الهَوىٰ ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا(١)

ولهذا كثير من أرباب السلوك بنَوا سلوكهم علىٰ حفظ الخواطر، وأن لا يمكّنوا خاطرًا يدخل قلوبهم، حتّىٰ تصير القلوب فارغةً قابلةً للكشف وظهور حقائق العُلويّات فيها.

وهؤلاء حفظوا شيئًا، وغابت عنهم أشياء، فإنّهم أخلَوا القلوبَ من أن يطرقها خاطر، فبقيت فارغةً لا شيء فيها، فصادفها الشيطانُ خاليةً، فبذر فيها الباطلَ في قوالب أوهمهم أنّها أعلىٰ الأشياء وأشرفُها، وعوّضهم بها عن الخواطر التي هي مادّة العلم والهدىٰ، وإذا خلا القلبُ عن هذه الخواطر جاء الشيطانُ فوجد المحلَّ خاليًا، فشغله بما يناسب حالَ صاحبه، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفليّة، فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلّا بأن تكون هي المستولية علىٰ قلبه، وهي: إرادةُ مراد الله الديني الأمري الذي يحبّه ويرضاه، وشَغلُ القلب واهتمامه بمعرفته علىٰ التفصيل به، والقيام به وتنفيذه في الخلق، والطُرُق إلىٰ ذلك، والتوصّل إليه بالدخول في الخلق لتنفيذه؛ فبَرْطَلَهم(٢) الشيطانُ عن ذلك بأنْ دعاهم إلىٰ تركه وتعطيله، من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها، وأوهمهم أنّ كمالهم في ذلك التجريد والفراغ، وهيهات!

إنّما الكمال في امتلاء القلب والسرّ من الخواطر والإرادات والفِكَر في تحصيل مراضي الربّ تعالىٰ من العبد ومن الناس، والفكر في طرُق ذلك والتوصّل إليه.

(١) بيت سائر نسبَهُ المؤلفُ في «روضة المحبين» (٢٤٠) إلىٰ قيس بن الملوح، وهو مجنون ليلىٰ، وينسب إلىٰ غيره. انظر: «ديوان المجنون» (٢١٩).

(٢) من برطله: رشاه.

فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفِكَرًا وإرادات لذلك، كما أنّ أنقصَ الناس أكثرُهم خواطر وفِكَرًا وإراداتٍ لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان.

وهذا عمر بن الخطاب كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الربّ تعالىٰ، فربّما استعملها في صلاته، فكان يجهِّز جيشَه وهو في صلاته[1]، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة.

وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة، وهو باب عزيز شريف لا يعرفه إلّا صادق الطلب، متضلّع من العلم، عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتىٰ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فصــل

ص(٣٦٣)

وأمّا اللفظات، فحفظها بأن لا يُخرِجَ لفظةً ضائعةً، بل لا يتكلّم إلّا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلّم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؛ فإنْ لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل يفوته بها كلمة هي أربح منها، فلا يضيّعها بهذه.

وإذا أردت أن تستدلّ علىٰ ما في القلب، فاستدِلَّ عليه بحركة اللسان، فإنّه يُطلِعُ ما في القلب، شاء صاحبه أم أبىٰ.

قال يحيي بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر الرجل حين يتكلّم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه: حلو وحامض، وعذب

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب العمل في الصلاة، باب تفكر الرجل الشيء في الصلاة (ص٢٣٩)، ووصله ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٩٥١)، وصحَّح إسنادَه الحافظُ ابن حجر في «فتح الباري» (س/ ٩٠).

وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعمَ قلبه اغترافُ لسانه[١].

أي كما تطعم بلسانك طعمَ ما في القدر من الطعام، فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك.

وفي حديث أنس المرفوع: «**لا يستقيم إيمان عبد حتىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتىٰ يستقيم لسانه**»[٢].

وسئل ﷺ عن أكثر ما يُدخِلُ الناسَ النارَ، فقال: «**الفم والفرج**»، قال الترمذي: حديث صحيح[٣].

وقد سأل معاذٌ النبيَّ ﷺ عن العمل الذي يُدخله الجنّة ويباعده من النار، فأخبره برأسه، وعموده، وذروة سنامه؛ ثمّ قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك**»؟ قال: بلىٰ يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «**كُفَّ عليك هذا**»، فقال: وإنّا لمؤاخَذون بما نتكلّم به؟ فقال: «**ثكلتك أمّك يا معاذ! وهل يَكُبّ الناسَ في النار علىٰ وجوههم -أو علىٰ مناخرهم- إلّا حصائدُ ألسنتهم**»؟[٤] قال الترمذي: حديث صحيح.

ومن العجب أنّ الإنسان يهون عليه التحفّظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرّم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتىٰ ترىٰ الرجلَ يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلّم

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٨٧)، وغيرهم، وقد صحَّ موقوفًا علىٰ ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤)، وابن حبان (٤٧٦)، والحاكم (٧٩١٩) وغيرهم.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦) وغيرهم.

بالكلمات من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يزِلّ بالكلمة الواحدة منها أبعد ممّا بين المشرق والمغرب! وكم ترىٰ من رجل متورعٍ عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول!

وإذا أردتَ أن تعرفَ ذلك، فانظر إلىٰ ما رواه مسلم في «صحيحه»(١) من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله ﷻ: مَن ذا الذي يتألّىٰ عليّ أنّي لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملَك**»، فهذا العابد(٢) الذي قد عَبَدَ اللهَ ما شاء أن يعبده، أحبطت هذه الكلمةُ الواحدة عملَه كلّه!

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثمّ قال أبو هريرة: «تكلّم بكلمةٍ أوبقَتْ دنياه وآخرته»(٣).

وفي الصحيحين(٤) من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «**إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم**».

وعند مسلم(٥): «**إنّ العبد لَيتكلّم بالكلمة، ما يتبيّن ما فيها، يهوي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب**».

وعند الترمذي(٦) من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي ﷺ: «**إنّ أحدكم ليَتكلّم بالكلمة من رضوان الله، ما يظنّ أن تبلغ ما بلغتْ، فيكتب الله له بها**

---

(١) برقم (٢٦٢١).

(٢) ذكر العابد في حديث أبي هريرة الآتي، لا في حديث جندب السابق.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٨٢٩٢، ٨٧٤٩)، وابن حبان (٥٧١٢) وغيرهم.

(٤) البخاري (٦٤٧٨) من طريق أبي صالح عن أبي هريرة، ولم يخرِّجه مسلم من هذا الطريق.

(٥) برقم (٢٩٨٨)، وأيضًا عند البخاري (٦٤٧٧).

(٦) برقم (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وأحمد (١٥٨٥٢)، وابن حبان (٨٠، ٢٨١، ٢٨٧)، والحاكم (١٣٦-١٤٠) وغيرهم، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

رضوانه إلىٰ يوم يلقاه، وإنّ أحدكم لَيتكلّم بالكلمة من سخط الله، ما يظنّ أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها سخطه إلىٰ يوم يلقاه».

فكان علقمةُ يقول: كم من كلام قد منعنيه حديثُ بلال بن الحارث[(١)]!

وفي جامع الترمذي أيضًا[(٢)] من حديث أنس قال: توفّي رجلٌ من الصحابة، فقال رجل: أبشِرْ بالجنة، فقال له رسول الله ﷺ: **«أوَ لا تدري فلعلّه تكلّم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه»**، قال: حديث حسن.

وفي لفظٍ: أنّ غلامًا استشهد يوم أحد، فوُجد علىٰ بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمّه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئًا لك يا بنيّ، لك الجنّة، فقال النبي ﷺ: **«وما يدريك، لعلّه كان يتكلّم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضرّه»**.

وفي الصحيحين[(٣)] من حديث أبي هريرة يرفعه: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيقل خيرًا أو لِيَصْمُتْ»**.

وفي لفظٍ لمسلم[(٤)]: **«من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فإذا شهدَ أمرًا فليتكلّمْ بخَير أو لِيسكُتْ»**.

وذكر الترمذي[(٥)] بإسنادٍ صحيح عنه ﷺ: **«مِن حُسن إسلام المرءِ تركُه ما لا يعنيه»**.

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلتُ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام

(١) قول علقمة هذا لم يرد في جامع الترمذي.

(٢) برقم (٢٣١٦)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٠٩)، وأبو يعلىٰ (٤٠١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٥٦) وغيرهم، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٣) البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٤) برقم (١٤٦٨).

(٥) برقم (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦) وابن حبان (٢٢٩) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٩٢)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٩/ ١٩٨، ١٩٩) عن أبي هريرة مرفوعًا، وله شاهد مرسل.

قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «**قل: آمنتُ بالله، ثمّ استقِمْ**»، قلت: يا رسول الله ما أخوَفُ ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا». والحديث صحيح[(١)].

وعن أم حبيبة زوج النبيِّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن المنكر، أو ذكرُ الله**»[(٢)]، قال الترمذي: حديث حسن.

وفي حديث آخر: «**إذا أصبح العبد فإنّ الأعضاء كلّها تكفِّر اللسانَ، تقول: اتّقِ الله فينا، وإنّما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا**»[(٣)].

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسَه في قوله: يوم حارّ، ويوم بارد.

ولقد رُئي بعضُ الأكابر من أهل العلم[(٤)] في النوم، فسئل عن حاله، فقال: أنا موقوف علىٰ كلمة قلتُها، قلتُ: ما أحوج الناسَ إلىٰ غيث! فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي.

وقال بعض الصحابة لخادمه يومًا: هاتِ السفرة نعبَثْ بها، ثم قال: أستغفر الله، ما أتكلّم بكلمة إلّا وأنا أخطِمُها وأزُمُّها، إلّا هذه الكلمة خرجت منّي بغير خطام ولا زمام[(٥)]، أو كما قال.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨) إلىٰ قوله: «ثم استقم».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٤)، والبخاري في «تاريخه» (١/ ٢٦١ - ٢٦٢)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (١٢٣) وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٤)، والنسائي في «أماليه» (١٥) والحاكم (٣٨٩٢) وغيرهم، وقال ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (١٦٠): حسن غريب.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧)، وأبو يعلىٰ (٢/ رقم ١١٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ٤٠) وغيرهم من طرق عن أبي سعيد الخدري، فذكره مرفوعًا، وفي إسناده مقال.

(٤) هو الجنيد، كما في «التدوين في أخبار قزوين» (١/ ٢٦٤).

(٥) أخرجه أحمد (١٧١١٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٨٤٣) وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٣٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧٧ - ٧٨) وغيرهم، لكنه منقطع.

وأيسرُ حركات الجوارح حركةُ اللسان، وهي أضرُّها علىٰ العبد.

واختلف السلف والخلف هل يُكتَبُ جميع ما يلفظ به العبد، أو الخير والشرّ فقط؟ علىٰ قولين، أظهرهما الأول (١).

وقال بعض السلف: كلّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلّا ما كان من ذكر الله وما والاه.

وكان الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد (٢).

والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرتَ أسيره، واللهُ عند لسان كلّ قائل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرىٰ: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كلّ منهما أعظم إثمًا من الأخرىٰ في وقتها، فالساكت عن الحقّ شيطان أخرس، عاصٍ لله، مُراءٍ، مداهنٌ، إذا لم يخف علىٰ نفسه، والمتكلّم بالباطل شيطان ناطق، عاصٍ لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين.

وأهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعُه في الآخرة، فلا يرىٰ أحدهم أنّه يتكلّم بكلمة تذهب عليه ضائعةً بلا منفعة، فضلًا عن أن تضرّه في آخرته.

وإنّ العبد ليأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثالِ الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلّها؛ ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتّصل به.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٤٩)، و«مدارج السالكين» (١/ ١١٤).

(٢) تقدّم تخريجه ص (٥٦).

فصـــل

ص(٣٧٥)

وأمّا الخطوات، فحفظها بأن لا يثقل قدمه إلّا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خُطاه مزيدُ ثواب، فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كلّ مباح يخطو إليه قربةً ينويها لله، فتقع خطاه قربةً.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان؛ جاءت إحداهما قرينة الأخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

فصـــل

ص(٣٧٦)

وهذا كلّه ذكرناه مقدّمةً بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**أكثرُ ما يُدخِل الناسَ النارَ: الفمُ والفرجُ**»[(١)].

وفي الصحيحين عنه ﷺ: «**لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلّا بإحدىٰ ثلاث: الثيّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[(٢)].

وهذا الحديث في اقتران الزنىٰ بالكفر وقتلِ النفس نظيرُ الآية التي في الفرقان[(٣)]، ونظيرُ حديث ابن مسعود[(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه (٢٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٣) وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

(٤) وقد سبق مع الآية المذكورة في ص (١٦٠).

وبدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، ثمّ بالذي يليه، فالزنىٰ أكثر وقوعًا من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعًا من الردّة، وأيضًا فإنّه انتقال من الأكبر إلىٰ ما هو أكبر منه.

ومفسدة الزنا مناقِضة لصلاح العالم، فإنّ المرأة إذا زنت أدخلت العار علىٰ أهلها وزوجها وأقاربها، ونكّستْ رؤوسهم بين الناس، وإن حملتْ من الزنىٰ، فإنْ قتلتْ ولدها جمعت بين الزنىٰ والقتل، وإن حمّلته الزوجَ أدخلَتْ علىٰ أهله وأهلها أجنبيًّا ليس منهم فورِثَهم وليس منهم، ورآهم، وخلا بهم، وانتسب إليهم، وليس منهم؛ إلىٰ غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنىٰ الرجل فإنّه يوجب اختلاط الإنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضَها للتلف والفساد.

وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمرت القبور في البرزخ، والنار في الآخرة، فكم في الزنىٰ من استحلال محرّمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سوادَ الوجه وثوبَ المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا: أنّه يشتّت القلب، ويُمرِضه إن لم يُمِتْه، ويجلب الهمّ والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملَك، ويقرّب منه الشيطان.

فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شُرِع فيه القتل علىٰ أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبدَ أنّ امرأته أو حرمته قُتِلتْ كان أسهل عليه من أن يبلغه أنّها زنت.

وقال سعد بن عبادة: لو رأيتُ رجلًا مع امرأتي لضربتُه بالسيف غيرَ مُصْفَح[1]، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «**تعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغيرُ منه، والله**

(١) من أصفحه بالسيف، إذا ضربه بعُرْضه دون حدّه..

أغيَرُ منّي، ومن أجْلِ غيرة الله حرّم الفواحشَ ماظهر منها وما بطن»، متفق عليه(١).

وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ: «**إنّ الله يغار، وإنّ المؤمن يغار، وغيرةُ الله أن يأتي العبدُ ما حرَّم عليه**»(٢).

وفي الصحيحين عنه ﷺ: «**لا أحدَ أغيَرُ من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسلَ مبشّرين ومنذرين، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من الله، من أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه**»(٣).

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنّه قال: «**يا أمّة محمَّد، والله إنّه لا أحدَ أغيرُ من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمَّد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»، ثمّ رفع يديه، وقال: «**اللهم هل بلّغت**»(٤)؟

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيبَ صلاة الكسوف سرّ بديع لمن تأمّله.

وظهورُ الزنىٰ من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنّه قال: لأحدّثنّكم حديثًا لا يحدّثكموه أحدٌ بعدي سمعتُه من النبيِّ ﷺ، سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**من أشراط الساعة أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهل، ويُشرَب الخمرُ، ويَظهر الزنا، ويقلّ الرجال، وتكثر النساء حتىٰ يكون لخمسين امرأةً القيّم الواحد**»(٥).

وقد جرت سنّة الله سبحانه في خلقه أنّه عند ظهور الزنىٰ يغضب الله سبحانه، ويشتدّ غضبه، فلا بدّ أن يؤثّر غضبه في الأرض عقوبة.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٩٨).

(٢) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

(٣) تقدم تخريجه ص (٩٨).

(٤) تقدم تخريجه (٩٩).

(٥) البخاري (٨٠ - ٨١)، ومسلم (٢٦٧١).

قال عبد الله بن مسعود: ما ظهر الربا والزنا في قرية إلّا أذِن الله بإهلاكها[١].

ورأىٰ بعضُ أحبار بني إسرائيل ابنًا له يغامز امرأةً، فقال: مهلًا يا بنيّ، فصُرِع الأب عن سريره، فانقطع نُخاعه، وأسقطت امرأته.

وقيل له: هكذا غضبتَ لي؟ لا يكون في جنسك حَبْر أبدًا[٢].

وخصّ سبحانه حدَّ الزنىٰ من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه أشنعَ القتلات، وحيث خفّفه فجمع فيه بين العقوبة علىٰ البدن بالجلد، وعلىٰ القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهىٰ عباده أن تأخذهم بالزناة رأفةٌ في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحدّ عليهم، فإنّه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم منكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنَعْكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا وإن كان عامًّا في سائر الحدود، ولكن ذُكِرَ في حدّ الزنىٰ خاصّةً، لشدّة الحاجة إلىٰ ذكره، فإنّ الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة علىٰ الزاني ما يجدونه علىٰ السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنُهُوا أن تأخذهم هذه الرأفة، وتحملهم علىٰ تعطيل حدّ الله.

وسبب هذه الرحمة أنّ هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأرذال، وفي النفوس أقوىٰ الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة علىٰ رحمة العاشق، وكثير من الناس يعدّ مساعدته طاعةً وقربةً،

(١) تقدم تخريج الأثر في ص (٦٥).

(٢) تقدم تخريجه في (٧٤).

وإن كانت الصورة المعشوقة محرّمة عليه. ولا يُستنكَر هذا الأمر، فهو مستقِرّ عند ما شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حُكِيَ لنا من ذلك شيءٌ كثير، أكثرُه عن ناقصي العقول كالخدّام والنساء.

وأيضًا فإنّ هذا ذنبٌ غالبُ ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما ينفّر النفوس منه، وفيها شهوة غالبة له، فتُصوِّر ذلك لنفسها، فيقوم بها رحمةٌ تمنع إقامة الحدّ.

وهذا كلّه من ضعف الإيمان، وكمالُ الإيمان أن يقوم به قوة يقيم بها أمرَ الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقًا لربّه تعالىٰ في أمره ورحمته.

الثالث: أنّه سبحانه أمر أن يكون حدّهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون خلوةً حيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحدّ وحكمة الزجر.

وحدّ الزاني المحصن مشتقّ من عقوبة الله سبحانه لقوم لوط بالقذف بالحجارة؛ وذلك لاشتراك الزنىٰ واللواط في الفحش، وفي كلّ منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره، فإنّ في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأَنْ يُقتل المفعولُ به خير له من أن يُؤتىٰ، فإنّه يَفسد فسادًا لا يرجىٰ له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيره كلّه، وتمُصّ الأرض ماويّة الحياء من وجهه، فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السمّ في البدن[1].

وقد اختلف الناس: هل يدخل الجنّةَ مفعول به؟ علىٰ قولين سمعتُ شيخ الإسلام يحكيهما، والذين قالوا: لا يدخل الجنّة، احتجّوا بأمور:

منها: أنّ النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنّة ولد زنية**»[2]، فإذا كان هذا حال ولد

(١) الطرق الحكمية (١٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦٨٩٢)، وابن حبان (٣٣٨٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤٩١٦)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٩١٤) بإسناد فيه من لا يعرف.

الزنىٰ، مع أنه لا ذنب له في ذلك، ولكنّه مظنّة كل شرّ وخبث، وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبدًا؛ لأنّه مخلوق من نطفةٍ خبيثةٍ، وإذا كان الجسد الذي تربّىٰ علىٰ الحرام النارُ أولىٰ به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام؟

قالوا: والمفعولُ به شرٌّ من ولد الزنىٰ، وأخزىٰ، وأخبث، وأوقح، وهو جدير أن لا يوفَّق لخير، وأن يحال بينه وبينه، وكلّما عمل خيرًا قُيِّض ما يفسده عقوبةً له، وقلّ أن ترىٰ من كان كذلك في صغره إلّا وهو في كبره شرّ مما كان، ولا يوفّق لعلم نافع، ولا عمل صالح، ولا توبة نصوح.

والتحقيق في المسألة أن يقال: إنْ تاب المبتلىٰ بهذا البلاء، وأناب، ورُزق توبةً نصوحًا وعملًا صالحًا، وكان في كبره خيرًا منه في صغره، وبدّل سيئآته بحسناتٍ، وغسل عارَ ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغضّ بصره، وحفظ فرجه من المحرمات، وصدَق الله في معاملته = فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنّة، فإنّ الله يغفر الذنوب جميعًا، وإذا كانت التوبة تمحو كلّ ذنب حتىٰ الشرك بالله، وقتل أنبيائه وأوليائه، والسحر، والكفر، وغير ذلك، فلا تقصُر عن محو هذا الذنب [1].

وقد استقرّت حكمة الله به عدلًا وفضلًا أنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنىٰ أنّه يبدّل سيئاتِه حسنات، وهذا حكم عامّ لكلّ تائب من كلّ ذنب، وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد؛ ولكن هذا في حقّ التائبين خاصة.

وأمّا مفعول به كان في كبره شرًّا مما كان في صغره، لم يوفَّق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح، ولا استدرك ما فات، ولا أحيا ما أمات، ولا بدّل السيئات

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ٤٠٨).

بالحسنات = فهذا بعيد أن يوفَّق عند الممات لخاتمةٍ يدخل بها الجنّة عقوبة له علىٰ عمله، فإنّ الله سبحانه يعاقب علىٰ السيئة بسيئة أخرىٰ، فتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب علىٰ الحسنة بحسنة أخرىٰ.

وإذا نظرت إلىٰ كثير من المحتضَرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة؛ عقوبةً لهم علىٰ أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمَّد عبد الحقّ بن عبد الرحمن الإشبيلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «واعلم أنّ لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسبابًا، ولها طرقٌ وأبوابٌ، أعظمُها: الإكباب علىٰ الدنيا، والإعراض عن الأخرىٰ، والإقدام والجرأة علىٰ معاصي الله عَزَّ وَجَلَّ، وربما غلب علىٰ الإنسان ضربٌ من الخطيئة، ونوعٌ من المعصية، وجانبٌ من الإعراض، ونصيبٌ من الجرأة والإقدام، فملَكَ قلبَه، وسبق عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت علىٰ ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبيّن له المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرّر عليه الداعي وأعاد».

قال: ويروىٰ أنّ بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول: قل: لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي! فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك، ثمّ أصابته غشية، فلمّا أفاق قال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلمّا قيل له قل: لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي، ثمّ قال لابنه: يا فلان، الناصر إنّما يعرفك بسيفك، والقتل، القتل، ثمّ مات.

قال عبد الحق: وقيل لآخر ممّن أعرفه: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا.

---

(١) في كتاب العاقبة (١٧٨ - ١٨٠).

وقال: وفيما أذن لي أبو طاهر السِّلَفي أنْ أحدّث به عنه أنّ رجلًا نزل به الموت، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: دَهْ، يازدَه، تفسيره: عشرة بإحدىٰ عشرة.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلىٰ حمّام مِنجاب[1]؟

قال: وهذا الكلام له قصة: وذلك أنّ رجلًا كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابُها يُشبه بابَ هذا الحمّام، فمرّت به جاريةٌ لها منظر، فقالت: أين الطريق إلىٰ حمام مِنجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار، ودخل وراءها، فلمّا رأت نفسَها في داره، وعلمت أنّه قد خدعها، أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقرَّ به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيكِ بكلّ ما تريدين وتشتهين، وخرج، وتركها في الدار، ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح، ورجع، فوجدها قد خرجت، وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل، وأكثر الذكرَ لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقّة ويقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا وقد تعبت ... كيف الطريق إلىٰ حمّام مِنجاب

فبينا هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجاريةٍ أجابته من طاق:

قَرْنانُ[2] هلّا جعلتَ إذ ظفرتَ بها ... حِرزًا علىٰ الدار أو قفلًا علىٰ الباب

فازداد هيمانه، واشتدّ هيجانه، ولم يزل علىٰ ذلك حتىٰ كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا».

قال: ويروىٰ أن رجلًا[3] علِق شخصًا، فاشتدّ كَلفُه به، وتمكّن حبّه من قلبه،

(١) انظر ما سبق في ص (١٣٥).

(٢) القَرنان: الديوث.

(٣) هذا الرجل أحمد بن كليب النحوي الشاعر، صاحب أبي الحسن، أسلم بن أحمد بن سعيد ابن قاضي الجماعة، والقصة أوردها الحميدي في «جذوة المقتبس» (١٤٣) من رواية ابن حزم، وانظر: «مصارع العشاق» (١/ ٢٩٧)، و«معجم الأدباء» (١/ ٤٢٢).

حتَّىٰ وقع لما به، ولزم الفراش بسببه، وتمنّع ذلك الشخص عليه، واشتدّ نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما، حتّىٰ وعده أن يعوده، فأُخبِرَ بذلك البائسُ، ففرح، واشتدّ سروره، وانجلىٰ غمّه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضربه له، فبينا هو كذلك، إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنّه وصل معي إلىٰ بعض الطريق، ورجع، فرغبت إليه، وكلّمته، فقال: إنّه ذكرني، وبرّح بي، ولا أدخل مداخل الريب، ولا أعرّض نفسي لمواقِعِ التهم، فعاودتُه، فأبىٰ، وانصرف، فلمّا سمع البائسُ أُسْقِط في يده، وعاد إلىٰ أشدّ ممّا كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

أسلَمُ، يا راحةَ العليلِ ... ويا شِفا المدنِف النحيلِ

رضاك أشهىٰ إلىٰ فؤادي ... من رحمة الخالق الجليلِ

فقلت له: يا فلان، اتّق الله، قال: قد كان، فقمتُ عنه، فما جاوزتُ باب داره، حتىٰ سمعتُ ضجّةَ الموت.

فعياذًا بالله من سوء العاقبة، وشؤم الخاتمة[1].

ولقد بكىٰ سفيان الثوري ليلةً إلىٰ الصباح، فلما أصبح قيل له: كلُّ هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تِبْنةً من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنّما أبكي من خوف الخاتمة[2].

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة بالحسنىٰ.

وقد ذكر الإمام أحمد[3] عن أبي الدرداء أنّه لما احتُضِر جعل يُغمىٰ عليه، ثمّ

(١) «العاقبة» (١٨٠).

(٢) «العاقبة» (١٧٥).

(٣) في «الزهد»، وليس في المطبوعة، ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٧) والبيهقي في «الشعب» (١٠١٨٤) وغيرهما، بإسناد صحيح.

يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمِن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة بالحسنىٰ.

قال[١]: واعلم أنّ سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به، ولله الحمد.

وإنّما تكون لمن له فساد في العقيدة، أو إصرار علىٰ الكبائر، وإقدام علىٰ العظائم، فربّما غلب ذلك عليه، حتىٰ ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوِيّة، ويُصطلَم[٢] قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

قال: ويروىٰ أنّه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يومًا المنارةَ علىٰ عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطّلع فيها، فرأىٰ ابنة صاحب الدار، فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدكِ، قالت: لماذا؟ قال: قد سَبَيتِ لُبِّي، وأخذتِ بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلىٰ ريبة أبدًا، قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم، وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال لها: أتنصّر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلمّا كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلىٰ سطح كان في الدار، فسقط منه، فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه[٣].

(١) يعني عبد الحق الإشبيلي. انظر: «كتاب العاقبة» (١٨١).

(٢) من اصطلمه الموت أو العدوّ: استأصله.

(٣) «العاقبة» (١٨١).

ص(٣٩٢)

فصــل

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات.

وقد اختلف الناس: هل هو أغلظ عقوبةً من الزنىٰ، أو الزنىٰ أغلظ عقوبةً منه، أو عقوبتهما سواء؟ علىٰ ثلاثة أقوال[1]:

فذهب أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن عباس، وجابر بن زيد، و عبيد الله بن عبد الله بن معمر، والزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ومالك، وإسحاق بن راهويه، والإمام أحمد في أصحّ الروايتين عنه[2]، والشافعي في أحد قوليه = إلىٰ أنّ عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا، وعقوبته القتل علىٰ كلّ حال، محصنًا كان أو غير محصن.

وذهب عطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وسعيد بن المسيّب[3]، وإبراهيم النخعي[4]، وقتادة، والأوزاعي، والشافعي في ظاهر مذهبه، والإمام أحمد في الرواية الثانية عنه، وأبو يوسف ومحمد = إلىٰ أنّ عقوبته وعقوبة الزاني سواء.

وذهب الحكم وأبو حنيفة إلىٰ أنّ عقوبته دون عقوبة الزاني، وهي التعزير.

قالوا: لأنّه معصية من المعاصي لم يقدّر الله ولا رسوله فيه حدًّا مقدّرًا، فكان فيه التعزير، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير.

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (٥٠٤) و«ذم الهوىٰ» (٢٠٢-٢٠٥)، و«المحلىٰ» لابن حزم (١١/ ٣٨٠-٣٨٦)، و«المغني» لابن قدامة (١٢/ ٣٤٨-٣٥٠).

(٢) وهي رواية إسحاق الكوسج عنه، انظر: «مسائله» (٧/ ٣٤٧١). وانظر: «ذم الهوىٰ» (٢٠٥).

(٣) في «ذم الهوىٰ» (٢٠٤) أنه قال: يرجم، أحصن أو لم يحصن، ومثله في «المساوئ» للخرائطي (٤٥٤)، و«ذم اللواط» للآجري (٥٠).

(٤) كذا في «ذم الهوىٰ» (٢٠٤)، وفي (٢٠٥) قول آخر له مثل القول الأول.

قالوا: ولأنّه وطء في محلٍّ لا يشتهيه الطباع، بل ركّبها الله تعالىٰ علىٰ النفرة منه حتىٰ الحيوان البهيم، فلم يكن فيه حدّ، كوطء الحمار وغيره.

قالوا: ولأنه لا يسمّىٰ زانيًا لغةً، ولا شرعًا، ولا عرفًا، فلا يدخل في النصوص الدالّة علىٰ حدّ الزانيين.

قالوا: ولأنّا رأينا قواعد الشريعة (١) أنّ المعصية إذا كان الوازع عنها طبعيًّا اكتفي بذلك الوازع من الحدّ، وإذا كان في الطباع تقاضيها جعل فيها الحدّ بحسب اقتضاء الطباع لها، ولهذا جعل الحدّ في الزنىٰ والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير.

قالوا: وطردُ هذا أنّه لا حدّ في وطء البهيمة ولا الميتة، وقد جبل الله سبحانه الطباعَ علىٰ النفرة من وطء الرجلِ مثلَه أشدَّ نفرة، كما جبلها علىٰ النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه، بخلاف الزنىٰ فإنّ الداعي فيه من الجانبين.

قالوا: ولأنّ أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحدّ، كما لو تساحقت المرأتان واستمتعت كلّ واحدة منهما بالأخرىٰ.

قال أصحاب القول الأول -وهم جمهور الأمة، وحكاه غير واحد إجماعًا للصحابة-: ليس في المعاصي مفسدة أعظم من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل، كما سنبيّنه إن شاء الله.

قالوا: ولم يبتلِ الله تعالىٰ بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدًا من العالمين، وعاقبهم عقوبةً لم يعاقب بها أمةً غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكّلَ بهم نكالًا لم ينكّله بأمّة سواهم؛ وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد

(١) قد تقدم تفصيل هذه القاعدة في ص (١٥٩).

الأرض تميد من جوانبها إذا عُمِلت عليها، وتهرب الملائكة إلىٰ أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها، خشيةَ نزول العذاب علىٰ أهلها، فيصيبهم معهم؛ وتعجّ الأرض إلىٰ ربّها تبارك وتعالىٰ، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها.

وقتل المفعول به خير له من وطئه، فإنّه إذا وطئه الرجل قتله قتلًا لا ترجىٰ الحياة معه؛ بخلاف قتله فإنّه مظلوم شهيد، وربما ينتفع به في آخرته.

قالوا: والدليل علىٰ هذا أنّ الله سبحانه جعل حدّ القاتل إلىٰ خِيَرة الوليّ، إن شاء قتل، وإن شاء عفا؛ وحتّم قتل اللوطي حدًّا، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، ودلّت عليه سنّة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين.

وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنّه وجد في بعض ضواحي العرب رجلًا يُنكَح كما تُنكَح المرأة، فكتب إلىٰ أبي بكر الصديق، فاستشار أبو بكر الصحابة رضي الله عنهم، فكان علي بن أبي طالب أشدّهم قولًا فيه، فقال: ما فعل هذا إلا أمّةٌ من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل الله بها، أرىٰ أن يُحرَّق بالنار. فكتب أبو بكر إلىٰ خالد فحرّقه(١).

وقال عبد الله بن عباس: ينظر أعلىٰ بناء في القرية، فيرمىٰ اللوطي منه مُنْكَبًّا، ثم يتبع بالحجارة(٢).

وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحدّ من عقوبة الله للّوطية قوم لوط.

---

(١) أخرجه الخرائطي في «المساوي» (٤٥١)، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (١٤٥)، والآجري في «ذم اللواط» (٢٩)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ٢٣٢)، وابن حزم في «المحلىٰ» (١١/ ٣٨١)، قال البيهقي: هذا مرسل.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٨٣٢٨)، والعباس الدوري في «تاريخه» (٤/ ٣٢٩)، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (١٣٠)، والآجري في «ذم اللواط» (٣٠)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٨/ ٢٣٢) وغيرهم، وسنده صحيح.

وابن عباس هو الذي روىٰ عن النبي ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»، رواه أهل السنن[١]، وصحّحه ابن حبان وغيره، واحتجّ الإمام أحمد بهذا الحديث، وإسناده علىٰ شرط البخاري.

قالوا: وثبت عنه أنه قال: «**لعن الله مَن عمِلَ عملَ قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط**»[٢].

ولم تجئ عنه لعنة الزاني في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم في اللعنة مرة واحدة، وكرّر لعن اللوطية فأكّده ثلاث مرات.

وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ علىٰ قتله، لم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظنّ بعض الناس أنّ ذلك اختلاف منهم في قتله، فحكاها مسألة نزل بين الصحابة وهي بينهم مسألة إجماع، لا مسألة نزاع.

قالوا: ومن تأمّل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقوله في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠] تبيّن له تفاوتُ ما بينهما، فإنّه سبحانه نكّر الفاحشة في الزنىٰ، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرّفها في اللواط، وذلك يفيد أنّه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد؛ أي: أتأتون الخصلة التي استقرّ فحشها عند كلّ أحد ؟ فهي لظهور فحشها وكماله غنيّة عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الاسم إلىٰ غيرها.

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١) وأحمد (٢٧٣٢)، وابن عدي (٥/ ١١٦)، وابن الجارود (٨٢٠) والحاكم (٨٠٤٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وله شاهد».

(٢) أخرجه أحمد (٨١٦، ٢٩١٣، ٢٩١٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٣٣٧)، وأبو يعلىٰ (٤/ ٢٥٣٩)، وابن حبان (٤٤١٧)، والحاكم (٨٠٥٢).

وهذا نظير قول فرعون لموسىٰ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء:١٩]؛ أي: الفعلةَ الشنعاءَ الظاهرة المعلومةَ لكلّ أحد.

ثم أكّد سبحانه بيانَ فحشها بأنّها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].

ثمّ زاد في التأكيد بأنْ صرّح بما تشمئزّ منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع، وتنفر منه أشدَّ النّفرة الطباعُ، وهو إتيان الرجل رجلًا مثلَه، ينكحه كما ينكح الأنثىٰ، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [الأعراف:٨١].

ثمّ نبّه علىٰ استغنائهم عن ذلك، وأنّ الحامل لهم عليه ليس إلّا مجرد الشهوة، لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلىٰ الأنثىٰ، من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وحصول المودّة والرحمة التي تنسىٰ المرأةُ لها أبويها، وتذكرُ بعلها، وحصولِ النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصينِ المرأة وقضاء وطرها، وحصولِ علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيامِ الرجال علىٰ النساء، وخروجِ أحبّ الخلق إلىٰ الله من جماعهنّ كالأنبياء والأولياء والصالحين، ومكاثرةِ النبي ﷺ الأنبياءَ بأمّته، إلىٰ غير ذلك من مصالح النكاح، والمفسدةُ التي في اللواط تقاوم ذلك كلَّه، وتُرْبي عليه[1] بما لا يمكن حصرُ فسادِه، ولا يَعلم تفصيلَه إلا الله.

ثمّ أكّد قبحَ ذلك بأنّ اللوطيّة عكسوا فطرة الله التي فطر عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركّبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون شهوة الذكور، فقلبوا الأمر، وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوةً من دون النساء؛ ولهذا قلَبَ الله سبحانه عليهم ديارَهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قُلِبوا هم ونُكِسُوا في العذاب علىٰ رؤوسهم.

---

(١) أي: تزيد عليه.

ثمّ أكّد سبحانه قبْح ذلك بأنْ حكم عليهم بالإسراف، وهو مجاوزة الحدّ، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨١].

فتأمّلْ هل جاء ذلك أو قريبًا منه في الزنىٰ؟ وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤].

ثمّ أكّد عليهم الذمّ بوصفَيْن في غاية القُبح، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾.

وسمّاهم مفسدين في قول نبيّهم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠].

وسمّاهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١].

فتأمّلْ من عوقب بمثل هذه العقوبات، ومن ذمّه الله بمثل هذه المذمّات! ولَمّا جادل فيهم خليلُه إبراهيمُ الملائكةَ، وقد أخبروه بإهلاكهم، قيل له: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦].

وتأمَّلْ خبثَ اللوطية وفرط تمرّدهم علىٰ الله، حيث جاؤوا نبيهم لوطًا لَمّا سمعوا بأنّه قد طَرَقَه أضيافٌ هم من أحسن البشر صورًا، فأقبل اللوطيّة إليه يهرولون، فلما رآهم قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨]، ففدىٰ أضيافه ببناته، يزوّجهم بهنّ، خوفًا علىٰ نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨]، فردّوا عليه، ولكن ردَّ جبّارٍ عنيدٍ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩]، فنفث نبيُّ الله نفثةَ مصدور، وخرجَتْ من قلب مكروب

عميد[1]، فقال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود:٨٠].

فنفّس له رُسُل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنّهم ليسوا ممّن يُوصَل إليهم ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم، ولا تعبأ بهم، وهوِّنْ عليك، فقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود:٨١]، وبشّروه بما جاؤوا به من الوعد له، ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ [هود:٨١]، فاستبطأ نبي الله موعدَ هلاكهم، وقال: أريد أعجل من هذا، فقالت الملائكة: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

فوالله ما كان بين هلاك أعداء الله ونجاة نبيّه وأوليائه إلّا ما بين السَّحَر وطُلوع الفَجْر، وإذا بديارهم قد اقتُلِعت من أصولها، ورُفعت نحو السماء، حتىٰ سمعت الملائكةُ نباحَ الكلاب ونهيقَ الحمير، فبرز المرسومُ الذي لا يُردّ من عند الربّ الجليل إلىٰ عبده ورسوله جبريل بأن يقلبها عليهم، كما أخبر به في محكم التنزيل، فقال عزّ من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هود:٨٢].

فجعلهم آيةً للعالمين، وموعظةً للمتقين، ونكالًا وسلَفًا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر:٧٥-٧٧].

أخذهم علىٰ غِرّة وهم نائمون، وجاءهم بأسُه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسبون، فانقلبت تلك اللّذّات آلامًا فأصبحوا بها يعذَّبون:

مآربُ كانت في الحياة لأهلها ... عِذابًا فصارت في الممات عَذابا

---

(١) العميد: الشديد الحزن.

ذهبت اللذّات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوة، وأورثت الشقوة، تمتّعوا قليلًا، وعُذّبوا طويلًا، رتَعوا مرتعًا وخيمًا، فأعقبهم عذابًا أليمًا، أسكرتهم خمرة تلك الشهوة، فما استفاقوا منها إلّا في ديار المعذَّبين، وأرقدتهم تلك الغفلة، فما استيقظوا إلّا وهم في منازل الهالكين، فندموا واللهِ أشدَّ الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم.

فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم، وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم، وهم على وجوههم يسحبون: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٢٤]، ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦].

ولقد قرّب الله سبحانه مسافةَ العذاب بين هذه الأُمةِ وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوِّفًا لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

فيا ناكحي الذُكرانِ يهنيكم البشرى ... فيومَ معادِ الناس إنّ لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنُوا ولوطوا وأبشِروا ... فإنّكمُ زَفًّا إلى الجنّة الحمرا[1]
فإخوانكمِ قد مهّدوا الدارَ قبلكم ... وقالوا: إلينا عجِّلوا لكم البشرى
وها نحن أسلاف لكم في انتظاركم ... سيجمعنا الجبَّارُ في ناره الكبرى
ولا تحسَبوا أنّ الذين نكحتمُ ... يغيبون عنكم بل ترونهمُ جَهْرا
ويلعن كلٌّ منكمُ لخليله ... ويشقَى به المحزونُ في الكرّة الأخرى
يعذَّب كلٌّ منهمُ بشريكه ... كما اشتركا في لذّةٍ تُوجِب الوِزْرا

---

(١) «زفًّا» أي: تزفون.

فصل

ص(٤٠٥)

في الأجوبة عمّا احتجّ به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنىٰ:

أمّا قولهم: إنّها معصية لم يجعل الله فيها حدًّا معيّنًا، فجوابه من وجوه:

أحدها: أنّ المبلِّغ عن الله جعل حدَّ صاحبها القتلَ حتمًا، وما شرعه رسول الله ﷺ فإنّما شرعه عن الله، فإنْ أردتم أنّ حدّها غيرُ معلوم بالشرع فهو باطل، وإن أردتم أنّه غير ثابت بنصّ الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنّة.

الثاني: أنّ هذا ينتقض عليكم بالرجم، فإنّه إنّما ثبت بالسّنّة.

فإن قلتم: بل ثبتَ بقرآن نُسِخَ لفظه وبقي حكمه، قلنا: فينتقض عليكم بحدّ شارب الخمر.

الثالث: أنّ نفي دليل معيّن لا يستلزم نفيَ مطلق الدليل ولا نفيَ المدلول، فكيف وقد قدّمنا أنّ الدليل الذي نفيتموه غير منتفٍ؟

وأمّا قولكم: إنّه وطء في محلٍّ لا تشتهيه الطباع، بل ركّب الله الطباع علىٰ النفرة منه، فهو كوطء الميتة والبهيمة، فجوابه من وجوه:

أحدها: أنّه قياس فاسد الاعتبار، مردودٌ بسنّة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة، كما تقدّم بيانه.

الثاني: أنّ قياس وطء الأمرد الجميل الذي فتنتُه تُربي علىٰ كلّ فتنة، علىٰ وطء أتانٍ أو امرأة ميتة، من أفسدِ القياس، وهل تغزّل أحدٌ قطّ بأتان أو بقرة أو ميتة، أو سبىٰ ذلك عقلَ عاشق، أو أسَرَ قلبه، أو استولىٰ علىٰ فكره ونفسه؟ فليس في القياس أفسد من هذا.

الثالث: أنّ هذا منتقض بوطء الأمّ والبنت والأخت، فإنّ النفرة الطبيعية عنه حاصلة، مع أنّ الحدّ فيه من أغلظ الحدود في أحد القولين، وهو القتل بكل حال

محصنًا كان أو غير محصن، وهذا إحدىٰ الروايتين عن الإمام أحمد، وهو قول إسحاق بن راهويه وجماعة من أهل الحديث.

وقد روىٰ أبو داود[1] من حديث البراء بن عازب قال: لقيتُ عمّي ومعه الراية، فقلت: إلىٰ أين تريد؟ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلىٰ رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أَضْرِبَ عنقه، وآخذَ ماله، قال الترمذي: هذا حديث حسن. قال الجوزجاني: عمّ البراء اسمه الحارث بن عمرو.

وفي سنن ابن ماجه[2] من حديث ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**من وقع علىٰ ذاتِ مَحرم فاقتُلوه**».

ورُفِع إلىٰ الحجاج رجلٌ اغتصب أخته علىٰ نفسها، فقال: احبسوه، واسألوا مَن هاهنا من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوا عبد الله بن مطرِّف، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من تخطّىٰ حُرمَ المؤمنين فخُطُوا وسطه بالسيف**»[3].

وفيه دليلٌ علىٰ القتل بالتوسيط، وهذا دليلٌ مستقِلّ في المسألة، وهو أنّ من لا يباح وطؤه بحال فحدُّ وطئه القتل، دليله: من وقع علىٰ أمّه وابنته.

(١) برقم (٤٤٥٧)، والنسائي (٣٣٣٢)، وابن الجارود (٦٨١)، والدارمي (٢٢٨٥)، وغيرهم، بإسناد جيد.

(٢) برقم (٢٥٦٨)، والترمذي (١٤٦٢)، وأحمد (٢٧٢٧)، والطبري في «التهذيب» (مسند ابن عباس- ٨٧١)، والطبراني (١١/ رقم ١١٥٨٠)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٨٦)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ١١٠)، وهو حديث منكر.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم (٢٨١٧)، والبغوي في «معجم الصحابة» (١٧١٢)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٥٦٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٧١٢)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (١١١)، وفي «مساوئ الأخلاق» (٥٧٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٠١- ٢٠٢)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٧٥)، وغيرهم، بإسنادٍ لا يصح.

وكذلك يقال في وطء ذوات المحارم ووطء مَن لا يباح له وطؤه بحال، فكان حدّه القتل، كاللوطي.

والتحقيق: أن يستدلّ علىٰ المسألتين بالنصّ، والقياس يشهد لصحة كلّ منهما.

وقد اتّفق المسلمون علىٰ أنّ من زنىٰ بذات محرم فعليه الحدّ.

وإنّما اختلفوا في صفة الحدّ: هل هو القتل بكلّ حال، أو حدّه حدّ الزاني؟ علىٰ قولين:

فذهب الشافعي ومالك وأحمد في إحدىٰ روايتيه أنّ حدّه حدّ الزاني.

وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إلىٰ أنّ حدّه القتل بكلّ حال.

وكذلك اتّفقوا كلّهم علىٰ أنّه لو أصابها باسم النكاح عالِمًا أنّه يُحَدّ، إلّا أبا حنيفة وحده، فإنّه رأىٰ ذلك شبهةً مسقِطةً للحدّ.

ومنازعوه يقولون: إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غِلَظًا وشدّة، فإنّه ارتكب محذورين عظيمين: محذور العقد، ومحذور الوطء، فكيف تُخفَّف عنه العقوبة بضمّ محذور العقد إلىٰ محذور الزنا؟

وأمّا وطء الميتة، ففيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره، أحدهما: يجب به الحدّ، وهو قول الأوزاعي، فإنّ فعله أعظم جرمًا وأكثر ذنبًا؛ لأنّه انضمّ إلىٰ فاحشته هتكُ حرمةِ الميتة.

فصــل

ص(٤١٠)

وأمّا وطء البهيمة، فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه يؤدَّب، ولا حدّ عليه، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه، وقول إسحاق.

والقول الثاني: أنّ حكمه حكم الزاني؛ يجلَد إن كان بكرًا، ويرجم إن كان محصنًا. وهذا قول الحسن.

والقول الثالث: أنّ حكمه حكم اللوطي، نصّ عليه أحمد، فيخرّج علىٰ الروايتين في حدّه: هل هو القتل حتمًا، أو هو كالزاني؟

والذين قالوا: حدّه القتل، احتجّوا بما رواه أبو داود(١) من حديث ابن عباس عن النبيِّ ﷺ: «**من أتىٰ بهيمةً فاقتلوه واقتلوها معه**».

قالوا: ولأنّه وطءٌ لا يُباح بحال، فكان فيه القتل كحدّ اللوطي.

ومن لم يرَ عليه حدًّا قالوا: لم يصحّ فيه الحديث، ولو صحّ لقلنا به، ولم يحِلّ لنا مخالفته.

قال إسماعيل بن سعيد الشالَنجي: سألتُ أحمد عن الذي يأتي البهيمة، فوقف عندها، ولم يُثبِت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك (٢).

وقال الطحاوي: الحديث ضعيف.

وأيضًا فراويه ابن عباس، وقد أفتىٰ بأنّه لا حدّ عليه(٣).

قال أبو داود: وهذا يُضعف الحديث.

ولا ريب أنّ الزاجر الطبعي عن إتيان البهيمة أقوىٰ من الزاجر الطبعي عن التلوّط، وليس الأمران في طباع الناس سواء، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس، كما تقدم.

---

(١) برقم (٤٤٦٤)، والترمذي (١٤٥٥)، والطبري في «التهذيب» (مسند ابن عباس- ٨٧٠)، والحاكم (٨٠٤٩)، والبيهقي (٨/ ٢٣٣)، والحديث منكر.

(٢) «المغني» لابن قدامة (١٢/ ٣٥٢).

(٣) أخرج قولَهُ أبو داود (٤٤٦٥)، والترمذي (١٤٥٥)، والطبري في «التهذيب» (٨٦٧ - ٨٦٩)، والحاكم (٨٠٥١)، والبيهقي (٨/ ٢٣٤)، بإسناد حسن.

فصل

ص(٤١٢)

وأمّا قياسكم وطءَ الرجل لمثله علىٰ تدالُك المرأتين، فمن أفسَدِ القياس، إذ لا إيلاج هناك، وإنّما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج، علىٰ أنّه قد جاء في بعض الآثار المرفوعة: «**إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان**»[1]، ولكن لا يجب الحدّ بذلك لعدم الإيلاج، وإن أُطلِق عليهما اسم الزنىٰ العامّ، كزنىٰ العين واليد والرجل والفم.

إذا ثبت هذا فأجمع المسلمون علىٰ أنّ حكم التلوّط مع المملوك كحكمه مع غيره، ومن ظنّ أنّ تلوط الإنسان بمملوكه جائز، واحتجّ علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٣٠] وقاس ذلك علىٰ أمته المملوكة، فهو كافر يُستتاب، كما يستتاب المرتد، فإنْ تاب وإلّا ضُربت عنقه، وتلوّطُ الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم.

فصل

ص(٤١٣)

فإن قيل: وهل مع ذلك كلّه من دواءٍ لهذا الداء العُضال، ورقيةٍ لهذا السحر القتّال؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال؟

وهل من طريقٍ قاصدٍ إلىٰ التوفيق؟ وهل يمكِن السكرانَ بخمرة الهوىٰ أن يفيق؟

وهل يملك العاشق قلبَه، والعشق قد وصل إلىٰ سويدائه؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سوء دائه؟

إنّ لامه لائمٌ التذّ بملامه ذكرًا لمحبوبه، وإن عذله عاذلٌ أغراه عَذلُه، وسار به في طريق مطلوبه، ينادي عليه شاهدُ حاله، بل لسانُ قالِه:

---

(١) أخرجه الآجري في «ذم اللواط» (١٧) مختصرًا، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٨/ ٢٣٣) بإسناد لا يصح.

وقف الهوىٰ بي حيث أنتِ فليس لي متأخَّـــرٌ عنــه ولا متقـــدَّمُ
وأهنتِني فأهنتُ نفسي جاهدًا ما من يهون عليكِ ممن يُكرَمُ
أشبهتِ أعدائي فصرتُ أحِبّهم إذ كان حظّي منكِ حظّي منهمُ
أجد الملامةَ في هواكِ لذيذةً حبًّا لذكركِ فَلْيَلُمْني اللُّوَّمُ (١)

ولعلّ هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداء الذي طُلِب له الدواء.

قيل: نعم، الجواب من رأسٍ: «**وما أنزل الله سبحانه من داءٍ إلّا أنزل له دواءً، عَلِمَه مَن عَلِمَه، وجَهلَهُ مَن جَهلَهُ**»(٢).

والكلام في دواء هذا الداء من طريقين:

أحدهما: حَسْم مادّته قبل حصولها.

والثاني: قلعها بعد نزولها.

وكلاهما يسيرٌ علىٰ من يسّره الله عليه، ومتعذِّر علىٰ من لم يُعِنْه، فإنّ أَزِمّة الأمور بيديه.

فأمّا الطريق المانع من حصول هذا الداء، فأمران:

أحدهما: غضّ البصر(٣)، كما تقدّم، فإنّ النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس، ومَن أطلق لحظاتِه دامت حسراتُه.

وفي غضّ البصر عدّة منافع، وهو بعضُ أجزاء هذا الدواء النافع(٤).

---

(١) الأبيات لأبي الشيص الخزاعي في ديوانه (١٥١).

(٢) تقدّم في أول الكتاب ص (٩).

(٣) والثاني سيأتي في الفصل القادم.

(٤) انظر في فوائد غض البصر: «روضة المحبين» (١٩٤-٢٠٢)، و«إغاثة اللهفان» (١٠٣-١٠٦)، وانظر ما سبق في آفات النظر في ص (٢١٥).

أحدها: أنّه امتثالٌ لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربّه تبارك وتعالىٰ، وما سَعِدَ من سَعِدَ في الدنيا والآخرة إلّا بامتثال أوامره، وما شَقِي مَن شَقِي في الدنيا والآخرة إلّا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمتنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعلّ فيه هلاكه إلىٰ قلبه.

الثالثة: أنّه يُورث القلبَ أنسًا بالله وجمعيةً علىٰ الله، فإنّ إطلاق البصر يفرّق القلب، ويشتّته، ويُبعده من الله، وليس علىٰ العبد شيء أضرّ من إطلاق البصر، فإنّه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوّي القلب ويفرحه، كما أنّ إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يُكسب القلب نورًا، كما أنّ إطلاقه يكسبه ظلمة.

ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغضّ البصر فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، ثم قال إثر ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾ [النور:٣٥] أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

وإذا استنار القلبُ أقبلت وفود الخيرات إليه من كلّ ناحية، كما أنّه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشرّ عليه من كلّ مكان، فما شئتَ من بدع وضلالة، واتّباع هوىٰ، واجتناب هدىٰ، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة! فإنّ ذلك إنّما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا فُقِد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمىٰ الذي يجوس في حنادس الظلمات.

السادسة: أنّه يُورثه فراسةً صادقةً يميّز بها بين المحِقّ والمبطل والصادق والكاذب.

وكان شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهرَه باتّباع السّنّة، وباطنَه بدوام

المراقبة؛ وغضّ بصرَه عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشهوات، واغتذىٰ بالحلال = لم تخطئ فراسته، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة [(١)].

والله سبحانه يجزي العبد علىٰ عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا عوّضه الله خيرًا منه، فإذا غضّ بصره عن محارم الله عوّضه الله بأن يُطلِق نورَ بصيرته عوضًا عن حبسِه بصرَه لله، ويفتحَ عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنّما تُنال ببصيرة القلب.

وضدّ هذا ما وصف الله به اللوطيّة من العمَه الذي هو ضدّ البصيرة، فقال تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعَمَه الذي هو فساد البصيرة.

فالتعلّق بالصور يوجب فساد العقل، وعَمَه البصيرة، وسُكْر القلب، كما قال القائل:

سُكْرانِ سُكرُ هوىً وسُكرُ مُدامةٍ ... ومتىٰ إفاقةُ مَن به سُكرانِ[(٢)]؟

وقال الآخر:

قالوا جُنِنتَ بمن تهوىٰ فقلتُ لهم ... العشقُ أعظم ممّا بالمجانينِ

العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنّما يُصرَع المجنونُ في الحين [(٣)]

السابعة: أنّه يورث القلب ثباتًا وشجاعةً وقوةً، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: الذي يخالف هواه يفرَق الشيطان من ظلّه[(٤)].

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٥٣)، و«الرسالة القشيرية» (٤٢٨).

(٢) من أبيات للخليع الشامي، كما في «يتيمة الدهر» (١/ ٢٧١)، مع اختلاف يسير.

(٣) نسبهما في «روضة المحبين» (٢٤٢) إلىٰ مجنون ليلىٰ، انظر: ديوانه (٢١٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٦٠) عن وهب بن منبه، وأيضًا (٢/ ٣٦٥) عن مالك بن دينار.

وضدّ هذا تجد في المتّبع لهواه من ذلّ النفس ووضاعتها ومهانتها وخِسّتها وحقارتها ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه، كما قال الحسن: إنّهم وإن طقطقت بهم البغال، وهَمْلَجَتْ بهم البراذين، إنّ ذُلّ المعصية في رقابهم. أبىٰ الله إلا أن يُذِلّ من عصاه[١].

وقد جعل الله سبحانه العزّ قرين طاعته، والذلّ قرين معصيته، فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن.

وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر:١٠]؛ أي: من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكرِه من الكلم الطيب والعمل الصالح.

وفي دعاء القنوت: «**إنّه لا يذِلّ من واليتَ، ولا يعِزّ من عاديتَ**»[٢].

ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العزّ بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذلّ بحسب معصيته.

الثامنة: أنه يسدّ علىٰ الشيطان مدخله إلىٰ القلب، فإنّه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلىٰ القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثّل له حسنَ صورة المنظور إليه، ويزيّنها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب، ثمّ يَعِدُه، ويمنّيه، ويوقد علىٰ القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصّل إليها

---

(١) تقدم تخريجه في ص (٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٥، ١٤٢٦)، وابن ماجه (١١٧٨)، والترمذي (٤٦٤)، وأحمد (١٧١٨، ١٧٢١)، وابن خزيمة (١٠٩٥)، وابن الجارود (٢٧٢)، والبيهقي (٢/ ٢٠٩) وغيرهم، بإسناد صحيح.

بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهيب، فمن ذلك اللهيب تلك الأنفاسُ التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفَراتُ والحُرُقاتُ، فإنّ القلب قد أحاطت به النيران من كلّ جانب، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنّور.

ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرّمة أن جُعِل لهم في البرزخ تنّور من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلىٰ يوم حشر أجسادهم، كما أراه الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ في المنام في الحديث المتفق علىٰ صحّته [1].

التاسعة: أنّه يُفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاقُ البصر يشتّته عن ذلك، ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أموره، ويقع في اتّباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرة: أنّ بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محلّ النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنىٰ معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والإنس به والسرور بقربه فيه، وإنّما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذه إشارة إلىٰ بعض فوائد غضّ البصر تُطْلِعك علىٰ ما وراءها.

---

(١) تقدم في ص (٩٣).

ص(٤٢٢)

فصل

الثاني[1]: **اشتغال القلب بما يصدّه عن ذلك**، ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إمّا خوفٌ مقلِق، أو حبٌّ مزعِج. فمتىٰ خلا القلب من خوف ما فواتُه أضرُّ عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوفِ ما حصولُه أضرُّ عليه من ذوات هذا المحبوب، أو محبّةِ ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب وفواتُه أضرّ عليه من ذوات هذا المحبوب = لم يجد بدًّا من عشق الصور.

وشرح هذا أنّ النفس لا تترك محبوبًا إلّا لمحبوب أعلىٰ منه، أو خشية مكروهٍ حصولُه أضرّ عليها من ذوات هذا المحبوب.

وهذا يحتاج صاحبه إلىٰ أمرين إن فُقِدا أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

أحدهما: بصيرةٌ صحيحةٌ يفرّق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلىٰ المحبوبَين علىٰ أدناهما، ويحتمل أدنىٰ المكروهَين ليخلص من أعلاهما، وهذا خاصّة العقل، ولا يعدّ عاقلًا من كان بضدّ ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالًا منه.

الثاني: قوّة عزم وصبر يتمكّن بها من هذا الفعل والترك، فكثيرًا ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبىٰ له ضعفُ نفسه وهمته وعزيمته علىٰ إيثار الأنفع، من جشعه وحرصه ووضاعة نفسه وخسّة همّته، ومثل هذا لا ينتفع بنفسه، ولا ينتفع به غيره.

وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلّا من أهل الصبر واليقين، فقال تعالىٰ وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

---

(١) يعني: الأمر الثاني المانع من حصول داء العشق.

وهذا هو الذي ينتفع بعلمه، وينتفع به الناس، وضدّه لا ينتفع بعلمه، ولا ينتفع به غيره، ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه، ولا ينتفع به غيره، فالأول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره، والثاني قد طفئ نوره فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه في ظلمته.

والثالث: يمشي في نوره وحده.

فصل

ص(٤٢٤)

إذا عرفت هذه المقدّمة، فلا يمكن أن يجتمع في القلب حبّ المحبوب الأعلىٰ وعشق الصور أبدًا، بل هما ضدّان لا يتلاقيان، بل لا بُدّ أن يُخرج أحدهما صاحبه، فمن كانت قوّة حبه كلّها للمحبوب الأعلىٰ الذي محبّة ما سواه باطلةٌ وعذابٌ علىٰ صاحبها، صَرَفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبّه لم يحبَّه إلّا لأجله ولكونه وسيلةً له إلىٰ محبته، أو قاطعًا له عمّا يضادّ محبته وينقضها.

والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يُشرِكَ مِحِبُّه غيرَه في محبته، ويمقته لذلك، ويُبعده، ولا يُحظيه بقربه، ويعدّه كاذبًا في دعوىٰ محبته، مع أنّه ليس أهلًا لصرف قوة المحبة إليه، فكيف بالحبيب الأعلىٰ الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكلّ محبة لغيره فهي عذاب علىٰ صاحبها ووبال؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرَك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فمحبة الصور تفوّت محبةَ ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوّت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلّا بمحبته وحده.

فليختر إحدىٰ المحبّتَين، فإنّهما لا تجتمعان في القلب ولا ترتفعان منه.

بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلىٰ لقائه ابتلاه بمحبة غيره، فيعذّبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة:

فإمّا أن يعذّبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصُّلبان، أو بمحبة النيران، أو محبة المُرْدان، أو محبة النسوان، أو محبة الأثمان، أو محبة العُشراء والخلّان، أو محبة ما دون ذلك ممّا هو في غاية الحقارة والهوان، فالإنسان عبد محبوبه كائنًا ما كان! كما قيل:

أنت القتيل بكلّ من أحببته ... فاختر لنفسك في الهوىٰ من تصطفي[1]

فمن لم يكن إلهُه مالكَه ومولاه؛ كان إلهه هواه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فصل

ص(٤٢٦)

وخاصية التعبّد: الحبّ مع الخضوع والذلّ للمحبوب، فمن أحبّ شيئًا وخضع له فقد تعبد قلبه له؛ بل التعبّد آخر مراتب الحبّ، ويقال له التتيّم أيضًا[2].

فإنّ أول مراتبه: العلاقة، وسميت «علاقة»؛ لتعلّق القلب بالمحبوب، قال:

وعُلِّقتُ ليلىٰ وَهْيَ ذات تمائم ... ولم يبدُ للأتراب من ثديها حَجْمُ[3]

وقال آخر:

أعلاقةً أمَّ الوُلَيِّدِ بعد ما ... أفنانُ رأسكَ كالثَّغام المُخْلِسِ[4]

(١) لابن الفارض في ديوانه ص(١٥١).

(٢) عقد المؤلف في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٧) فصلاً في مراتب المحبة، وذكر عشر مراتب، أولها: العلاقة، وآخرها: الخُلّة.

(٣) انظر: «ديوانه» ص(١٨٦).

(٤) هذا البيت للمرّار بن سعيد الفقعسي. انظر: «خزانة الأدب» (١١/ ٢٣٢).

و«الثغام»: نبات أبيض الثمر والزهر، يشبّه به الشيب. =

ثمّ بعدها الصبابة، وسمّيت بذلك لانصباب القلب إلىٰ المحبوب.

قال:

تشكّىٰ المحبّون الصبابةَ ليتني ... تحملتُ ما يلقَون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذةُ الحبّ كلها ... فلم يلقَها قبلي محبٌّ ولا بعدي[1]

ثمّ الغرام، وهو لزوم الحبّ للقلب لزومًا لا ينفكّ عنه، ومنه سمّي الغريم غريمًا لملازمته صاحبَه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥]، وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحبّ، وقلّ أن تجده في أشعار العرب.

ثمّ العشق، وهو إفراط المحبة، ولهذا لا يوصف به الربّ تعالىٰ، ولا يطلق في حقّه.

ثمّ الشوق، وهو سفر القلب إلىٰ المحبوب أحثّ السفر، وقد جاء إطلاقه في حقّ الرب تعالىٰ، كما في مسند الإمام أحمد[2] من حديث عمار بن ياسر أنه صلّىٰ صلاةً فأوجز فيها، فقيل له في ذلك، فقال: أمَا إنّي دعوتُ فيها بدعَواتٍ كان النبيُّ ﷺ يدعو بهنّ: «**اللهم إنّي أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخلق، أحْيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم وأسالك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمةَ الحقّ في الغضب والرضا، وأسألك القصدَ في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرةَ عين لا تنقطع، وأسألك بردَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك الكريم، وأسألك الشوق إلىٰ لقائك، في غير**

= و«المخلِس»: الذي بعضه هائج وبعضه أخضر، شبّه به شعره الشميط، وهو الذي اختلط بياضه بالسواد.

(١) البيتان لمجنون ليلىٰ في «ديوانه» ص(٩٢).

(٢) برقم (١٨٣٢٥)، والنسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٥)، وابن حبان (١٩٧١)، وصحّحه.

ضرّاء مُضِرّة ولا فتنة مضِلّة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين».

وفي أثر آخر: «**طال شوق الأبرار إلىٰ لقائي، وأنا إلىٰ لقائهم أشدّ شوقًا**»[1].

وهذا هو المعنىٰ الذي عبّر عنه النبيُّ ﷺ بقوله: «**من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه**»[2].

وقال بعض أهل البصائر[3] في قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ [العنكبوت:٥]: لَمّا علم الله سبحانه شدّة شوق أوليائه إلىٰ لقائه، وأنّ قلوبهم لا تهدأ دون لقائه، ضرب لهم أجلًا وموعدًا للّقاء تسكن نفوسهم به.

وأطيب العيش وألذّه علىٰ الإطلاق عيش المحبّين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها، وهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح؛ بل ربما زاد أعداء الله علىٰ أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفةً.

وقد ضمن الله سبحانه لكلّ مَن عَمل صالحًا أن يحييه حياةً طيبةً، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأيُّ حياةٍ أطيب من حياة مَن اجتمعت همومه كلّها، وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله، ولَمَّ شعثَ قلبه بالإقبال علىٰ الله، واجتمعت إراداته وأفكاره التي كانت منقسمةً -بكل وادٍ منها شعبة- علىٰ الله، فصار ذكرُ محبوبه الأعلىٰ، وحبّه، والشوق إلىٰ لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه

---

(١) أخرجه صاحب «الفردوس» (٨٠٦٧) عن أبي الدرداء، وعبد الغني المقدسي في «الترغيب في الدعاء» (١٦) عن أحمد بن مخلد الخراساني.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)، وغيرهما.

(٣) هو أبو عثمان الحيري النيسابوري (٢٩٨ هـ). انظر: «الرسالة القشيرية» (٣٣٢).

تدور همومه وإراداته وقصوده، بل خطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله. وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث؛ كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يروي عن ربّه تبارك وتعالىٰ أنّه قال: «**ما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتّىٰ أحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذَنّه، وما تردّدتُ عن شيء أنا فاعلُه تردّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموتَ وأكره مساءتَه، ولا بدّ له منه**»[1].

فتضمّن هذا الحديثُ الشريف الإلهي -الذي حرامٌ علىٰ غليظِ الطبع كثيفِ القلب فهمُ معناه والمرادِ به- حصرَ أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه، والتقرّب إليه بالنوافل.

وأخبر سبحانه أنّ أداءَ فرائضه أحبُّ ما تقرّب به إليه المتقرّبون، ثمّ بعدها النوافل؛ وأنّ المحبّ لا يزال يُكثرُ من النوافل حتىٰ يصيرَ محبوبًا لله، فإذا صار محبوبًا لله أوجبت محبةُ الله له محبةً أخرىٰ منه لله، فوق المحبة الأولىٰ، فشغلت هذه المحبّة قلبَه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبقَ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، ما عدا قوله: «فبي يسمع ... وبي يمشي»، وبهذه الزيادة نقله المؤلفُ من رواية البخاري في «روضة المحبين» (٥٥٤)، و«المدارج» (٢/ ٤١٣)، وكذا شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٥١١) وغيره.
قال الألباني في «الصحيحة» (٤/ ١٩١): «لم أر هذه الزيادة عند البخاري، ولا عند غيره ممن ذكرنا من المُخرِّجين، وقد ذكرها الحافظُ في أثناء شرحه للحديث نقلًا عن الطوفي ولم يعزها لأحد».

فيه سعة لغير محبوبه البتّة.

فصار ذكر محبوبه وحبّه ومثله الأعلىٰ مالكًا لزمام قلبه، مستوليًا علىٰ روحه، استيلاءَ المحبوب علىٰ محبّه الصادقِ في محبته التي قد اجتمعت قوىٰ حبّه كلّها له.

ولا ريب أنّ هذا المحبّ إن سَمِع سَمِع بمحبوبه، وإن أَبْصَر أَبْصَر به، وإن بطش بطش به، وإن مشىٰ مشىٰ به، فهو في قلبه، ومعه، وأنيسه، وصاحبه، فالباء هاهنا باء المصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حاليّة لا علمية محضة.

وإذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يُخلَق لها ولم يُفطَر عليها، كما قال بعض المحبّين:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيبُ؟[(١)]

وقال آخر[(٢)]:

ومن عجبٍ أنّي أحِنّ إليهم ... وأسأل عنهم مَن لقيتُ وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلُعي

وهذا ألطف من قول الآخر[(٣)]:

إن قلتُ غبتَ فقلبي لا يصدّقني ... إذ أنت فيه مكان السرِّ لم تغِبِ

أو قلتُ ما غبتَ قال الطرف ذا كَذِبٌ ... فقد تحيّرتُ بين الصدق والكذبِ

فليس شيء أدنىٰ إلىٰ المحبّ من محبوبه، وربما تمكنت منه المحبة حتىٰ

---

(١) لأبي الحكم ابن غَلِندو الإشبيلي الطبيب. انظر: «معجم الأدباء» (١١٩٤).

(٢) البيتان للقاضي الفاضل في «ديوانه» (٤٩٢).

(٣) أنشدهما المصنف في «هداية الحيارىٰ» (١٥٤).

يصير أدنىٰ إليه من نفسه، بحيث ينسىٰ نفسه ولا ينساه، كما قال[١]:

أريد لأنسىٰ ذكرها فكأنّما ... تمثَّلُ لي ليلىٰ بكلّ سبيلِ

وقال آخر[٢]:

يراد من القلب نسيانُكم ... وتأبىٰ الطباعُ علىٰ الناقل

وخصّ في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذِّكر، فإنّ هذه الآلات آلات الإدراك، وآلات الفعل، والسمعُ والبصرُ يُوردان علىٰ القلب الإرادةَ والكراهةَ، ويجلبان إليه الحبّ والبغض، فيستعمل اليد والرِّجل، فإذا كان سمعُ العبد بالله وبصرُه بالله كان محفوظًا في آلات إدراكه، وكان محفوظًا في حبّه وبغضه، فحُفِظَ في بطشه ومشيه.

وتأمَّلْ كيف اكتفىٰ بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان.

فإنّه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارةً وبغير اختياره تارة، وكذلك البصرُ قد يقع بغير الاختيار فجأةً، وكذلك حركة اليد والرِّجل التي لا بدّ للعبد منها؛ فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلّا بقصد واختيار، وقد يستغني العبد عنها إلّا حيث أُمِر بها؟ وأيضًا فانفعال اللسان عن القلب أتمّ من انفعال سائر الجوارح، فإنّه ترجمانه ورسوله.

وتأمَّلْ كيف حقّق تعالىٰ كونَ العبد به عند سمعه وبصره وبطشه ومشيه، بقوله: «كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» تحقيقًا لكونه مع عبده، وكون عبده به، في إدراكاته بسمعه وبصره، وحركاته بيده ورجله؟

---

(١) قائله كثيّر كما في «ديوانه» ص(٢٥٢).

(٢) المتنبي في «ديوانه» ص(٣٩٥).

وتأمل كيف قال: «**فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش**»، ولم يقل: فلي يسمع، ولي يبصر، ولي يبطش؟.

وربما يظنّ الظانّ أنّ اللام أولىٰ بهذا الموضع؛ إذ هي أدلّ علىٰ الغاية ووقوع هذه الأمور لله، وذلك أخصّ من وقوعها به.

وهذا من الوهم والغلط؛ إذ ليست الباء ها هنا لمجرّد الاستعانة، فإنّ حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنّما هي بمعونةِ الله لهم، وإنّما الباء هاهنا للمصاحبة، أي: إنّما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي، وأنا صاحبه ومعه، كقوله في الحديث الآخر: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرَّكت بي شَفتاه**»[1].

وهذه هي المعية الخاصّة المذكورة في قوله: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:٤٠]، وقول النبي ﷺ: «**ما ظنّك باثنين الله ثالثهما**»[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وقوله: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، وقوله تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

فهذه الباء مفيدة لمعنىٰ هذه المعية دون اللام، ولا يتأتّىٰ للعبد الإخلاص والصبر والتوكّل ونزوله في منازل العبودية إلّا بهذه الباء وهذه المعية.

فمتىٰ كان العبد بالله هانت عليه المشاقّ، وانقلبت المخاوف في حقّه أمانًا،

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب التوحيد، وابن المبارك في «الزهد» (٩٥٦) وأحمد (١٠٩٧٥، ١٠٩٧٦)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٤٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٨١٥) والطبراني في «مسند الشاميين» (١٤١٧)، والبيهقي في «الشعب» (٥٠٦،٥٠٧)، بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، وغيرهما.

فبالله يهون كلُّ صعب، ويسهل كلُّ عسير، ويقربُ كلُّ بعيدٍ.

وبالله تزول الهموم والغموم والأحزان، فلا همّ مع الله، ولا غمّ، ولا حزن، إلّا حيث يفوته معنىٰ هذه الباء، فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارقَ الماءَ، يَثِب ويتقلّب حتىٰ يعود إليه.

ولَمّا حصلت هذه الموافقة من العبد لربّه في محابّه حصلت موافقة الربّ لعبده في حوائجه ومطالبه، فقال: «**ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه**» أي: كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرّب إليّ بمحابي، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به، ويستعيذني أن يناله.

وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين، حتّىٰ اقتضىٰ تردّدَ الربّ سبحانه؛ في إماتة عبده؛ لأنّه يكره الموت، والربّ تعالىٰ يكره ما يكرهه عبدُه ويكره مساءتَه؛ فمن هذه الجهة يقتضي أن لا يميته، ولكن مصلحته في إماتته، فإنّه ما أماته إلّا لِيُحييه، ولا أمرضه إلّا ليُصِحّه، ولا أفقره إلّا ليغنيه، ولا منعه إلّا ليعطيه، ولم يخرجه من الجنّة في صلب أبيه إلّا ليعيده إليها علىٰ أحسن أحواله، ولم يقل لأبيه: اخرج منها، إلّا هو يريد أن يعيده إليها.

فهذا هو الحبيب علىٰ الحقيقة لا سواه، بل لو كان في كلّ منبِتِ شعرةٍ من العبد محبّة تامّة لله لكان بعضَ ما يستحقّه علىٰ عبده:

نقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ من الهوىٰ ... ما الحبّ إلّا للحبيب الأولِ

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتىٰ ... وحنينه أبدًا لأول منزلِ[1]

---

(١) لأبي تمام في «ديوانه» بشرح التبريزي (٤/ ٢٥٣).

ص(٤٣٨)

فصــل

ثمّ التتيُّم، وهو آخر مراتب الحبّ، وهو تعبّد المحبّ لمحبوبه:

يقال: تيّمه الحبّ إذا عبّده، ومنه تَيْم الله؛ أي عَبْد الله، وحقيقة التعبد: الذلّ والخضوع للمحبوب، ومنه قولهم: طريق معبّد أي: مذلّل قد ذلّلته الأقدام، فالعبد هو الذي ذلَّلهُ الحُبُّ والخُضوع لمَحبوبه.

ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية، فلا منزل له أشرف منها.

وقد ذكر الله سبحانه أكرمَ الخلق عليه وأحبَّهم إليه -وهو رسوله محمد ﷺ- بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي: مقام الدعوة إليه، ومقام التحدّي بالنبوة، ومقام الإسراء، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن:١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]، وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء:١].

وفي حديث الشفاعة: «**اذهبوا إلىٰ محمّدٍ، عبدٍ غُفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر**»، فنال مقامَ الشفاعةِ بكمال عبوديتهِ وكمال مغفرةِ الله له.

والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، التي هي أكمل أنواع المحبة، مع أكمل أنواع الخضوع والذلّ، وهذا هو حقيقة الإسلام وملّة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفِه نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٣].

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك، والله لا يغفر أن يُشرَك به.

وأصل الشرك بالله الإشراك به في المحبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة:١٦٥]، فأخبر سبحانه أنّ من الناس من يشرك به، فيتّخذ من دونه ندًّا يحبُّه كحبِّ الله، وأخبر أنّ الذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنىٰ أنّهم أشدّ حبًّا لله من أصحاب الأنداد لله، فإنّهم وإنْ أحبّوا الله، لكن لَمّا أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لَمّا خلصت محبتهم له كانت أشدّ من محبة أولئك. والعدل بربّ العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة، كما تقدّم.

ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبّة له أنكر علىٰ من اتّخذ من دونه وليًّا أو شفيعًا غايةَ الإنكار، وجمع ذلك تارةً، وأفرد أحدهما عن الآخر بالإنكار تارةً، فقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١].

وقال في الإفراد: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية:١٠].

فإذا والىٰ العبد ربَّه وحده أقام له الشفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين، فصاروا أولياءه في الله، بخلاف من اتّخذ مخلوقًا وليًّا من دون الله.

فهذا لونٌ وذاك لونٌ، كما أنّ الشفاعة الشركيّة الباطلة لونٌ، والشفاعة الحقّ

الثابتة التي إنّما تُنال بالتوحيد لونٌ، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

والمقصود أنّ حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنّها من لوازم العبودية وموجَباتها، فإنّ محبة الرسول - بل تقديمه في الحبّ علىٰ الأنفس والآباء والأبناء- لا يتمّ الإيمان إلا بها؛ إذ محبته من محبة الله، وكذلك كلُّ حبٍّ في الله ولله، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنّه قال: «**ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان**» - وفي لفظٍ في الصحيح: «**لا يجد حلاوةَ الإيمانِ إلّا مَن كان فيه ثلاثُ خصالٍ-: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبّه إلّا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقىٰ في النار**»[(١)].

وفي الحديث الذي في السنن: «**مَن أحبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله، فقد استكملَ الإيمان**»[(٢)].

وفي حديث آخر: «**ما تحابّ رجلان في الله إلّا كان أفضلُهما أشدَّهما حبًّا لصاحبه**»[(٣)].

فإنّ هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجَباتها، وكلّما كانت أقوىٰ كان أصلها كذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦) باللفظ الأول، ومسلم (٤٣)، وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، والطبراني (٨/ رقم ٧٧٣٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ رقم ٣٤٦٩)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٦١٨)، بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٤)، والطيالسي (٢١٦٦)، وابن حبان (٥٦٦)، والبزار (٦٨٦٩)، والحاكم (٧٣٢١)، وصححه غير واحد.

فصـــل ص(٤٤٣)

وههنا أربعة أنواع من المحبّة يجب التفريق بينها، وإنّما ضلّ من ضلّ بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذابه والفوز بثوابه، فإنّ المشركين وعبّاد الصليب واليهود وغيرهم يحبّون الله.

الثاني: محبة ما يحبّه الله، وهذه هي التي تُدخله في الإسلام، وتُخرجه من الكفر، وأحبُّ الناس إلىٰ الله أقوَمُهم بهذه المحبة وأشدّهم فيها.

الثالث: الحبّ لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحبّ، ولا يستقيم محبة ما يحب إلّا بالحبّ فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكلّ من أحبّ شيئًا مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتّخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس: ليس ممّا نحن فيه، وهو المحبة الطبعيّة، وهي ميل الإنسان إلىٰ ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تُذَمّ إلّا إذا ألهَتْ عن ذكر الله وشغلتْ عن محبته، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]، وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧].

فصـــل ص(٤٤٤)

ثمّ الخلّة، وهي تتضمّن كمال المحبة ونهايتَها، بحيث لا يبقىٰ في قلب المحبّ سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجهٍ ما، وهذا المنصب خَلَصَ لخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ: «**إنّ الله اتّخذني**

خليلًا، كما اتّخذ إبراهيمَ خليلًا»(١).

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**لو كنتُ متّخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتّخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله**»(٢).

وفي حديثٍ آخر: «**إنّي أبرأ إلىٰ كلّ خليل من خُلّته**»(٣).

ولما سأل إبراهيمُ الولدَ، فأُعطِيَه، وتعلّق حبّه بقلبه، فأخذ منه شعبة؛ غار الحبيب علىٰ خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام؛ ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاءً وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه، ليخلص القلب للربّ، فلما بادر الخليل إلىٰ الامتثال، وقدّم محبة الله علىٰ محبة ولده؛ حصل المقصود، فرُفع الذبح، وفُدي بذبح عظيم، فإنّ الربّ تعالىٰ ما أمر بشيء ثمّ أبطله رأسًا، بل لا بُدّ أن يبقىٰ بعضه أو بدَلُه، كما أبقىٰ شرعيّة الفداء، وكما أبقىٰ استحباب الصدقة بين يدي المناجاة، وكما أبقىٰ الخمسَ صلواتٍ بعد رفع الخمسين وأبقىٰ ثوابها وقال: «**لا يبدَّل القولُ لديَّ، هي خمس، وهي خمسون في الأجر**»(٤).

فصــل

ص(٤٤٦)

وأمّا ما يظنّه بعض الغالطين أنّ المحبة أكمل من الخلّة، وأنّ إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله، فمن جهله فإنّ المحبة عامة، والخلّة خاصة، والخلّة نهاية المحبة، وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنّ الله اتّخذه خليلًا، ونفىٰ أن يكون له خليلٌ غيرُ ربّه،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (٧/ ٢٣٨٣) بنحوه.

(٤) جزء من حديث الإسراء، أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، وغيرهما.

مع إخباره بمحبّته لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم[١].

وأيضًا: فإنّ الله سبحانه يحبّ التوابين، ويحب المتطهرين، ويحبّ الصابرين ويحبّ المحسنين، ويحبّ المتقين، ويحب المقسطين، وخُلّته خاصّة بالخليلين والشابّ التائب حبيب الله [٢].

وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله.

فصــل

ص(٤٤٧)

وقد تقدّم أنّ العبد لا يترك ما يحبّه ويهواه إلّا لِما يحبّه ويهواه، لكن يترك أضعفَهما محبةً لأقواهما محبةً؛ كما أنّه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبّتُه أقوىٰ عنده من كراهة ما يفعله، أو لخلاصه من مكروهٍ كراهتُه عنده أقوىٰ من كراهة ما يفعله.

وتقدّم أنّ خاصّيّة العقل إيثار أعلىٰ المحبوبَيْن علىٰ أدناهما، وأيسر المكروهَيْن علىٰ أقواهما، وتقدّم أنّ هذا كمال قوّة الحبّ والبغض.

ولا يتمّ له هذا إلّا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب؛ فإنّ التخلّف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إمّا لضعف الإدراك بحيث إنّه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه علىٰ ما هي عليه، وإمّا لضعفٍ في النفس وعجزٍ في القلب لا يطاوعه لإيثار الأصلح له، مع علمه بأنّه الأصلح. فإذا صحّ إدراكه، وقويت نفسه، وتشجّع القلب علىٰ إيثار المحبوب الأعلىٰ والمكروه الأدنىٰ، فقد وُفّق لأسباب السعادة.

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوىٰ من سلطان عقله وإيمانه، فيقهر الغالبُ الضعيفَ، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوىٰ من سلطان شهوته.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤)، وغيرهما.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة»، وأبو الشيخ في «كتاب الثواب» من حديث أنس بسندٍ ضعيفٍ، وبلفظ: «إنَّ الله يحبُّ الشابَّ التائبَ»؛ قاله العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٥).

وإذا كان كثيرٌ من المرضىٰ يحميه الطبيبُ عما يضرّه، فتأبىٰ عليه نفسه وشهوته إلّا تناولَه، ويقدّم شهوته علىٰ عقله، وتسميه الأطباء «عديم المروءة»؛ فهكذا أكثر مرضىٰ القلوب يؤثرون ما يزيد مرضَهم لقوة شهوتهم له.

فأصل الشرّ من ضعف الإدراك، وضعف النفس ودناءتها، وأصل الخير من كمال الإدراك، وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فالحبّ والإرادة أصل كلّ فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كلّ ترك ومبدؤه، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته.

ووجود الفعل الاختياري لا يكون إلّا بوجود سببه من الحبّ والإرادة، وأما عدم الفعل فتارةً يكون لعدم مقتضيه وسببه، وتارةً يكون لوجود البغض والكراهة المانع منه.

وهذا متعلَّق الأمر والنهي، وهو الذي يسمّىٰ الكفّ، وهو متعلّق الثواب والعقاب؛ وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك، هل هو أمر وجودي أو عدمي؟ والتحقيق أنّه قسمان: فالترك المضاف إلىٰ عدم السبب المقتضي عدميّ، والمضاف إلىٰ السبب المانع من الفعل وجودي.

فصل

ص(٤٤٩)

وكلُّ واحد من الفعل والترك الاختياريين إنّما يُؤثره الحيّ لِما فيه من حصول المنفعة التي يلتذّ بحصولها، أو زوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله؛ ولهذا يقال: شفىٰ صدره، وشفىٰ قلبه، قال:

هي الشفاءُ لدائي لو ظفرتُ بها ... وليس منها شفاء ُالداءِ مبذولُ(١)

---

(١) البيت لهشام بن عقبة، أخي ذي الرمة، وهو من شواهد سيبويه (١/ ٧١، ١٧٧).

وهذا مطلوب يُؤثِره العاقل، بل الحيوان البهيم؛ ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطًا قبيحًا، فيقصد حصول اللذّة بما يُعقِب عليه أعظمَ الألم، فيؤلم نفسه من حيثُ يظنّ أنّه يحصّل لذّتها، ويشفي قلبه بما يُعقب عليه غاية المرض.

وهذا شأن من قصَرَ نظره على العاجل، ولم يلاحظ العواقب.

وخاصَّةُ العقل: النظر في العواقب، فأعقَلُ الناسِ من آثر لذّته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة، وأسفهُ الخلقِ من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنغيصَ فيها ولا نقصَ بوجهٍ ما، بلذّة منغَّصة مشوبة بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء(١): فكّرتُ فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيتُ سعيهم كلّه في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنّما يسعون في دفع الهمّ والغمّ عن نفوسهم؛ فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب.

فقلتُ: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلّها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنّما يوصل إلى ضدّه، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقًا موصلة إلّا الإقبال على الله ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته على كلّ شيء.

فإنّ سالك هذه الطريق إن فاته حظّه من الدنيا فقد ظفر بالحظّ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كلّ شيء، وإن فاته فاته كلّ شيء. وإن ظفر بحظّه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذه الطريق ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته. وبالله التوفيق.

---

(١) هو ابن حزم، وقد لخص المؤلفُ كلامه. انظر: «الأخلاق والسير» (١٣-١٦).

ص(٤٥١)

فصل

والمحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره.

والمحبوب لغيره لا بُدّ أن ينتهي إلىٰ المحبوب لنفسه، **دفعًا** للتسلسل المحال، وكلّ ما سوىٰ المحبوب الحقّ فهو محبوب لغيره، وليس شيء يُحَبّ لنفسه إلا الله وحده، وكلّ ما سواه مما يُحَبّ فإنّما محبته تبع لمحبة الربّ تعالىٰ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه، فإنّها تبع لمحبته سبحانه، وهي من لوازم محبته، فإنّ محبة المحبوب توجب محبةَ ما يحبّه.

وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنّه محلّ فرقان بين المحبة النافعة لغيره، والتي لا تنفع، بل قد تضرّ.

فاعلم أنّه لا يُحَبّ لذاته إلّا مَن كماله من لِوازم ذاته، وإلهيتُه وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنّما يبغض ويكرَه لمنافاته محابَّه ومضادّته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوّة هذه المنافاة وضعفها، فما كان أشد منافاةً لمحابّه كان أشدّ كراهةً من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها.

فهذا ميزانٌ عادلٌ يوزن به موافقة الربّ ومخالفته، وموالاته ومعاداته، فإذا رأينا شخصًا يحبّ ما يكرهه الربّ تعالىٰ، ويكره ما يحبّه، علمنا أنّ فيه من معاداته بحسب ذلك، وإذا رأينا الشخص يحبّ ما يحبه الربّ، ويكره ما يكرهه، وكلّما كان الشيء أحبّ إلىٰ الربّ كان أحبّ إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إلىٰ الربّ كان أبغض إليه وأبعد منه = علمنا أنّ فيه من موالاة الربّ بحسب ذلك.

فتمسَّكْ بهذا الأصل غاية التمسّك في نفسك وفي غيرك.

فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابّه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تمزُّق ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا:

أحدهما: ما يلتذّ المحِبّ بإدراكه وحصوله.

والثاني: ما يتألّم به، ولكن يحتمله لإفضائه إلىٰ محبوبه، كشرب الدواء الكريه.

قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، فأخبر سبحانه أنّ القتال مكروه لهم، مع أنّه خير لهم لإفضائه إلىٰ أعظم محبوب وأنفعه.

والنفوس تحبّ الراحة والدعة والرفاهية، وذلك شرّ لها لإفضائه إلىٰ فوات هذا المحبوب، فالعاقل لا ينظر إلىٰ لذّة المحبوب العاجل فيؤثرها، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه، فإنّ ذلك قد يكون شرًّا له؛ بل قد يجلب عليه غاية الألم، ويفوّته أعظمَ اللذّة، بل عقلاء الدنيا يتحمّلون المشاقّ المكروهة لما يُعقِبهم من اللذة بعدها، وإن كانت منقطعة.

فالأمور أربعة:

- مكروهٌ يُوصِل إلىٰ مكروه.
- ومكروهٌ يوصل إلىٰ محبوب.
- ومحبوبٌ يوصل إلىٰ محبوب.
- ومحبوبٌ يوصل إلىٰ مكروه.

فالمحبوب الموصل إلىٰ المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين، والمكروه الموصل إلىٰ مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين.

بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان، وهما معترك الابتلاء والامتحان: فالنفس تؤثر أقربهما جوارًا منهما، وهو العاجل، والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهمًا، والقلب بين الداعيين، وهو إلىٰ هذا مرةً، وإلىٰ هذا مرةً.

وها هنا محلّ الابتلاء شرعًا وقدرًا، فداعي العقل والإيمان ينادي كل وقت:

حيَّ علىٰ الفلاح، عند الصباح يحمد القومُ السُّرىٰ، وفي الممات يحمد العبدُ التُّقَىٰ؛ فإن اشتدّ ظلام ليل المحبة، وتحكّم سلطان الشهوة والإرادة يقول [1]:

يا نفس اصبري فما هي إلّا ساعة ... ثم تنقضي ويذهب هذا كلُّه ويزولُ [2]

فصــل

ص(٤٥٥)

وإذا كان الحبُّ أصلَ كلِّ عملٍ من حقٍّ وباطلٍ؛ فأصلُ الأعمال الدينية حبُّ الله ورسوله، كما أنّ أصلَ الأقوال الدينية تصديقُ الله ورسوله.

وكلّ إرادةٍ تمنع كمال الحبّ لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة، أو شبهةٍ تمنع كمال التصديق؛ فهي معارِضة لأصل الإيمان أو مُضْعِفة له: فإنْ قويت حتىٰ عارضت أصلَ الحبّ والتصديق كانت كفرًا وشركًا أكبرَ، وإنْ لم تعارضه قدحتْ في كماله، وأثّرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب. وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكس الراغب.

فلا تصحّ الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال تعالىٰ عن إمام الحنفاء المحبين أنّه قال لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧]، فلم تصحّ لخليل الله الموالاة والخّلة إلّا بتحقيق هذه المعاداة، فإنّه لا وَلاءَ إلّا ببراء، ولا ولاءَ لله إلّا بالبراءة من كلّ معبود سواه، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤].

---

(١) جواب إنْ، وكذا جاء مضارعًا مرفوعًا في جميع النسخ.

(٢) أنشده المؤلف في «البدائع» (٦٧٢)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٢٢٩)، و«روضة المحبين» (٨٠)، وللبهاء زهير بيت يشبهه، وصدره (ديوانه: ٢١٠):

وما هي إلا غَيبة ثم نلتقي

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦،٢٨]؛ أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كلّ معبود سواه كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة.

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أُسِّست الملّة، ونُصِبت القبلة، وجُرّدت سيوف الجهاد، وهي محض حقّ الله علىٰ جميع العباد.

وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذريّة في هذه الدار، والمنجيةُ من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشورُ الذي لا يدخل أحد الجنةَ إلّا به، والحبُل الذي لا يصل إلىٰ الله من لم يتعلّق بسببه.

وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلىٰ شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميّزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان.

وهي العمود الحامل للفرض والسنّة، «**ومن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنّة**»(١).

وروح هذه الكلمة وسرّها: إفراد الربّ -جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جدّه، ولا إله غيره- بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة؛ فلا يُحَبَّ سواه، وكلّ ما يُحَبّ غيره

(١) هذا لفظ حديث أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٢٢٠٣٤)، والبزار (٢٦٢٦) والحاكم (١٢٩٩)، وصححه.

وإنّما يحَبّ تبعًا لمحبته وكونِه وسيلةً إلىٰ زيادة محبته، ولا يُخاف سواه ولا يُرجىٰ سواه، ولا يُتوكَّل إلّا عليه، ولا يُرغَب إلّا إليه، ولا يُرهَب إلّا منه، ولا يُحلَف إلّا باسمه، ولا ينذَر إلّا له، ولا يتاب إلّا إليه، ولا يطاع إلّا أمرُه، ولا يتحسّب إلّا به، ولا يستغاث في الشدائد إلّا به، ولا يلتجأ إلّا إليه، ولا يُسجَد إلّا له، ولا يُذبَح إلّا له وباسمه. ويجتمع ذلك كلّه في حرف واحد، وهو أن لا يَعْبُدَ إلّا إيّاه بجميع أنواع العبادة، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

ولهذا حرَّم اللهُ علىٰ النار مَن شهد أن لا إله إلا الله حقيقةَ الشهادة (١)، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٣٣]، فيكون قائمًا بشهادته في ظاهره وباطنه، في قلبه وقالبه، فإنّ من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمةً إذا نُبِّهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعةً، ومنهم من تكون إلىٰ القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة وروح مريضة إلىٰ الموت أقرب، وروح إلىٰ الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**إنّي لأعلم كلمةً لا يقولها عبدٌ عند الموتِ إلّا وجدتْ روحُه لها رَوحًا**»(٢).

فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أنّ حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أنّ من مات علىٰ هذه الكلمة فهو في الجنّة يتقلّب فيها، فمن عاش علىٰ تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلّب في جنة المأوىٰ، وعيشه أطيب عيش، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

---

(١) كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١١٠١) وابن حبان (٢٠٥)، بإسنادٍ صحيح.

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنّةُ المعرفة والمحبة والإنسِ بالله والشوقِ إلىٰ لقائه والفرح والرضىٰ به وعنه مأوىٰ روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنّة مأواه ها هنا، كانت جنة الخلد مأْواه يوم المعاد، ومن حُرِم هذه الجنّة فهو لتلك أشدّ حرمانًا، والأبرار في النعيم، وإن اشتدّ بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا.

قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وطيب الحياة جنة الدنيا.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥].

فأيّ نعيمٍ أطيبُ من شرح الصدر؟ وأيّ عذابٍ أمرُّ من ضيق الصدر؟ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرّهم قلبًا، وهذه جنةٌ عاجلةٌ قبل الجنّةِ الآجلةِ.

قال النبيُّ ﷺ: «**إذا مَررتُم بِرياض الجنّة فارتعُوا**»، قالوا: وما رياض الجنّة؟ قال: «**حِلَق الذِّكر**»[1].

ومن هذا قوله ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنّةِ**»[2].

---

(١) تقدّم تخريجه في ص (١٧٣).

(٢) تقدّم تخريجه في ص (١٧٤).

ومن هذا قوله، وقد سألوه عن وصاله في الصوم، فقال: «**إنّي لستُ كهيئتكم، إنّي أظَلُّ عند ربّي يُطعمني ويُسقيني**»(١).

فأخبر ﷺ أنّ ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسّي، وأنّ ما يحصل له من ذلك أمر يختصّ به، لا يشركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه، وينوب منابه، ويغني عنه، كما قيل(٢):

لها أحاديث من ذكراك تَشغلها ... عن الشراب وتُلهيها عن الزادِ

لها بوجهك نور تستضيء به ... ومن حديثك في أعقابها حادِ

إذا شكَتْ من كَلال السيرِ أوعِدُها ... رَوْحَ اللقاء فتحيا عند ميعادِ

فصل

وكلّما كان وجود الشيء أنفعَ للعبد وهو إليه أحوج؛ كان تألّمه بفقده أشدّ، **ص(٤٦١)** وكلّما كان عدمه أنفع له كان تألّمه بوجوده أشدّ، ولا شيء علىٰ الإطلاق أنفع للعبد من إقباله علىٰ الله، واشتغاله بذكره، وتنعّمه بحبه، وإيثاره لمرضاته؛ بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلّا بذلك، فعدمه آلَمُ شيء له، وأشدّه عذابًا عليه، وإنما يغيّب الروحَ عن شهود هذا الألم والعذاب اشتغالُها بغيره، واستغراقها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوت بفراق أحبِّ شيء إليها وأنفعه لها.

وهذا بمنزلة السكران، المستغرقِ في سكره، الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوت وحسرته، حتىٰ إذا صحا وكُشِف عنه غطاءُ السكر، وانتبه من رقدة الخمر، فهو أعلم بحاله حينئذ.

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥)، وغيرهما.

(٢) هذه الأبيات لإدريس بن أبي حفصة من قصيدة له في إسحاق بن إبراهيم المصعبي. انظر: «الأنوار» للشمشاطي (١/ ٤٠٠).

وهكذا الحال سواءٌ عند كشف الغطاء، ومعاينة طلائع الآخرة، والإشراف علىٰ مفارقة الدنيا، والانتقال منها إلىٰ الله؛ بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشدّ بأضعاف مضاعفة، فإنّ المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنّه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له؛ فكيف بمن مصيبته بما لا عوضَ عنه، ولا بدلَ منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها؟ فلو قضىٰ الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، وإنّ الموت لَيعود أعظمَ أمنيته وأكبرَ حسراته.

هذا لو كان الألم علىٰ مجرّد الفوات، فكيف وهناك من العذاب علىٰ الروح والبدن بأمور أخرىٰ وجودية ما لا يُقدَر قدرُه؟ فتبارك من حمّل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي!

فأعرض الآن علىٰ نفسك أعظمَ محبوب لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه، فأصبحتَ وقد أُخِذ منك، وحيل بينك وبينه، أحوجَ ما كنتَ إليه، كيف يكون حالك؟ هذا، ومنه كلّ عوض، فكيف بمن لا عوض عنه؟

من كلّ شيء إذا ضيّعتَه عوض ... وما من الله إنْ ضيّعتَه عوضُ(١)

وفي أثر إلهي: «ابنَ آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعَبْ، وتكفّلت برزقك فلا تتعَبْ، ابنَ آدم اطلبْني تجدْني، فإن وجدتَني وجدتَ كلّ شيء، وإن فُتُّك فاتك كلُّ شيء، وأنا أحب إليك من كلّ شيء»(٢).

---

(١) تقدم في ص (١٠٥).

(٢) وهو أثر إسرائيلي كما نصّ علىٰ ذلك شيخُ الإسلام في «الفتاوىٰ» (٨/ ٥٢).

فصـــل

ص(٤٦٣)

ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يُذكَر فيها في حقّ الله تعالىٰ ما يختصّ به ويليق به من أنواعها، ولا يصلح إلّا له وحده، مثل العبادة والإنابة ونحوهما؛ فإنّ العبادة لا تصلح إلّا له وحده، وكذلك الإنابة.

وقد تُذكر المحبةُ باسمها المُطلَق، كقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة:١٦٥].

وأعظم أنواع المحبة المذمومة: المحبّة مع الله، التي يسوّي المحبُّ فيها بين مَحبَّتِهِ لله ومَحبَّتِهِ للندّ الذي اتّخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودة: محبة الله وحده، ومحبة ما أحبّ، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها، التي لا ينجو أحدٌ من العذاب إلّا بها.

والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها، التي لا يبقي في العذاب إلّا أهلها، فأهل المحبة الذين أحبّوا الله، وعبدوه وحده لا شريك له، لا يدخلون النار، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنّه لا يبقىٰ فيها منهم أحد.

ومدار القرآن علىٰ الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن المحبة الأخرىٰ ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص النوعين، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبودِ كليهما وأخباره عن فعله بالنوعين، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فالقرآن في شأن النوعين.

وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم إنّما هو عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمّنة لكمال حبّه، وكمال الخضوع والذلّ له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوىٰ.

وقد ثبت في الصحيحين(١) من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «**والذي نفسي بيده، لا يُؤمنُ أحدُكم حتىٰ أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

وفي صحيح البخاري(٢) أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنتَ أحبُّ إليّ من كلّ شيء إلّا من نفسي، فقال: «**لا يا عمر، حتىٰ أكون أحبَّ إليك من نفسك**»، فقال: والذي بعثك بالحق لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، قال: «**الآن يا عمر**».

فإذا كان هذا شأن محبّة عبده ورسوله، ووجوب تقديمها علىٰ محبّة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين، فما الظنّ بمحبة مُرسِله سبحانه وتعالىٰ ووجوبِ تقديمها علىٰ محبة ما سواه؟

ومحبة الربّ تعالىٰ تختصّ عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفرادِه سبحانه بها، فإنّ الواجب له من ذلك أن يكون أحبَّ إلىٰ العبد من ولده ووالده، بل مِن سَمعه وبَصره ونفسِه التي بين جنبيه، فيكون إلهُه الحقّ ومعبودُه أحبَّ إليه من ذلك كلّه.

والشيء قد يُحَبّ من وجه دون وجه، وقد يُحَبّ لغيره، وليس شيء يُحَبّ لذاته من كلّ وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلّا له، و ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] والتألّه هو المحبة، والطاعة، والخضوع.

فصل

ص(٤٦٦)

وكلّ حركةٍ في العالم العُلويِّ والسُّفليِّ فأصلُها المحبةُ، فهي علّتها الفاعليّة والغائيّة.

وذلك لأنّ الحركات ثلاثة أنواع: حركة اختيارية إرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، وغيرهما.

(٢) برقم (٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

والحركة الطبيعية أصلها السكون، وإنّما يتحرّك الجسم إذا خرج عن مستقرّه ومركزه الطبيعي، فهو يتحرّك للعود إليه، وخروجه عن مركزه ومستقره إنّما هو بتحريك القاسر المحرِّك له، فله حركة قسرية بمحرِّكه وقاسره، وحركة طبيعية بذاته يطلب بها العود إلىٰ مركزه، وكلا حركتيه تابعة للقاسر المحرِّك، فهو أصل الحركتين.

والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخريين، وهي متابعة للإرادة والمحبة، فصارت الحركات الثلاث تابعةً للمحبة والإرادة.

والدليل علىٰ انحصار الحركات في هذه الثلاث أنّ المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الإرادية، وإن لم يكن له شعور بها: فإمّا أن تكون علىٰ وفق طبعه أو لا، فالأولىٰ هي الطبيعية، والثانية القسرية.

إذا ثبت هذا، فما في السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنّة في بطون أمهاتها، فإنّما هي بواسطة الملائكة المدبّرات أمرًا والمقسّمَات أمرًا، كما دلّ علىٰ ذلك نصوص القرآن والسنة في غير موضع.

والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة، فإنّ الله وكّل بالرحم ملائكة، وبالقَطْر ملائكة، وبالنبات ملائكة، وبالرياح، وبالأفلاك، وبالشمس والقمر والنجوم.

ووكّل بكل عبد أربعة من الملائكة: كاتبَين علىٰ يمينه وشماله، وحافظَين من بين يديه ومن خلفه، ووكّل ملائكةً بقبض روحه وتجهيزها إلىٰ مستقرّها من الجنّة أو النار، وملائكةً بمسألته وامتحانه في قبره وعذابه هناك أو نعيمه، وملائكةً تسوقه إلىٰ المحشر إذا قام من قبره، وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنّة.

ووكّل بالجبال ملائكةً، وبالسحاب ملائكةً تسوقه حيث أُمِرَتْ به، وبالقَطْر ملائكةً تُنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله، ووكّل ملائكةً بغرس الجنّة وعمل آلتها وفرشها وبنائها والقيام عليها، وملائكةً بالنار كذلك.

فأعظم جندِ الله الملائكةُ، ولفظ «الملَك» يُشعِر بأنّه رسول منفِّذٌ لأمر غيره وليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كلّه لله، وهم يدبّرون الأمر، ويقسّمونه بأمر الله وإذنه.

قال تعالىٰ إخبارًا عنهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

وأقسم سبحانه بطوائف الملائكة المنفّذين لأمره في الخليقة، كما قال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات:١-٣]، وقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات:١-٥]، وقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:١-٥].

وقد ذكرنا معنىٰ ذلك وسرّ الإقسام به في كتاب «أيمان القرآن»[1].

وإذا عُرف ذلك فجميع تلك المحبّات والحركات والإرادات والأفعال هي عبادةٌ منهم لربّ الأرض والسماوات، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعةٌ لها؛ فلولا الحبّ ما دارت الأفلاك، ولا تحركت الكواكب النيّرات، ولا هبّت الرياح المسخَّرات، ولا مرّت السُّحُب الحاملات، ولا تحرّكت الأجنّة في بطون الأمهات، ولا انصاع عن الحَبّ أنواع النبات، ولا اضطرَبت أمواج البحار الزاخرات، ولا تحركت المدبّرات والمقسّمات، ولا سبّحت بحمد فاطرها الأرضون والسماوات، وما فيها من أنواع المخلوقات، فسبحان من تسبّحه السماوات السبع والأرض ومن فيهنّ، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

---

(١) وهو المطبوع بعنوان «التبيان في أقسام القرآن»، انظر: ص (٨٣، ٨٩، ٢٥٨).

ص(٤٦٩)

فصـــل

إذا عُرف ذلك فكلّ حيّ له إرادة ومحبة وعمل بحسبه، وكلّ متحرّك فأصل حركته: المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلّا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلّا بإبداعه وحده.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ولم يقل سبحانه: لَما وُجدتا ولكانتا معدومتين، ولا قال: لَعُدِمتا، إذ هو سبحانه قادر علىٰ أن يُبقيهما علىٰ وجه الفساد؛ لكن لا يمكن أن يكونا علىٰ وجه الصلاح والاستقامة، إلّا بأن يكون الله وحده هو معبودَهما ومعبودَ ما حَولاه وسكن فيهما، فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإنّ كلّ إله كان يطلب مغالبةَ الآخر، والعلوَّ عليه، وتفرّدَه دونه بالإلهية؛ إذ الشرك نقص ينافي كمال الإلهية، والإله لا يرضىٰ لنفسه أن يكون إلهًا ناقصًا، فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله وحده، والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجزُ كلّ منهما ونقصُه، ولم يكن تامَّ الإلهية، فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما، حاكم عليهما، وإلّا ذهب كلّ منهما بما خلق، وطلب كلّ منهما العلوّ علىٰ الآخر.

وفي ذلك فساد أمر السماوات والأرض ومن فيهما، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه مِلكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان، والشَّوْل[1] إذا كان فيه فحلان.

وأصل فساد العالم إنّما هو من اختلاف الملوك والخلفاء، ولهذا لم يطمع

---

(١) الشَّوْلُ: النُّوق التي خفّ لبنها وارتفع ضرعها وأتىٰ عليها من نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية، الواحدة شائلة. وأمّا الشائل بلا هاء فهي الناقة التي تشول بذنَبها لِلِّقاح ولا لبن لها أصلًا، والجمع شُوَّلٌ.

أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلّا في زمن تعدّد ملوك المسلمين واختلافهم وانفراد كلّ منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلوّ علىٰ بعض.

فصلاح السماوات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات علىٰ أتمّ نظام من أظهر الأدلّة علىٰ أنّه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كلّ شيء قدير، وأنّ كلّ معبود من لدن عرشه إلىٰ قرار أرضه باطل إلّا وجهَه الأعلىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

فقيل: المعنىٰ: لابتغَوا السبيلَ إليه بالمغالبة والقهر، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدلّ عليه قولُه في الآيةِ الأخرىٰ: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال شيخنا(١): والصحيح أنّ المعنىٰ: لابتغوا إليه سبيلًا بالتقرّب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه، وهم لو كانوا آلهةً كما تقولون لكانوا عبيدًا له؟

قال: ويدلّ علىٰ هذا وجوه:

منها: قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

---

(١) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٥٧٧)، و«درء التعارض» (٩/ ٣٥٠)، و«رسالة في قنوت الأشياء» (٢٣).

أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]. أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي، كما أنتم عبادي، يرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم دوني؟

الثاني: أنّه سبحانه لم يقل: لابتغوا عليه سبيلًا، بل قال: لابتغوا إليه سبيلًا. وهذا اللفظ إنّما يستعمل في التقرب، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]، وأمّا في المغالبة وإنّما يستعمل بعَلَىٰ كقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:٣٤].

الثالث: أنّهم لم يقولوا: إنّ آلهتهم تغالبه وتطلب العلوّ عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء:٤٢]، وهم إنّما كانوا يقولون: إنّ آلهتهم تبتغي التقرّبَ إليه، وتُقرِّبهم زلفىٰ إليه، فقال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدًا له، فلماذا تعبدون عبيدَه مِن دونه؟

فصل

ص(٤٧٣)

والمحبّة لها آثارٌ وتوابعُ ولوازمُ وأحكامٌ، سواءٌ كانت محمودةً أو مذمومةً، نافعةً أو ضارّةً، من الذوق، والوجد، والحلاوة، والشوق، والإنس، والاتّصال بالمحبوب والقرب منه، والانفصال عنه والبعد منه، والصدّ والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة هي المحبّة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان سعادته.

والضارّة هي التي تجلب لصاحبها ما يضرّه في دنياه وآخرته، وهي عنوان شقاوته.

ومعلوم أنّ الحيّ العاقل لا يختار محبةَ ما يضرّه ويُشقيه، وإنّما يصدر ذلك عن جهلٍ وظلمٍ، فإنّ النفس قد تهوىٰ ما يضرّها ولا ينفعها -وذلك ظلم من الإنسان

لنفسه- إمّا بأن تكون جاهلةً بحال محبوبها بأنْ تهوىٰ الشيء وتحبّه غيرَ عالمةٍ بما في محبته من المضرّة، وهذا حال من اتّبع هواه بغير علم؛ وإمّا عالمةً بما في محبته من المضرّة، لكن تُوثر هواها علىٰ علمها؛ وقد تتركّب محبّتها من أمرين: اعتقاد فاسد، وهوىٰ مذموم. وهذا حال من اتّبع الظنّ وما تهوىٰ الأنفس.

فلا تقع المحبة الفاسدة إلّا من جهلٍ واعتقادٍ فاسد، أو هوًىٰ غالبٍ، أو ما تركّب من ذلك، وأعان بعضه بعضًا، فتتفق شبهةٌ يشتبه بها الحقّ بالباطل تزيّن له أمرَ المحبوب، وشهوةٌ تدعوه إلىٰ حصوله؛ فيتساعد جيش الشبهة والشهوة علىٰ جيش العقل والإيمان، والغلبةُ لأقواهما.

وإذا عرف هذا، فتوابع كلّ نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه(١):

فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد، توابعُها كلُّها نافعة له، حكمها حكم متبوعها، فإن بكىٰ نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه. فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوّة.

والمحبّة الضارّة المذمومة، توابعُها وآثارها كلّها ضارّة لصاحبها، مُبعِدة له من ربّه، كيفما تقلّب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد.

وهذا شأن كلّ فعلٍ تولّد عن طاعة ومعصية: فكلُّ ما تولّد عن الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقربة، وكلُّ ما تولّد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

(١) كذا، ووجه الكلام: «فتوابع كلّ نوع ... لها حكم متبوعها».

فأخبر سبحانه في الآية الأولىٰ أنّ المتولّد عن طاعتهم وأفعالهم يُكتَب لهم به عمل صالح، وأخبر في الثانية أنّ أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتَب لهم أنفسُها، والفرق بينهما أنّ الأول ليس من فعلهم، وإنّما تولد عنه فكُتِب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أفعالهم فكُتبت لهم.

فليتأمَّلْ قتيلُ المحبة هذا الفصل حقَّ التأمل ليعلم ما له وما عليه:

سيعلم يومَ العرض أيَّ بضاعةٍ أضاعَ وعند الوزن ما كان حَصّلا[(١)]

فصل

ص(٤٧٦)

وكما أنّ المحبة والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ كما تقدّم، فهي أصلُ كلّ دينٍ، سواءٌ كان حقًّا أو باطلًا، فإنّ الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبّةُ والإرادةُ أصل ذلك كلّه.

والدينُ هو الطاعةُ والعادةُ والخلُقُ، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلُقًا وعادةً؛ ولهذا فُسِّرَ الخلُقُ بالدين في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال الإمام أحمد، عن ابن عيينة، قال ابن عباس: لعلىٰ دين عظيم[(٢)].

وسئلت عائشة عن خُلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقَه القرآنُ[(٣)].

والدِّين فيه معنىٰ الإذلال والقهر، وفيه معنىٰ الذلّ والخضوع والطاعة؛ فلذلك

---

(١) أنشد المؤلف في إغاثة اللهفان (٤٢٨ - ٤٢٩) مقطوعة بائية في أحد عشر بيتًا لعلها له، ومنها هذا البيت، إلا أنّ فيه هناك: «وعند الوزن ما خفّ أورَبَا».

(٢) أخرجه الطبري (٢٩/ ١٨) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس فذكره، وسنده حسن، ورواه عطاء عن ابن عباس؛ ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٧٤٦).

يكون من الأعلىٰ إلىٰ الأسفل، كما يقال: دِنتُه فدانَ، أي: قهرته فذلّ.

قال الشاعر[1]:

هـو دانَ الرِّبـابَ إذ كرهـوا الـ ـدِّينَ فأضْحَـوا بعـزّة وصِيـالِ

ويكون من الأدنىٰ للأعلىٰ، كما يقال: دِنْتُ اللهَ، ودِنْتُ لِلَّهِ، وفلان لا يدين اللهَ دينًا، ولا يدين الله بدينٍ، فدان اللهَ؛ أي: أطاع الله وأحبّه وخافه، ودان لله؛ أي: خشع له وخضَع وذلّ وانقاد.

والدين الباطن لا بُدَّ فيه من الحبّ والخضوع كالعبادة سواءً، بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحبّ، وإن كان فيه انقياد وذلّ في الظاهر.

وسمّىٰ الله سبحانه يومَ القيامة «يومَ الدين»؛ لأنّه اليوم الذي يدين فيه الناسَ بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ؛ وذلك يتضمّن جزاءهم وحسابهم، فلذلك فُسِّر بيوم الجزاء ويوم الحساب.

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة:٨٦، ٨٧]، أي: هلّا تردّون الروح إلىٰ مكانها، إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيّين.

وهذه الآية تحتاج إلىٰ تفسير؛ فإنّها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بدّ أن يكون الدليل مستلزمًا لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلىٰ المدلول؛ لِمَا بينهما من التلازم، فكلُّ ملزومٍ دليلٌ علىٰ لازمه، ولا يجب العكس.

ووجه الاستدلال أنّهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربّهم، وأنكروا قدرته وربوبيّته وحكمته: فإمّا أن يُقرّوا بأنّ لهم ربًّا قاهرًا لهم، متصرّفًا فيهم كما يشاء، يميتهم إذا شاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم؛ وإمّا أن لا يُقرّوا بربٍّ هذا شأنُه. فإنْ أقرّوا به آمنوا بالبعث والنشور والدين

(١) هو الأعشىٰ في «ديوانه» ص(٦١) مع اختلاف يسير.

الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به فقد زعموا أنّهم غير مربوبين ولا محكومٍ عليهم، ولا لهم ربٌّ يتصرّف فيهم كما أراد، فهلّا يقدرون علىٰ دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلىٰ ردّ الروح إلىٰ مستقرّها إذا بلغت الحلقوم؟

وهذا خطابٌ للحاضرين عند المحتضَر، وهم يعاينون موته؛ أي: فهلّا تردّون روحه إلىٰ مكانها إن كان لكم قدرة وتصرّف، ولستم مربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يُمضي عليكم أحكامه، وينفّذ فيكم أوامره؟

وهذا غايةُ التعجيز لهم إذ تبيّن عجزُهم عن ردّ نفس واحدة من مكان إلىٰ مكان، ولو اجتمع علىٰ ذلك الثقلان!

فيالها من آية دالّة علىٰ ربوبيته سبحانه، ووحدانيّته، وتصرّفه في عباده، ونفوذ أحكامه فيهم وجرَيانها عليهم!

والدين دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي.

وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله أمرًا أو جزاءً، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإنّ ما شرعه سبحانه وأمر به يحبّه ويرضاه، وما نهىٰ عنه فإنّه يكرهه ويبغضه لمنافاته يحبّه ويرضاه، فهو يحب ضدّه؛ فعاد دينه الأمري كلّه إلىٰ محبته ورضاه.

ودين العبد لله به إنّما يُقبل إذا كان عن محبّةٍ ورضىٰ، كما قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّدٍ رسولًا**»[1]، فهذا الدين قائم بالمحبّة، وبسببها شُرِع، ولأجلها شُرِعَ، وعليها أُسِّس.

وكذلك دينه الجزائي، فإنّه يتضمن مجازاةَ المحسنِ بإحسانه والمسيءِ بإساءته، وكلٌّ من الأمرين محبوب للربّ، فإنّهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحبّ أسماءه وصفاته، ويحبّ مَن يحبّها.

(١) أخرجه مسلم (٣٤).

وكلّ واحد من الدِّينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه سبحانه، فهو علىٰ صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن نبيّه هود أنّه قال لقومه: ﴿أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

ولَمّا علم نبيّ الله أنّ ربّه علىٰ صراط مستقيم في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدّس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل، والحكمة، والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب في موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال كلِّ ذلك في أماكنه ومحالّه اللائقة به، بحيث يستحقّ علىٰ ذلك كمالَ الحمد والثناء = أوجب له ذلك العلمُ والعرفانُ أنْ نادىٰ علىٰ رؤوس الملأ من قومه بجَنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرّد لله: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي﴾[هود: ٥٤ - ٥٦].

ثمّ أخبر عن عموم قدرته وقهره لكلّ ما سواه، وذلّ كلّ شيء لعظمته، فقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ فكيف أخاف ما ناصيتُه بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلّا من أجهل الجهل وأقبح الظلم!

ثمّ أخبر أنّه سبحانه علىٰ صراط مستقيم، في كلّ ما يقضيه ويقدّره، فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه فإنّ ناصيته بيده، ولا أخاف جوره ولا ظلمه فإنّه علىٰ صراط مستقيم.

فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمُه، عدلٌ فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد،

لا يخرج تصرّفُه في عباده عن العدل والفضل: إن أعطىٰ وأكرَم وهدَىٰ ووفَّق، فبفضله ورحمته، وإن منَع وأهانَ وأضلّ وخذَلَ وأشقىٰ، فبعدله وحكمته. وهو علىٰ صراط مستقيم في هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح: «**ما أصاب عبدًا قطّ همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهمّ إنّي عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمُك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسمٍ هو لك، سمّيتَ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همّي وغمّي = إلّا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحًا**»[1].

وهذا يتناول حكم الربّ الكوني والأمري وقضاءَه الذي يكون باختيار العبد وغير اختياره، فكلا الحكمين ماضٍ في عبده، وكلا القضائين عدلٌ فيه. فهذا الحديث مشتقّ من هذه الآية، بينهما أقرب نسب.

فصل

ص(٤٨٢)

ونختم الجواب بفصلٍ يتعلّق بعشق الصور، وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة، وإن كانت أضعافَ ما يذكره ذاكرٌ، فإنّه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد نفس التوحيد كما تقدّم، وكما سنقرّره أيضًا إن شاء الله.

والله سبحانه إنّما حكىٰ هذا المرض عن طائفتين من الناس، وهما: اللوطيّة، والنساء.

فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودَتْه وكادَتْه به، وأخبر عن الحال

(١) تقدم تخريجه في ص (١٩).

التي صار إليها يوسف بصبره وعفّته وتقواه، مع أنّ الذي ابتلي به أمرٌ لا يصبر عليه إلّا من صبّره الله عليه؛ فإنّ موافقة الفعل بحسب قوّة الداعي وزوال المانع، **وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:**

أحدها: ما ركّبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلىٰ المرأة كما يميل العطشان إلىٰ الماء والجائع إلىٰ الطعام، حتىٰ إنّ كثيرًا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يُذَمّ إذا صادف حِلًّا بل يحمد، كما في كتاب «الزهد» للإمام أحمد[1] من حديث يوسف بن عطيّة الصفَّار، عن ثابت عن أنس، عن النبيِّ ﷺ: «**حُبب إليَّ من دُنياكم النساء والطِّيب، أصبرُ عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهنّ**».

الثاني: أنّ يوسف عليه السلام كان شابًّا، وشهوة الشباب وحدّته أقوىٰ.

الثالث: أنه كان عَزَبًا ليس له زوجة ولا سُرِّيّة تكسر شدّة الشهوة.

الرابع: أنّه كان في بلاد غُربةٍ يتأتّىٰ للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتّىٰ له في وطنه بين أهله ومعارفه.

---

(١) ليس في المطبوع، وقد أحال عليه المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٣٧٧)، والزيلعي في «تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الكشاف» (١/ ١٩٦) من طريق أبي معمر، وأخرجه ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٣٥) من طريق قتيبة بن سعيد كلاهما عن يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله جل وعلا جعل قرّة عيني في الصلاة، وحبّب إليّ الطيب كما حبّب إلىٰ الجائع الطعام، وإلىٰ الظمآن الماء، والجائع يشبع والظمآن يروىٰ، وأنا لا أشبع من الصلاة»، والحديث لا يصح.

تنبيه علىٰ جملة: (أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن): تعقب السيوطيُّ الزركشيَّ في إيراده هذه الجملة، بأنه مرّ علىٰ الزهد لأحمد مرارًا فلم يجدها، والذي فيه: «قرّة عيني في الصلاة، وحبب إليّ النساء والطيب، والجائع يشبع، والظمان يروىٰ، وأنا لا أشبع من النساء»، فلعله أراد هذا الطريق. انظر: «فيض القدير» (٣/ ٣٧).

الخامس: أنّ المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث إنّ كلَّ واحدٍ من هذَيْن الأمرَيْن يدعو إلىٰ مواقعتها.

السادس: أنّها غير ممتنعة ولا آبية، فإنّ كثيرًا من الناس يزيل رغبتَه في المرأة إباؤها وامتناعها، يجد في نفسه من ذلّ الخضوع والسؤال لها.

وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادةً وحبًّا، كما قال الشاعر:

وزادني كلَفًا في الحبّ أنْ مَنَعتْ أحبُّ شي إلىٰ الإنسان ما مُنِعا(١)

فطباع الناس مختلفةٌ في ذلك:

فمنهم من يتضاعف حبّه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحلّ عند إبائها وامتناعها، وأخبرني بعضُ القضاة أنّ إرادته وشهوته تضمحلّ عند امتناع امرأته أو سُرّيته وإبائها بحيث لا يعاودها.

ومنهم من يتضاعف حبّه وإرادته بالمنع، وتشتدّ شهوته كلّما مُنِع، ويحصل له من اللذّة بالظفر نظيرُ ما يحصل من لذّة بالظفر بالصيد بعد امتناعه ونفاره، واللذّة بإدراك المسألة بعد استعصائها وشدّة الحرص علىٰ إدراكها.

السابع: أنّها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفتْه مؤنة الطلب وذلَّ الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنّه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشىٰ إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنّه لا يخشىٰ أن تنُمّ عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنّها هي الطالبة والراغبة، وقد غلَّقت الأبواب، وغيَّبت الرقباء.

العاشر: أنّه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكَر عليه، فكان الإنسُ سابقًا علىٰ الطلب، وهو من أقوىٰ الدواعي؛ كما

(١) البيت للأحوص في شعره المجموع ص(١٩٥).

قيل لامرأةٍ شريفةٍ من أشراف العرب[١]: ما حملكِ علىٰ الزنىٰ؟ قالت: «قُربُ الوِساد، وطول السِّواد»[٢]، تعني: قرب وساد الرجل من وسادي، وطول السِّواد بيننا.

الحادي عشر: أنّها استعانت عليه بأئمّة المكر والاحتيال، فأرته إيّاهنّ، وشكت حالها إليهنّ، لتستعين بهنّ عليه؛ فاستعان هو بالله عليهنَّ، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

الثاني عشر: أنّها تواعدته بالسجن والصَّغار، وهذا نوع إكراه؛ إذ هو تهديد ممن يغلب علىٰ الظنّ وقوعُ ما هدَّد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أنّ الزوج لم يظهر منه من الغَيرة والنَّخوة ما يفرّق به بينهما، ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلهما به أن قال ليوسف: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾، وللمرأة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٢٩]، وشدة الغَيرة في الرجل من أقوىٰ الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلّها، فآثر مرضاةَ الله وخوفَه، وحمله حبُّه لله علىٰ أن اختار السجن علىٰ الزنىٰ، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ﴾ [يوسف:٣٣]، وعلم أنّه لا يطيق صرفَ ذلك عن نفسه، وأنّ ربّه تعالىٰ إنْ لم يعصمْه ويصرِفْه[٣] عنه صبا إليهنّ بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربّه وبنفسه.

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكَم ما يزيد علىٰ ألف فائدة[٤]، لعلّنا إن وفّق الله أن نفردها في مصنّف مستقلّ[٥].

---

(١) هي هند بنت الخُسّ الإيادية، امرأة جاهلية ذات دهاء وفصاحة.

(٢) السواد: المسارّة والمناجاة.

(٣) يعني: كيدهن.

(٤) وقال نحوه في «شفاء العليل» (٢٢٤).

(٥) لم نجد إشارة إليه في موضع آخر، ولا ندري أتمكن من تأليفه أم لا.

ص(٤٨٧)

فصل

والطائفة الثانية الذين حكىٰ عنهم العشق هم اللوطيّة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر:٦٧-٧٢]، فهذه عشقت.

فحكاه سبحانه عن طائفتين عشِقَ كلٌّ منهما ما حُرِّم عليه من الصور، ولم يبال بما في عشقه من الضرر.

وهذا داءٌ أعيا الأطبّاءَ دواؤه، وعزّ عليهم شفاؤه، وهو -لعمرُ الله- الداءُ العضال، والسمُّ القتّال، الذي ما عَلِقَ بقلب إلّا وعزّ علىٰ الورىٰ استنقاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلّا وصعب علىٰ الخلق تخليصها من ناره.

وهو أقسام: فإنّه تارةً يكون كفرًا، كمن اتّخذ معشوقَه نِدًّا يحبّه كما يحبّ الله، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه؟ فهذا عشقٌ لا يُغفر لصاحبه، فإنّه من أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يُشرَك به؛ وإنّما يُغفَر بالتوبة الماحية.

وعلامة هذا العشق الشركي الكفري أن يقدِّم العاشقُ رضا معشوقه علىٰ رضا ربّه، وإذا تعارض عنده حقُّ معشوقه وحظّه وحقُّ ربّه وطاعته قدّم حقَّ معشوقه علىٰ حقِّ ربه، وآثر رضاه علىٰ رضاه، وبذل لمعشوقه أنفَسَ ما يقدِر عليه، وبذل لربّه -إن بذل- أردأ ما عنده، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرّب إليه، وجعل لربه -إن أطاعه- الفضلة التي تفضُل عن معشوقه من ساعاته.

فتأمَّلْ حالَ أكثر عشّاق الصور، هل تجدها مطابقةً لذلك؟ ثمّ ضَعْ حالَهم في كِفَّة، وتوحيدَهم وإيمانَهم في كِفّة، وزِنْ وزنًا يُرضي الله ورسوله، ويطابق العدل.

وربما صرّح العاشق منهم بأنّ وصلَ معشوقه أحبُّ إليه من توحيد ربه، كما

قال العاشق الخبيث:

يترشّفْن من فمي رَشَفاتٍ   هنّ أحلىٰ فيه من التوحيد(١)

وكما صرّح الخبيث الآخر بأنّ وصلَ معشوقه أشهىٰ إليه من رحمة ربّه، -فعياذًا بك اللهم من هذا الخِذلان- فقال:

وصلُك أشهىٰ إلىٰ فؤادي   من رحمة الخالقِ الجليلِ(٢)

ولا ريب أنّ هذا العشق من أعظم الشرك.

وكثير من العشاق يصرّح بأنّه لم يبق في قلبه موضعٌ لغير معشوقه البتة، بل قد ملك معشوقُه عليه قلبَه كلَّه، فصار عبدًا محضًا من كلّ وجهٍ لمعشوقه! فقد رضي هذا من عبوديّة الخالق ﷻ بعبودية مخلوق مثله، فإنّ العبودية هي كمال الحبّ والخضوع، وهذا قد استفرغ قوّةَ حبّه وخضوعه وذلّه لمعشوقه، فقد أعطاه حقيقة العبودية.

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة، فإنّ تلك ذنبٌ كبيرٌ، لفاعله حكم أمثاله؛ ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك.

وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأن أُبتلىٰ بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إليّ من أن أبتلىٰ فيها بعشق يتعبّد لها قلبي ويشغله عن الله.

فصل

ص(٤٩٠)

ودواء هذا الداء القتّال: أن يعرف ما ابتُلي به من الداء المضادّ للتوحيد أولًا، ثمّ يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرّع إلىٰ الله سبحانه في صرف ذلك عنه وأن يراجع بقلبه إليه.

(١) من قصيدة للمتنبي قالها في صباه. انظر: «ديوانه» ص(٣٠).

(٢) سبق البيت مع قصته (٢٣٧).

وليس له دواءٌ أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلِصِينَ﴾(١) [يوسف:٢٤]، فأخبر سبحانه أنّه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه؛ فإنّ القلب إذا خلَص وأخلص عملَه لله لم يتمكّن منه عشق الصور، فإنّه إنّما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا(٢)

وليعلم العاقلُ أنّ العقلَ والشرعَ يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمرٌ يرىٰ فيه مصلحةً ومفسدةً وجب عليه أمران: أمر علميّ، وأمر عملي.

فالعلميّ طلبُ معرفة الراجح من طرفَي المصلحة والمفسدة، فإذا تبيّن له الرجحان وجب عليه إيثارُ الأصلح له.

ومن المعلوم أنّه ليس في عشق الصور مصلحة دينيّة ولا دنيويّة، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدَّر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحبِّ المخلوق وذكره عن حبِّ الربِّ تعالىٰ وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلّا ويقهر أحدهما صاحبه، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه، فإنّ من أحبَّ شيئًا غير الله عُذّب به، ولا بُدّ:

فما في الأرض أشقىٰ من محبّ ... وإن وَجَد الهوىٰ حلوَ المذاقِ
تراه باكيًا في كلّ حين ... مخافةَ فُرْقةٍ أو لاشتياقِ

---

(١) «المخلصين» بكسر اللام قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. انظر: «الإقناع» (٦٧١)، واستدلال المؤلف بالآية مبنيّ علىٰ هذه القراءة.

(٢) سبق في ص (٢٢٢).

فيبكـي إن نـأوا شـوقًا إليهـم ... ويبكـي إن دنَـوا حـذرَ الفـراقِ

فتسـخَن عينُـه عنـد الفـراق ... وتسـخَن عينُـه عنـد التلاقـي[1]

والعشق، وإن استعذبه العاشق، فهو من أعظم عذاب القلب.

الثالث: أنّ العاشق قلبُه أسيرٌ في قبضة معشوقه، يسومه الهوانَ، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه، فقلبُه:

كعصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يسومُها ... حياضَ الردىٰ والطفلُ يلهو ويلعب[2]

فعيشُ العاشق عيشُ الأسير الموثَق، وعيشُ الخليِّ عيشُ المسيَّب المطلَق.

فالعاشق كما قيل:

طليـقٌ بـرأي العيـنِ وهـو أسـيرُ ... عليـلٌ علىٰ قطب الهـلاك يدورُ

ومَيْتٌ يُرىٰ في صورة الحيِّ غاديًا ... وليـس لـه حتىٰ النشـور نشـورُ

أخـو غمَـراتٍ ضـاع فيهـنّ قلبُـه ... فليـس له حتىٰ الممـات حضـورُ

الرابع: أنّه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيءٌ أضيعَ[3] لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور.

أمّا مصالح الدين فإنّها منوطة بلَمّ شَعَثِ القلب وإقبالِهِ علىٰ الله، وعشقُ الصور أعظم شيءٍ تشعيثًا وتشتيتًا له.

وأمّا مصالح الدنيا فهي متابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه

(١) الأبيات لنصيب في ديوانه المجموع ص(١١١). وهي في الحماسة (٢/ ٩٣) دون عزو. وأوردها المؤلف في إغاثة اللهفان (٩٢، ٨٢٣) أيضًا.

(٢) نسب المرزباني البيتَ إلىٰ ابن الزيّات في «معجم الشعراء» (٣٦٦)، والفتح بن خاقان في «الزهرة» (٨٥)، وهو في «اعتلال القلوب» (٣١٢) من إنشاد ابن الزيات.

(٣) يعني: أشدّ إضاعةً.

مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيَعُ وأضيَعُ.

الخامس: أنّ آفات الدنيا والآخرة أسرع إلىٰ عشّاق الصور من النار في يابس الحطب.

وسبب ذلك أنّ القلب كلّما قَرُبَ من العشق وقويَ اتصالُه به بَعُدَ من الله، فأبعد القلوب من الله قلوب عشّاق الصور، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات من كلّ ناحية؛ فإنّ الشيطان يتولّاه، ومن تولّاه عدوُّه واستولىٰ عليه لم يألُه وبالًا، ولم يدَعْ أذًىٰ يمكنه إيصاله إليه إلّا أوصله.

فما الظنّ بقلب تمكّن منه عدوّه وأحرَصُ الخلقِ علىٰ غيّه وفسادِه، وبعُد منه وليُّه ومن لا سعادة له ولا فلاح ولا سرور إلّا بقربه وولايته؟

السادس: أنّه إذا تمكّن من القلب واستحكم وقوي سلطانه أفسد الذّهنَ، وأحدث الوسواسَ، وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

وأخبار العُشَّاق في ذلك موجودة في مواضعها، بل بعضها مشاهَد بالعيان.

وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميّز عن سائر الحيوانات؛ فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله، وهل أذهب عقلَ مجنون ليلىٰ وأضرابِه إلّا العشق؟

وربما زاد جنونه علىٰ جنون غيره، كما قيل:

قالوا جُنِنتَ بمن تهوىٰ فقلتُ لهم ... العشق أعظم ممّا بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنّما يُصرَع المجنونُ في الحين[1]

السابع: أنّه ربما أفسد الحواسّ أو بعضها إمّا فسادًا معنويًّا أو صُوريًّا.

---

(١) تقدم البيتان في ص (٢٥٤).

أمّا الفساد المعنوي فهو تابعٌ لفساد القلب، فإنّ القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرىٰ القبيحَ حَسنًا منه ومن مَعشوقه، كما في «المسند»[1] مرفوعًا: «**حبُّك للشيءِ يُعمي، ويُصِمّ**»، فهو يُعمي عينَ القلب عن رؤية مساوي المحبوب وعيوبه، فلا ترىٰ العينَ ذلك، ويُصِمّ أُذنَه عن الإصغاء إلىٰ العذل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك.

والرغبات تستر العيوب، فالراغب في الشيء لا يرىٰ عيوبه حتىٰ إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه، فشدّةُ الرغبة غشاوةٌ علىٰ العين تمنع من رؤيةِ الشيء علىٰ ما هو به، كما قيل[2]:

هوِيتك إذ عيني عليها غشاوةٌ ... فلما انجلتْ قطّعتُ نفسي ألومُها

والداخل في الشيء لا يرىٰ عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرىٰ عيوبه، ولا يرىٰ عيوبه إلّا من دخل فيه ثُمَّ خرج منه؛ ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب: إنّما تُنقَض عُرىٰ الإسلام عروةً عروةً إذا وُلِد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

وأمّا إفساده للحواسّ ظاهرًا، فإنّه يُمرِض البدن ويُنهِكه، وربما أدّىٰ إلىٰ تلفه، كما هو معروف في أخبار من قتلهم العشق.

---

(١) برقم (٢١٦٩٤)، (٢٧٥٤٨)، وأبو داود (٥١٣٠)، والبخاري في «تاريخه» (٢/ ١٠٧)، والبزار في «مسنده» (٤١٢٥)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٤٥٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢١٩) وغيرهم، مرفوعًا وموقوفًا، والصحيح الوقف.

(٢) للحارث بن خالد المخزومي في مجموع شعره ص(١٠١).

وقد رُفع إلىٰ ابن عباس -وهو بعرفة- شابٌّ قد انتحل[١] حتىٰ عاد عظمًا بلا لحم فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامّةَ يومه[٢].

الثامن: أنّ العشق -كما تقدّم- هو الإفراط في المحبّة بحيث يستولي المعشوق علىٰ قلب العاشق حتىٰ لا يخلو من تخيّله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه؛ فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوىٰ الحيوانية والنفسانية، فتتعطل تلك القوىٰ، فيحدث بتعطّلها من الآفات علىٰ البدن والروح ما يعِزّ دواؤه أو يتعذّر، فتتغيّر أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فيعجز البشر عن صلاحه، كما قيل[٣]:

الحبُّ أوّلَ ما يكون لجاجةٌ ... تأتي به وتسوقه الأقدارُ

حتىٰ إذا خاض الفتىٰ لُججَ الهوىٰ ... جاءت أمور لا تُطاق كِبارُ

والعشقُ مبادئه سهلةٌ حلوةٌ، وأوسطُه همٌّ وشغلُ قلبٍ وسقم، وآخره عطَبٌ وقتلٌ، إن لم يتداركه عناية من الله، كما قيل[٤]:

وعِشْ خاليًا فالحبُّ أولُه عَنا ... وأوسطه سقمٌ، وآخره قتلُ

---

(١) لم يرد «انتحل» في كتب اللغة بمعنىٰ نحَل الجسم نحولاً: رَقّ وهزل، والظاهر أنه استعمالٌ عامّي.

(٢) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٣٢٢)، وابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (٣٧٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٧/ ٢١-٢٢)، (٢٩/ ١٧٩) بسند ضعيف.

(٣) قاله العباس بن الأحنف كما في «ديوانه» (١٣٩)، وقد نسبا إلىٰ المجنون (ديوانه: ٩٦)، وجميل (ديوانه: ٨٤) أيضًا.

(٤) قاله ابن الفارض كما في «ديوانه» ص(١٣٤) مع اختلاف يسير.

وقال آخر(١):

تولَّعَ بالعشق حتّىٰ عشِقْ ... فلمّا استقلّ به لم يُطِقْ

رأىٰ لُجّةً ظنّها موجةً ... فلما تمكّن منها غرِقْ

والذنب له، فهوِ الجاني علىٰ نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر: «يداكَ أَوْكَتا، وفُوكَ نفخ»(٢).

ص(٤٩٩)

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأمّا مقامُ ابتدائه، فالواجب عليه فيه مدافعته بكلّ ما يقدر عليه، إذا كان الوصول إلىٰ معشوقه متعذِّرًا قدرًا أو شرعًا.

فإن عجز عن ذلك، وأبىٰ قلبه إلّا السفر إلىٰ محبوبه - وهذا مقام التوسط والانتهاء - فعليه كتمان ذلك، وأن لا يُفشيَه إلىٰ الخلق، ولا يشبّبَ بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم؛ فإنّ الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضررًا علىٰ المعشوق وأهله من ظلمه في ماله، فإنّه يعرّض المعشوق بتهتّكه في عشقه إلىٰ وقوع الناس فيه، وانقسامهم إلىٰ مصدِّق ومكذِّب، وأكثر الناس يصدّق في هذا الباب بأدنىٰ شبهة. وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو فلانة كذّبه واحد، وصدّقه تسعمائة وتسعة وتسعون!

وخبر العاشق المتهتّك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقيني، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبًا وافتراءً علىٰ غيره جزموا بصدقه جزمًا لا يحتمل النقيض،

(١) هذان البيتان من أربعة أبيات نقلها ابن الجوزي بسنده في «ذمّ الهوىٰ» (٥٨٦) من إنشاد ابن نحرير البغدادي.

(٢) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٥١٩).

بل لو جمعهما مكان واحد اتّفاقًا جزموا أنّ ذلك عن وعد واتفاق بينهما، وجزمُهم في هذا الباب علىٰ الظنون والتخيّل والشُّبَه والأوهام والأخبار الكاذبة، كجزمهم بالحسّيّات المشاهَدة.

وبذلك وقع أهل الإفك في الطيِّبة المطيّبة حبيبةِ رسول الله ﷺ، المبرَّأةِ من فوق سبع سماوات، بشبهة مجيء صفوان بن المعطَّل بها وحده خلف العسكر؛ حتىٰ هلك من هلك. ولولا أنْ تولّىٰ الله سبحانه براءتَها والذبَّ عنها وتكذيبَ قاذفِها، وإلّا كان أمرًا آخر [1].

والمقصود أنّ في إظهار المبتلَىٰ عشقَ من لا يحِلّ له الاتصالُ به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلىٰ أهله، وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه.

فإن استعان عليه بمن يستميله إليه، إمّا برغبة أو رهبة، تعدّىٰ الظلم وانتشر، وصار ذلك الواسطة ديّوثًا ظالِمًا، وإذا كان النبيُّ ﷺ قد لعن الرائش [2] - وهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة - فما الظنّ بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصلة المحرّمة؟ فيتساعد العاشق والديّوث علىٰ ظلم المعشوق وظلم غيره ممّن يتوقف حصول غرضهما علىٰ ظلمه في نفس أو مال أو عرض؛ فإنّه كثيرًا ما يتوقّف المطلوب فيه علىٰ قتل نفسٍ تكون حياتها مانعةً من غرضه.

فكم من قتيل طُلَّ دمه بهذا السبب من زوج وسيّد وقريب! وكم خُبّبت امرأةٌ علىٰ بعلها، وجاريةٌ وعبدٌ علىٰ سيّدهما! وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك،

(١) قصة الإفك أخرجها البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٩٩) وغيره من طريق ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

وقد ورد عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «لعن رسولُ الله ﷺ الراشي والمرتشي»، أخرجه الترمذي (١٣٢٧)، والحاكم (٧٠٦٦)، وغيرهما، وصححاه.

وتبرَّأ منه[١]، وهو من أكبر الكبائر.

وإذا كان النبي ﷺ قد نهىٰ أن يخطُب الرجل علىٰ خطبة أخيه، أو يستام علىٰ سَوم أخيه[٢]، فكيف بمن يسعىٰ في التفريق بينه وبين امرأته وأمَتِه حتىٰ يتّصل بهما؟ وعشّاق الصور ومساعدوهم من الدِّيَثة[٣] لا يرون ذلك ذنبًا.

فإنْ طلب العاشقُ وصلَ معشوقه ومشاركةَ الزوج والسيّد، ففي ذلك من إثمِ ظلم الغير ما لعلّه لا يقصُر عن إثم الفاحشة إن لم يَرْبُ عليها.

ولا يسقط حقّ الغير بالتوبة من الفاحشة؛ فإنّ التوبة وإن أسقطَتْ حقَّ الله فحقُّ العبد باقٍ، له المطالبةُ به يومَ القيامة، فإنّ ظلمَ الوالد بإفساد فلذة كبده ومن هو أعزُّ عليه من نفسه، وظلمَ الزوج بإفساد حبيبته والجنايةِ علىٰ فراشه أعظمُ من ظلمه بأخذ ماله كلّه.

ولهذا يؤذيه ذلك أعظمَ ممّا يؤذيه أخذُ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلّا سفكُ دمه، فيا له من ظلمٍ أعظمَ إثمًا مِن فعلِ الفاحشة!

فإن كان ذلك حقًّا لغازٍ في سبيل الله وُقِف له الجاني الفاعل يوم القيامة، وقيل له: «خذ من حسناته ما شئت»، كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

ثم قال النبيُّ ﷺ: «**فما ظنّكم**»[٤] أي: فما تظنّون يُبقي له من حسناته؟

فإن انضاف إلىٰ ذلك أن يكون المظلوم جارًا أو ذا رحم تعدّد الظلمُ وصار

---

(١) ورد ذلك عند أحمد (٢٢٩٨٠)، وابن حبان (٤٣٦٣)، والحاكم (٧٨١٦) وصححاه.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٤٠،٢٧٢٧)، ومسلم (١٤٠٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الظاهر أنّه أراد جمع الديّوث، ولكن لا يجمع فيعول علىٰ فِعَلة، وضُبط أيضًا بفَتح الدال والياء، يعني جمع دائث، والدائث ليس بالديّوث، وإنما هو فريسته.

(٤) تقدم تخريج الحديث في ص (١٦١).

ظلمًا مؤكّدًا بقطيعة الرحم وأذىٰ الجار، و«**لا يدخل الجنةَ قاطعُ رحم لا**»(١)، ولا «**من لا يأمن جارُه بوائقَه**»(٢).

فإن استعان العاشق علىٰ وصال معشوقه بشياطين الجنّ -إمّا بسحر أو استخدام أو نحو ذلك- ضمَّ إلىٰ الشرك والظلم كفرَ السحر، فإن لم يفعله هو ورضي به كان راضيًا بالكفر غيرَ كاره لحصول مقصده به، وهذا ليس ببعيدٍ من الكفر.

والمقصود أنّ التعاون في هذا الباب تعاون علىٰ الإثم والعدوان.

وأمّا ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدّي ضررُه، فأمرٌ لا يخفىٰ؛ فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق، فللمعشوق أغراض أخر يريد من العاشق إعانته عليها، فلا يجد من إعانته بدًّا، فيبقىٰ كلٌّ منهما يعين الآخر علىٰ الظلم والعدوان.

فالمعشوق يعين العاشق علىٰ ظلم من يتصل به من أهله وأقاربه وسيّده وزوجه، والعاشق يعين المعشوق علىٰ ظلم من يكون غرض المعشوق متوقّفًا علىٰ ظلمه. فكلٌّ منهما يعين الآخر علىٰ أغراضه التي يكون فيها ظلم الناس، فيحصل العدوان والظلم للناس، بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك علىٰ الظلم، كما جرت العادة بين العشاق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه علىٰ ما فيه ظلم وبغي وعدوان، حتىٰ ربما يسعىٰ له في منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله، وفي تحصيل مال من غير حِلّه، وفي استطالته علىٰ غيره، فإذا اختصم معشوقه وغيرُه أو تشاكيا لم يكن إلّا في جانب المعشوق ظالِمًا كان أو مظلومًا.

هذا إلىٰ ما ينضمّ إلىٰ ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيّل علىٰ أخذ أموالهم، والتوصّل بها إلىٰ المعشوق بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) تقدّم تخريجه (١٦١).

ونحو ذلك، وربما أدّىٰ ذلك إلىٰ قتل النفس التي حرّمها الله ليأخذ ماله، يتوصل به إلىٰ معشوقه.

فكلّ هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور.

وربما حمل علىٰ الكفر الصريح، وقد تنصّر جماعةٌ ممّن نشأ في الإسلام بسبب العشق، كما جرىٰ لبعض المؤذّنين حين أبصر امرأةً جميلةً علىٰ سطح، ففُتِن بها، فنزل ودخل عليها، وسألها نفسَها، فقالت: هي نصرانية، فإن دخلتَ في ديني تزوّجتُ بك، ففعل، فرقىٰ ذلك اليوم علىٰ درجة عندهم، فسقط منها، فمات؛ ذكر هذا عبدُ الحقّ في كتاب «العاقبة» له(١).

وإذا أراد النصارىٰ أن ينصّروا الأسير أَرَوه امرأة جميلة، وأمروها أن تُطْمِعه في نفسها، حتّىٰ إذا تمكن حبّها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها، فهنالك: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وفي العشق من ظلمِ كلّ واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بمعاونته له علىٰ الفاحشة، وظلمِه لنفسه، فكلّ منهما ظالم لنفسه وصاحبه، وظلمهما متعدٍّ إلىٰ الغير كما تقدّم. وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك، فقد تضمّن العشق أنواع الظلم كلّها.

والمعشوق إذا لم يتّق الله، فإنه يعرّض العاشق للتلف - وذلك ظلم منه - بأن يُطمعه في نفسه، ويتزيّن له، ويستميله بكلّ طريق، حتىٰ يستخرج منه ماله ونفعه، ولا يمكّنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه، فهو يسومه سوء العذاب.

والعاشق ربما قتل معشوقَه ليشفي نفسه منه، ولا سيّما إذا جاد بالوصال لغيره، فكم للعشق من قتيل من الجانبين! وكم قد أزال من نعمةٍ، وأفقر من غنًىٰ، وأسقط من مرتبة، وشتّت من شمل! وكم أفسد من أهل للرجل وولد! فإنّ المرأة إذا رأت

(١) ص (١٧٩)، وقد تقدمت القصة مفصّلة (٢٣٨).

بعلها عاشقًا لغيرها اتّخذت هي معشوقًا لنفسها، فيصير الرجل متردّدًا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة. فمن الناس من يؤثر هذا، ومنهم من يؤثر هذا.

فعلىٰ العاقل أن لا يُحكِم علىٰ نفسه عشقَ الصور، لئلا يؤديه ذلك إلىٰ هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها، فمن فعل ذلك فهو المفرِّط بنفسه المغرِّر بها، فإذا هلكتْ فهو الذي أهلكها، فلولا تكرارُه النظرَ إلىٰ وجه معشوقه وطمعُه في وصاله لم يتمكّن عشقه من قلبه.

فإنّ أول أسباب العشق الاستحسان، سواء تولّد عن نظر أو سماع.

فإن لم يقارنه طمع في الوصال، وقارنه الإياس من ذلك؛ لم يحدث له العشق، فإن اقترن به الطمع، فصرفه عن فكره ولم يشتغل قلبه به؛ لم يحدث له ذلك.

فإن أطال مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق، وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله: إمّا خوف ديني كدخول النار، وغضب الجبار، واحتقاب الأوزار؛ وغلب هذا الخوف علىٰ ذلك الطمع والفكر، لم يحدث له العشق.

فإن فاته هذا الخوف، فقارنه خوف دنيوي، كخوف تَلافِ نفسه وماله، وذَهاب جاهه وسقوطِ مرتبته عند الناسِ، وسقوطِه من عين من يعزّ عليه؛ وغلب هذا الخوف لداعي العشق = دَفعَه.

وكذلك إذا خاف من ذوات محبوب هو أحبُّ إليه وأنفعُ له من ذلك المعشوق، وقدّم محبتَه علىٰ محبة المعشوق؛ اندفع عنه العشق.

فإن انتفىٰ ذلك كلُّه، أو غلبت محبة المعشوق لذلك؛ انجذب إليه القلب بكليّته، ومالت إليه النفس كل الميل.

فإن قيل: قد ذكرتم آفاتِ العشق ومضارَّه ومفاسدَه، فهلّا ذكرتم منافعَه وفوائده التي من جملتها: رقة الطبع، وترويح النفس، وخفّتها، وزوال ثقلها، ورياضتها، وحملها علىٰ مكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقّة الحاشية ولطف الجانب.

وقد قيل ليحيىٰ بن معاذ الرازي: إنَّ ابنك عشق فلانة، فقال: الحمد لله الذي صيّره إلىٰ طبع الآدمي! وقال بعضهم: العشق داء أفئدة الكرام.

وقال غيره: العشق لا يصلح إلّا لذي مروءة ظاهرة وخليقة طاهرة، أو لذي لسان فاضل وإحسان كامل، أو لذي أدب بارع وحسب ناصع[١].

وقال آخر: العشق يشجّع جَنان الجبان، ويصفّي ذهن الغبيّ، ويسخّي كفّ البخيل، ويُذِلّ عزّةَ الملوك، ويسكِّن نوافر الأخلاق، وهو أنيس من لا أنيس له، وجليس من لا جليس له[٢].

وقال آخر: العشق يزيل الأثقال، ويلطّف الروح، ويصفّي كدر القلب، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام، كما قال[٣]:

سيهلك في الدنيا شفيقٌ عليكمُ ... إذا غاله من حادث الحبِّ غائلُه

كريمٌ يُميت السرَّ حتّىٰ كأنه ... إذا استفهموه عن حديثك جاهلُه

يودّ بأن يُمسي سقيمًا لعلّها ... إذا سمعتْ عنه بشكوىٰ تُراسِلُه

ويهتزّ للمعروف في طلب العُلىٰ ... لِتُحمَد يومًا عند ليلىٰ شمائلُه

فالعشق يحمل علىٰ مكارم الأخلاق.

وقال بعض الحكماء: العشق يروّض النفس، ويهذّب الأخلاق، إظهاره طَبْعي، وإضماره تكلُّفي[٤].

وقال آخر: من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجيّ والوجه البهيّ؛ فهو فاسد

(١) فتوىٰ في العشق (١٧٨).

(٢) «فتوىٰ في العشق» (١٧٩)، و«المصون» (٤٦)، و«بهجة المجالس» (١/ ٨٢٣).

(٣) «ديوان كُثيِّر عزّة» (٢٤٧ - ٢٤٨).

(٤) «فتوىٰ في العشق» (١٧٩).

المزاج، محتاج إلىٰ علاج(١).

وأنشدوا في ذلك:

إذا أنت لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوىٰ ... فأنت وعَيرٌ في الفلاة سواءُ(٢)

وقال آخر(٣):

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوىٰ ... فكن حجرًا من جانب الصخر جلمدا

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوىٰ ... فقُمْ واعتلِفْ تِبْنًا فأنتَ حمارُ

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوىٰ ... فمالك في طيب الحياة نصيبُ

وقال بعض العشاق أولو العِفة والصِّيانة: عِفُّوا تشرُفوا، واعشقوا تظرُفوا(٤).

وقيل لبعض العشاق: ما كنت تصنع لو ظفرتَ بمن تهوىٰ؟ فقال: كنتُ أمتعّ طرفي بوجهه، وأروّح قلبي بذكره وحديثه، وأستر منه ما لا يحبّ كشفَه، ولا أصير بقبح الفعل إلىٰ ما ينقض عهده، ثمّ أنشد:

أخلو به فأعِفّ عنه تكرُّمًا ... خوفَ الديانة لستُ من عشّاقِه

كالماء في يد صائم يلتذّه ... ظمأً فيصبر عن لذيذ مذاقه(٥)

وقال إسحاق بن إبراهيم: أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة خفيفة،

---

(١) نُسب في المرجع السابق إلىٰ جالينوس.

(٢) «فتوىٰ في العشق» (١٧٩)، و«ذمّ الهوىٰ» (٣٠٦).

(٣) هو الأحوص كما في «ديوانه» (١٢١).

(٤) نقله المؤلف في «روضة المحبين» (٢٨١) من قول عبد الله بن طاهر أمير خراسان لولده.

(٥) انظر القول مع الشعر في «فتوىٰ في العشق» (١٨٣).

نزهتهم المؤانسة، وكلامهم يُحيي مَواتَ القلوب، ويزيد في العقول؛ ولولا العشق والهوىٰ لبطل نعيم الدنيا.

وقال آخر: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركتَه ضرّك، وإن أكثرتَ منه قَتَلك[1]، وفي ذلك قيل:

خليلَيّ إنّ الحبَّ فيه لذاذةٌ   وفيه شقاء دائم وكروبُ
علىٰ ذاك ما عيشٌ يطيب بغيره   ولا عيشَ إلّا بالحبيب يطيبُ
ولا خيرَ في الدنيا بغير صَبابة   ولا في نعيم ليس فيه حبيبُ[2]

وذكر الخرائطي[3] عن أبي غسّان قال: مرّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجارية وهي تقول:

وهوِيتُه من قبلِ قطعِ تمائمي   متمايسًا مثل القضيب الناعمِ

فسألها: أحرّة أنتِ أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة، فقال: مَن هواك؟ فتلكّأت، فأقسم عليها، فقالت:

وأنا التي لعِبَ الهوىٰ بفؤادها   قُتِلَتْ بحبّ محمدِ بن القاسمِ

فاشتراها من مولاها، وبعث بها إلىٰ محمَّد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب[4]، وقال: هؤلاء فِتَن الرجال، وكم -والله- قد مات بهنّ كريم، وعطِبَ بهنّ سليم!

وجاءَتْ عثمانَ بن عفان جاريةٌ تستدعي علىٰ رجل من الأنصار، فقال لها

---

(١) «البصائر والذخائر» (٢/ ١٦٨)، و«منازل الأحباب» (١٨٥).

(٢) «منازل الأحباب» (١٨٥)، و«روضة المحبين» (٢٨١).

(٣) في «اعتلال القلوب» (٢٣١) من طريق لا يثبت.

(٤) وهذا دليل آخر علىٰ فساد هذا الخبر؛ فليس من أولاد جعفر بن أبي طالب من يسمّىٰ قاسمًا، وإنما أولاده عبد الله، ومحمد، وعون. انظر: «نسب قريش» (٨٠)، و«جمهرة أنساب العرب» (٦٨).

عثمان: ما قصّتك؟ فقالت: كلِفتُ يا أمير المؤمنين بابن أخيه، فما أنفكُّ أراعيه، فقال له عثمان: إمّا أن تهبها لابن أخيك، أو أعطيك ثمنها من مالي، فقال: أُشهِدك يا أمير المؤمنين أنّها له[١].

ونحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلَّقُه فعلُ الفاحشة بالمعشوق، وإنّما الكلام في العشق العفيف من الرجل الظريف الذي يأبىٰ له دينه وعفّته ومروءته أن يُفسِد ما بينه وبين الله، وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا كعشق السلف الكرام والأئمة الأعلام:

فهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشِقَ حتىٰ اشتهر أمره، ولم يُنكَر عليه، وعُدّ ظالِمًا مَن لامه، ومن شعره[٢]:

كتمتَ الهوىٰ حتىٰ أضرّ بك الكَتْمُ ... ولامك أقوام ولَومُهمُ ظُلْمُ
فنمَّ عليك الكاشحون وقبلَهم ... عليك الهوىٰ قد نمّ لو ينفع الكَتْمُ
فأصبحتَ كالنَّهْدي إذ مات حسرة ... علىٰ إثر هندٍ أو كمَنْ شفَّه سُقْمُ[٣]
تجنّبتَ إتيانَ الحبيب تأثُّمًا ... ألا إنّ هِجرانَ الحبيبِ هو الإثمُ
فذُقْ هَجْرَها قد كنتَ تزعم أنّه ... رَشادٌ ألَا يا ربّما كذَب الزَّعْمُ

وهذا عمر بن عبد العزيز، عشقُه لجارية فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأتِه مشهور[٤]، وكانت جاريةً بارعة الجمال، وكان معجبًا بها، وكان يطلبها من امرأته ويحرص علىٰ أن تهبَها له، فتأبىٰ، ولم تزل الجارية في نفس عمر.

---

(١) «الواضح المبين» (٣١) عن امتزاج النفوس للتميمي.

(٢) الأبيات في «الأمالي» (٢/ ٢٠)، ومصارع العشاق (١/ ٣٢١) وغيرهما.

(٣) يقصد عبد الله بن عجلان النهديّ، وهند زوجه، ترجمته في «الأغاني» (٢٢/ ٢٤٥).

(٤) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٦١ - ٦٢)، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» بسنده عن الهيثم بن عديّ، والهيثم كذّاب، متروك الحديث.

فلما استُخلِفَ أمرت فاطمةُ بالجارية، فأُصلِحت، وكانت مثلًا في حسنها وجمالها، ثمّ دخلتْ علىٰ عمر، وقالت: يا أمير المؤمنين إنّك كنت معجبًا بجاريتي فلانة، وسألتَنيها فأبيتُ عليك، والآن فقد طابت نفسي لك بها.

فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه، وقال: عجِّلي بها عليَّ.

فلما أدخلَتْها عليه ازداد بها عجبًا، وقال لها: ألقي ثيابك، ففعلَتْ، ثمّ قال لها: علىٰ رسلكِ، أخبريني لمن كنتِ؟ ومن أين صرت لفاطمة؟

فقالت: أغرم الحَجّاج عاملًا له بالكوفة مالًا، وكنت في رقيق ذلك العامل فأخذني، وبعث بي إلىٰ عبد الملك، فوهبني لفاطمة.

قال: وما فعل ذلك العامل؟

قالت: هلك.

قال: وهل ترك ولدًا؟

قالت: نعم.

قال: فما حالهم؟

قالت: سيئة.

فقال: شُدِّي عليكِ ثيابك، واذهبي إلىٰ مكانك، ثمّ كتب إلىٰ عامله علىٰ العراق أن ابعَثْ إلىٰ فلان بن فلان علىٰ البريد.

فلمّا قدم قال له: ارفع إليّ جميعَ ما غرّمه الحجّاج لأبيك، فلم يرفع إليه شيئًا إلّا دفعه إليه، ثمّ أمر بالجارية فدُفِعت إليه، ثم قال له: إياك وإياها، فلعلّ أباك كان ألمَّ بها.

فقال الغلام: هي لك يا أمير المؤمنين.

قال: لا حاجة لي بها.

قال: فابتَعْها منّي.

قال: لستُ إذًا ممّن نهىٰ النفسَ عن الهوىٰ.

فلمّا عزم الفتىٰ علىٰ الانصراف بها قالت: أين وجدُك بي يا أمير المؤمنين؟

قال: علىٰ حاله، ولقد زاد! ولم تزل الجارية في نفس عمر حتىٰ مات رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذا أبو بكر محمَّد بن داود الظاهري، العلَمُ المشهور في فنون العلم من الفقه والحديث والتفسير والأدب، وله قولٌ في الفقه، وهو من أكابر العلماء، وعشقه مشهور.

قال نِفطَويه: دخلتُ عليه في مرضه الذي مات فيه، فقلت: كيف تجدك؟

فقال: حبُّ مَن تَعلَم أَورثني ما تَرىٰ.

فقلتُ: وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟

فقال: الاستمتاع علىٰ وجهين: أحدهما النظر المباح، والآخر اللذة المحظورة، فأمّا النظر المباح فهو الذي أورثني ما ترىٰ، وأمّا اللذة المحظورة فمنعني منها ما حدثني أبي: حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مُسْهِر، عن أبي يحيي القتّات، عن مجاهد، عن ابن عباس يرفعه: «من عشِق وكتَم وعفَّ وصبر غفر الله له، وأدخله الجنّة»، ثمّ أنشد:

انظر إلىٰ السِّحر يجري في لواحظه ... وانظر إلىٰ دَعَجٍ في طرفه الساجي

وانظر إلىٰ شعَرات فوق عارضه ... كأنهــنَّ نِمــالٌ دبَّ في عــاجِ

ثم أنشد:

مـا لهـم أنكـروا سـوادًا بخَدَّيْـ ... ـهِ ولا ينكـرون وردَ الغصـون

إن يكـن عيـبُ خـدِّه بـدَدَ الشّعـ ... ـرِ فعيبُ العيون شَعْرُ الجفونِ

فقلتُ له: نفيتَ القياس في الفقه، وأثبتَّه في الشعر.

فقال: غلبة الوجد وملكة النفس دعَوَا إليه، ثمّ مات من ليلته[1].

وبسبب معشوقه صنّف كتاب «الزهرة»، ومن كلامه فيه[2]: من يئس ممّن يهواه ولم يمُتْ من وقته سلاه؛ وذلك أنَّ أول روعات اليأس تأتي القلب، وهو غير مستعدّ لها، فأمّا الثانية فتأتي القلب، وقد وطّأته لها الروعة الأولىٰ.

والتقىٰ هو وأبو العباس بن سُرَيج في مجلس أبي الحسن علي بن عيسىٰ الوزير فتناظرا في مسألةٍ من الإيلاء، فقال له ابن سريج: أنت بأن تقول: «من دامت لحظاته كثرت حسراته»[3] أحذق منك بالكلام علىٰ الفقه! فقال: لئن كان ذلك فإنّي أقول:

أنزِّهُ في روض المحاسن مقلتي ... وأمنع نفسي أن تنال محرَّما
وأحمل من ثِقْل الهوىٰ ما لوَ أنّه ... يُصَبّ علىٰ الصخر الأصمّ تهدّما
وينطق طرفي عن مترجَم خاطري ... فلولا اختلاسي ردَّه لتكلّما
رأيتُ الهوىٰ دعوىٰ من الناس كلِّهم ... فلستُ أرىٰ ودًّا صحيحًا مسلّما

فقال له أبو العباس بن سُرَيج: بمَ تفخر عليَّ؟ ولو شئتُ قلتُ:

ومُطاعِمٍ كالشَّهد في نغماته ... قد بتُّ أمنعه لذيذَ سِناته
ضنًّا به وبحسنه وحديثه ... وأنزّه اللحظاتِ في وجَناته
حتىٰ إذا ما الصبح لاح عَمودُه ... ولّىٰ بخاتَم ربه وبَراته

فقال أبو بكر: يحفظ عليه الوزير ما أقرَّ به حتىٰ يقيم شاهدَين علىٰ أنّه ولّىٰ بخاتم ربه وبراءته.

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٦٢).

(٢) وأوله عنوان الباب الثامن والأربعين منه، انظر: ص (٤٥٢).

(٣) وهو عنوان الباب الأول من كتاب «الزهرة» (ص: ٤٥)، وفيه: «من كثرت لحظاته دامت حسراته»، وهو الصواب، وكذا في «زهر الآداب» (٧٢٨).

فقال ابن سريج: يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك:

أنـزِّه في روض المحاسن مُقلتي وأمنـعُ نفسـي أن تَنـال محرَّمـا

فضحك الوزير فقال: لقد جمعتُما لُطفًا وظُرفًا.

ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في «تاريخه»(١).

وجاءته يومًا فتيا مضمونها:

يـا ابـنَ داود يـا فقيـهَ العـراقِ أفتِنـا في قواتـل الأحـداقِ

هـل عليهـا بمـا أتـت مـن جنـاح أم حـلالٌ لهـا دمُ العُشّـاقِ

فكتب الجواب تحت البيتين بخطِّه:

عنـدي جـواب مسـائل العشّـاقِ فاسْمَعْه من قرِحِ الحشا مشتاقِ

لَمّا سألتَ عن الهوىٰ هيّجتَني وأرقـتَ دمعًـا لـم يكـن بمُـراقِ

إن كان معشوقٌ يعذِّب عاشقًا كان المعـذَّبُ أنعـمَ العشّـاقِ(٢)

قال صاحب كتاب «منازل الأحباب» شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد صاحب «الإنشاء»: وقلتُ في جواب البيتين علىٰ وزنهما مجيبًا للسائل:

قـل لمـن جاء سـائلًا عـن لحاظٍ هـنّ يلعبـن في دم العشّـاق

ماعلىٰ السيف في الورىٰ من جُناحٍ إن ثنـىٰ الحـدَّ عـن دمٍ مُهـراقِ

وسيوفُ اللِّحاظ أولىٰ بأن تُصـ ـفَحَ عمّـا جنَتْ علىٰ العشّـاق

---

(١) (٥/ ٢٦٢)، ولكن سياق القصة فيه مغاير لما ذكره المصنف هنا، وسياقها هنا يوافق ما ورد في «المصون» (١٢٦)، و«زهر الآداب» (٧٢٨)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٢٦٠)، و«منازل الأحباب» (٧٦).

(٢) «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٥٧)، ومنه في «مصارع العشّاق» (٢/ ١١٩، ٢١٣).

إنّمـا كلُّ مـن قَتلـنَ شـهيدٌ ... ولهـذا يفنـىٰ ضَنًـىٰ وهـو بـاقِ

ونظير ذلك فتوىٰ وردت علىٰ الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكَلْوَذاني شيخ الحنابلة في وقته:

قـل للإمـام أبي الخطّاب مسألةً ... جاءت إليك ومـا خَلقٌ سِـواكَ لها

ماذا علىٰ رجل رامَ الصلاةَ فمُذْ ... لاحتْ لخاطرِه ذاتُ الجمال لها[١]

فأجابه تحت سؤاله:

قـل للأديـب الـذي وافىٰ بمسـألة ... سرّتْ فؤاديَ لَمّا أنْ أصختُ لَها

إن الـذي فَتَنتْـه عـن عبادتـه ... خريدةٌ ذاتُ حسنٍ فانثنىٰ وَلَها[٢]

إن تـاب ثـمّ قضـىٰ عنـه عبادتَـه ... فرحمةُ الله تغشَىٰ من عصَىٰ ولَها[٣]

وقال عبد الله بن معمر القيسي[٤]: حججتُ سنة، ثم دخلتُ مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ، فبينا أنا جالس ذات ليلة بين القبر والمنبر إذ سمعت أنينًا، فأصغيتُ إليه، فإذا هو يقول:

أَشْـجاكَ نَـوحُ حمائـم السِّـدْرِ ... فأهَجْـنَ منـك بلابـلَ الصَّـدْرِ

أم عـزّ نومَـك ذكـرُ غانيـةٍ ... أهـدَتْ إليـك وسـاوسَ الفكْـرِ

يـا ليلـةً طالـت علـىٰ دَنِـفٍ ... يشـكو السُّـهادَ وقلّـةَ الصبـرِ

أسـلمتِ مَـن يهـوَىٰ لحـرِّ جوًىٰ ... متوقِّـدٍ كتوقُّـدِ الجَمْـرِ

(١) من اللهو.

(٢) الوَلَه: ذهاب العقل، والتحيُّر من شدة الوجد. الصحاح (وله).

(٣) من اللهو، والقصة نقلها ابن رجب في «الذيل» (١/ ٢٧٦) عن ابن السمعاني.

(٤) القصة في «المستجاد من فعلات الأجواد» للتنوخي (١٢٦ - ١٣٤)، و«منازل الأحباب» (١٨٧ - ١٩٣).

فالبـدرُ يشـهد أنّني كلِـفٌ ... مُغْـرًىٰ بحـبِّ شـبيهةِ البـدرِ
مـا كنـت أحسـبني أهيـم بهـا ... حتّـىٰ بُليـتُ وكنـتُ لا أدري

ثم انقطع الصوت، فلم أدر من أين جاء، وإذا به قد أعاد البكاء والأنين، ثم أنشد:

أشـجاك مـن ريَّـا خيـالٌ زائـرُ ... والليـلُ مسـوَدُّ الذوائـبِ عاكِـرُ
واعتاد مهجتَك الهوىٰ برَسِيسِه ... واهتـاجَ مقلتـك الخيـالُ الزائـرُ
ناديـتُ ريَّـا والظـلامُ كأنّـه ... يـمٌّ تلاطَـمَ فيـه مـوجٌ زاخـرُ
والبـدرُ يسـري في السـماء كأنّـه ... ملِـكٌ ترجَّـلَ والنجـومُ عسـاكِرُ
وترىٰ به الجوزاءَ ترقصُ في الدُّجىٰ ... رقصَ الحبيبِ علاه سُكْرٌ ظاهرُ
يـا ليـلُ طُلْـتَ علىٰ محِـبٍّ ما له ... إلّا الصبـاحَ مُسـاعِدٌ ومُـؤازِرُ
فأجابني مُتْ حتفَ أنفِكَ واعلمَنْ ... أنّ الهـوىٰ لَهُـوَ الهَـوانُ الحاضِرُ

قال: وكنتُ ذهبتُ عند ابتدائه بالأبيات، فلم ينتهِ إلّا وأنا عنده، فرأيتُ شابًّا مقتبلًا شبابُه، قد خرق الدمعُ في خدّه خَرْقَين، فسلّمتُ عليه، فقال: اجلس، من أنت؟ فقلت: عبد الله بن معمر القيسي، قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم، كنتُ جالسًا في الروضة، فما راعني إلّا صوت، فبنفسي أفديك، فما الذي تجد؟ فقال: أنا عتبة بن الحُباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، غدوتُ يومًا إلىٰ مسجد الأحزاب، فصلّيت فيه، ثم اعتزلتُ غيرَ بعيد، فإذا بنسوة قد أقبلن يتهادَين مثل القطا، وفي وسطهن جارية بديعة الجمال كاملة الملاحة، فوقَفتْ عليّ وقالت: يا عتبةُ ما تقول في وصلِ مَن يطلب وصلك؛ ثم تركَتْني وذهبَتْ، فلم أسمع لها خبرًا، ولا قفوتُ لها أثرًا، وأنا حيران أنتقل من مكان إلىٰ مكان، ثم صرخ وأكبّ مغشيًّا عليه، ثم أفاق كأنما صُبغت وجنتاه بوَرْس، ثم أنشأ يقول:

أراكـم بقلبـي مـن بـلادٍ بعيـدةٍ ... فيـا هَـلْ تَـرَوني بالفؤاد علىٰ بُعدِ

فـؤادي وطَـرفي يأسـفان عليكـمُ ... وعندكمُ روحي وذكركمُ عندي

ولسـتُ ألـذُّ العيشَ حتّىٰ أراكم ... ولو كنتُ في الفردوس في جنّةِ الخلدِ

فقلت: يا ابن أخي تُبْ إلىٰ ربّك، واستغفِرْ من ذنبك، فبين يديك هولُ الْمُطَّلَع، فقال: ما أنا بسالٍ حتىٰ يؤوب القارظان[1]! ولم أزل معه إلىٰ أن طلع الصبح، فقلت: قم بنا إلىٰ مسجد الأحزاب، فلعل الله أن يكشف كربتك، قال: أرجو ذاك إن شاء الله ببركة طَلْعتك، فذهبنا حتىٰ أتينا مسجد الأحزاب، فسمعته يقول:

يـا لَلرِّجـالِ لِيـوم الأربعـاء أمـا ... ينفكّ يُحدِث لي بعد النُّهَىٰ طرَبا

مـا إن يـزال غـزالٌ منه يُقلِقنـي ... يأتي إلىٰ مسجد الأحزاب مُنْتقِبا

يُخبّـر النـاسَ أنّ الأجـرَ همّتُـه ... ومـا أتـىٰ طالبًـا للأجـر محتسِبا

لـو كان يبغي ثوابًا مـا أتىٰ صَلِفًا ... مضمَّخًا بفتيت المسك مختضِبا[2]

ثمّ جلسنا حتىٰ صلَّينا الظهر، فإذا بالنِّسوة قد أقبلن، وليست الجارية فيهنّ، فوقفن عليه، وقلن له: يا عتبةُ ما ظنّكَ بطالبةِ وصلك وكاسفةِ بالك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها، وارتحل بها إلىٰ أرض السماوة، فسألتُهنّ عن الجارية، فقلن: هي ريّا ابنةُ الغِطريف السُّلَميّ، فرفع عُتبة رأسَه إليهنّ، وقال:

خليلَـيَّ ريّـا قـد أجـدَّ بكورُهـا ... وسارت إلىٰ أرض السماوة عِيرُها

خليلَـيَّ إنّي قد عَشِيتُ من البكا ... فهـل عند غيري مقلةٌ أستعيرُها

فقلت له: إنّي قد وردتُ بمال جزيل أريد به أهلَ السَّتْر، ووالله لأبذلنّه أمامك

---

(١) من أمثالهم في التأبيد، انظر تفسيره في: «فصل المقال» (٤٧٣)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ١٢٣).

(٢) الصلَف: الغلوّ في الظرف مع تكبّر.

حتىٰ تبلغَ رضاك وفوق الرضا! فقم بنا إلىٰ مسجد الأنصار، فقمنا وسِرْنا حتىٰ أشرفنا علىٰ ملأ منهم، فسلّمتُ، فأحسنوا الردّ، فقلتُ: أيها الملأ ما تقولون في عُتبة وأبيه؟ قالوا: من سادات العرب، فقلت: إنّه قد رُميَ بداية من الهوىٰ، وما أريد منكم إلّا المساعدة إلىٰ السماوة، فقالوا: سمعًا وطاعة، فركبنا، وركب القوم معنا، حتىٰ أشرفنا علىٰ منازل بني سُلَيم، فأُعْلِم الغطريفُ بنا، فخرج مبادرًا، فاستقبلنا، وقال: حُيِيّتم بالإكرام، فقلنا: وأنتَ فحيّاك الله، إنّا لك أضياف، فقال: نزلتم أكرَم منزلٍ، فنادىٰ: يا معشر العبيد أنزِلوا القومَ، ففُرشت الأنطاع والنَّمارق(١)، وذُبحت الذبائح، فقلنا: لسنا بذائقي طعامك حتىٰ تقضي حاجتنا، فقال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة ابن الحباب بن المنذر، فقال: إنّ التي تخطبونها أمرُها إلىٰ نفسها، وأنا أدخلُ أُخبِرها، ثمّ دخل مغضَبًا علىٰ ابنته، فقالت: يا أبتِ ما لي أرىٰ الغضب في وجهك؟ فقال: قد ورد الأنصار يخطبونكِ منّي، قالت: سادة كرام، استغفر لهم النبيُّ ﷺ، فلمن الخِطبة منهم؟ قال: لعتبة بن الحباب، قالت: والله لقد سمعتُ عن عتبة هذا أنّه يفي بما وعد، ويدرك إذا قَصَد، فقال: أقسمتُ لا زوّجتُك به أبدًا، ولقد نمىٰ إليّ بعضُ حديثك معه، فقالت: ما كان ذلك، ولكن إذ أقسمتَ فإنّ الأنصار لا يُرَدّون ردًّا قبيحًا، فأحسِنْ لهم الردَّ، فقال: بأيّ شيء؟ قالت: أغلِظْ لهم المهر، فإنّهم يرجعون ولا يجيبون، فقال: ما أحسن ما قلتِ! ثمّ خرج مبادرًا فقال: إنّ فتاة الحيّ قد أجابت، ولكنّي أريد لها مهرَ مثلِها، فمن القائم به؟ فقال عبد الله بن معمّر: أنا، فقُلْ ما شئتَ! فقال: ألف مثقال من الذهب، ومائة ثوب من الأبراد، وخمسة أكرِشةِ عنبر(٢)، فقال عبد الله: لك ذلك، فهل أجبتَ؟ قال:

(١) النطَع: بساط من أديم، والنُّمْرُقة: الوسادة.

(٢) الأكرشة: جمع كرِش، وهو وعاء الطيب والثوب.

نعم، قال عبد الله: فأنفذتُ نفرًا من الأنصار إلىٰ المدينة، فأتوا بجميع ما طلب، ثم صنعت الوليمة وأقمنا علىٰ ذلك أيامًا، ثم قال: خذوا فتاتكم، وانصرِفوا مصاحَبين.

ثمّ حملها في هودج، وجهّزها بثلاثين راحلةً من المتاع والتحَف، فودّعناه، وسرنا، حتّىٰ إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة، أحسبها من سليم، فحمل عليها عتبة بن الحباب، فقتل منهم رجالًا، وجدّل آخرين، ثم رجع وبه طعنة تفور دمًا، فسقط إلىٰ الأرض، وأتتنا نجدة، فطردت عنّا الخيل، وقد قضىٰ عتبة نحبه، فقلنا: واعتبتاه! فسمعتنا الجارية، فألقت نفسَها عن البعير، وجعلت تصيح بحرقة، وأنشدت:

تصبّرتُ لا أنّي صبرتُ وإنّما ... أعلّل نفسي أنّها بك لاحقَه
فلو أنصفَتْ روحي لكانت إلىٰ الرَّدىٰ ... أمامكَ من دون البريّة سابقَه
فما أحدٌ بعدي وبعدكَ منصِفٌ ... خليلًا ولا نفسٌ لنفسٍ موافقَه

ثمّ شهقت، وقضت نحبها، فاحتفرنا لهما قبرًا واحدًا، ودفنّاهما فيه.

ثمّ رجعتُ، فأقمتُ سبعَ سنين، ثم ذهبتُ إلىٰ الحجاز، ووردتُ المدينة، فقلت: واللهِ لآتينّ قبرَ عتبة أزوره، فأتيت القبر، فإذا عليه شجرةٌ عليها عصائب حمر وصفر، فقلت لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين!

ولو لم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسَن من الأسانيد، وهو حديث سُوَيد بن سعيد، عن علي بن مسهر، عن أبي يحيىٰ القتّات، عن مجاهد، عن ابن عباس يرفعه: **«من عشِقَ وعفَّ وكتَم فمات، فهو شهيد»**[1].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ١٩٥) وابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (١٠١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٦٤)، (٦/ ٤٨)، (١١/ ٢٩٥)، (١٣/ ٨٥)، وابن الجوزي =

ورواه سويد أيضًا عن ابن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعًا.

ورواه الخطيب، عن الأزهري، عن المعافىٰ بن زكريا، عن قُطبة بن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه.

ورواه الزبير بن بكّار، عن عبد العزيز الماجشون، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس.

وهذا سيّدُ الأولين والآخرين ورسولُ ربّ العالمين نظر إلىٰ زينب بنت جحش فقال: «سبحانَ مقلّب القلوب»[1]، وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه، فلما همَّ بطلَاقها قالَ له: «اتّق الله وأمسِكْ عليك زوجكَ»، فلمّا طلّقها زوّجها اللهُ سبحانه من رسوله من فوق سبع سماوات، فكان هو وليّها ووليّ تزويجها من رسوله، وعَقَدَ عَقْدَ نكاحها فوق عرشه، وأنزل علىٰ رسوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وهذا داود نبيّ الله لَمّا كان تحته تسع وتسعون امرأة، ثمّ أحبّ تلك المرأة، فتزوّجها، وكمّل بها المائة![2]

وقال الزهري: أولُ حبٍّ كان في الإسلام حبُّ النبيِّ ﷺ عائشةَ[3].

= في «العلل المتناهية» (١٢٨٦، ١٢٨٧)، وفي «ذم الهوىٰ» (٢٥٦ - ٢٥٨) من طريق جماعةٍ عن سويد بن سعيد به، وسيأتي كلام المؤلف عليه في آخر الكتاب.

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٠١ - ١٠٢)، والحاكم (٦٧٧٥) من طريق محمَّد بن عمر الواقدي، وهو متروك الحديث، وله شاهد مرسل.

(٢) أخرج القصة بطولها الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٥٠ - ١٥١) وذكر قصة ذلك مطولاً، وهو حديثٌ باطلٌ لا يثبت.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٤) من طريق الوليد بن محمَّد الموقري عن الزهري فذكره، والحديث باطل موضوع، وله شواهد أيضًا لا تصح.

وكان مسروق يسمّيها: حبيبة رسول ربِّ العالمين(١).

وقال أبو قيس مولىٰ عبد الله بن عمرو: أرسلني عبد الله بن عمرو إلىٰ أم سلمة أسألها: أكان النبيّ ﷺ يقبل وهو صائم؟ فقالت: لا، فقال: إنّ عائشة قالت: كان النبيُّ ﷺ يقبلها وهو صائم، فقالت أم سلمة: إنّ النبيَّ ﷺ كان إذا رأىٰ عائشة لا يتمالك عنها(٢).

وذكر سعد بن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: كان إبراهيم خليل الله ﷺ يزور هاجَرَ في كلّ يوم من الشام علىٰ البُراق من شغفه بها وقلة صبره عنها(٣).

وذكر الخرائطي(٤) أنّ عبد الله بن عمر اشترىٰ جاريةً روميّةً، فكان يحبّها حبًّا شديدًا، فوقعت ذات يوم عن بغلة له، فجعل يمسح التراب عن وجهها، ويفدّيها، وكانت تكثر أن تقول له: يا بَطْرون، أنت قالون؛ تعني: يا مولاي أنت جيّد، ثمّ إنّها هربت منه، فوَجَدَ عليها وجدًا شديدًا، وقال:

قد كنت أحسَبني قالونَ فانصرفَتْ ... فاليوم أعلم أنّي غيرُ قالونِ

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٦٦) وأحمد في «العلل» (٢٨٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٣/ ٣٥) وغيرهم من طريق الأعمش بنحوه، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (٣٠٧٢) وأحمد (٢٦٥٣٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٠٣٠)، والطحاوي في «شرح المعاني» (٢/ ٩٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ رقم ٣٨٩) وغيرهم.

قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ١٢٥): «هذا حديثٌ متصلٌ، لكنه ليس يجيء إلا بهذا الإسناد، وليس بالقوي، وهو منكر علىٰ أصل ما ذكر عن أم سلمة».

(٣) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٣١١)، وفيه الواقدي، متروك الحديث.

(٤) لم أجده في المطبوع من «اعتلال القلوب»، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣١/ ١٧٨) وفيه مجهول.

قال أبو محمَّد بن حزم: وقد أحبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمّة المهديين كثير.

وقال رجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين رأيتُ امرأةً فعشقتُها، فقال: ذاك ما لا تملك[١].

فالجواب -وبالله التوفيق- أنّ الكلام في هذا الباب لا بُدَّ فيه من التمييز بين الواقع والجائز والنافع والضارّ، ولا يُسجَل[٢] عليه بالذمّ والإنكار، ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة، وإنما يتبيّن حكمه وينكشف أمره بذكر متعلَّقه، وإلّا فالعشق من حيث هو لا يُحمَد ولا يُذَمّ.

ونحن نذكر النافع من الحبّ والضارّ والجائز والحرام.

اعلم أنّ أنفع المحبة علىٰ الإطلاق وأوجَبها وأعلاها وأجلّها محبةُ مَن جُبلت القلوب علىٰ محبته، وفطرت الخليقة علىٰ تألّهه، وبها قامت الأرضَ والسماوات، وعليها فُطِرت المخلوقات، وهي سرّ شهادة أن لا إله إلا الله، فإنّ «الإله» هو الذي تألَهه القلوبُ بالمحبة والإجلال والتعظيم والذلّ والخضوع، وتعبدُه، والعبادة لا تصحّ إلّا له وحده، و«العبادة» هي كمال الحبّ مع كمال الخضوع والذلّ، والشركُ في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله، والله تعالىٰ يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنّما يُحَبّ تبعًا لمحبته.

وقد دلّ علىٰ وجوب محبته سبحانه جميعُ كتبه المنزلة، ودعوةُ جميع رسله، وفطرتُه التي فَطَر عبادَه عليها، وما ركَّب فيهم من العقول، وما أسبَغَ عليهم من النعَم - فإنّ القلوب مفطورة مجبولة علىٰ محبة من أنعَمَ عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كلُّ الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال

---

(١) «الواضح المبين» (٣٠).

(٢) أسجل الحكم: أرسله، والمقصود أنه لا يحكم عليه مطلقًا بالمدح أو الذمّ.

تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣] وما تعرّف به إلىٰ عباده من أسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلا، وما دلّت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

والمحبة لها داعيان: الجمال والإجمال[1]، والربّ تعالىٰ له الكمال المطلق من ذلك، فإنّه جميل يحبّ الجمال، بل الجمال كلّه له، والإجمال كلّه منه، فلا يستحقّ أن يُحَبَّ لذاته من كلّ وجه سواه.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٤-٥٦].

والولاية أصلها الحبّ، فلا موالاة إلا بحبّ، كما أنّ العداوة أصلها البغض، واللهُ وليّ الذين آمنوا، وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله يوالي عبدَه بحسب محبته له.

ولهذا أنكر سبحانه علىٰ من اتّخذ من دونه أولياءَ، بخلاف من والىٰ أولياءه، فإنّه لم يتخذهم من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته.

وقد أنكر علىٰ من سوّىٰ بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أنّ مَنْ فعل ذلك فقد اتّخذ من دونه أندادًا يحبّهم كحبّ الله، والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله، وأخبر عمّن سوّىٰ بينه وبين الأنداد في الحبّ أنّهم يقولون في النار لمعبوديهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

---

(١) أراد بالإجمال: الإحسان والأنعام.

وبهذا التوحيد في الحبّ أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوةُ الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، ولأجله خلق السماوات والأرض والجنة والنار، فجعل الجنّة لأهله، والنار للمشركين به فيه.

وقد أقسم النبي ﷺ أنّه «**لا يؤمن عبدٌ حتىٰ يكونَ هو أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[(١)] فكيف بمحبة الربّ جلّ جلاله؟

وقال لعمر بن الخطاب: «**لا حتّىٰ أكون أحبَّ إليك من نفسك**»[(٢)].

أي لا تؤمن حتىٰ تصل محبتك لي إلىٰ هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولىٰ بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها، أفليس الربّ -عز وجل، وتقدّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جدّه، ولا إله غيره- أولىٰ بمحبّيه وعباده من أنفسهم؟

وكلُّ ما منه إلىٰ عبده المؤمن يدعوه إلىٰ محبته، مما يحبّ العبد أو يكره؛ فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه، ولطفه وبرّه، ورحمته وإحسانه، وستره وعفوه، وحلمه وصبره علىٰ عبده، وإجابته لدعائه، وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته - من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التامّ عنه من جميع الوجوه - كلُّ ذلك داعٍ للقلوب إلىٰ تألّهه ومحبته.

بل تمكينُه عبدَه من معصيته، وإعانتُه عليه وسَترُه حتىٰ يقضي وطره منها، وكلاءته وحراسته له وهو يقضي وطره من معصيته، بعينه، ويستعين عليها بنعمه = من أقوىٰ الدواعي إلىٰ محبته.

فلو أنّ مخلوقًا فعل بمخلوق أدنىٰ شيء من ذلك لم يملك قلبَه عن محبته،

---

(١) تقدّم تخريجه (٢٨٤).

(٢) تقدم تخريجه (٢٨٤).

فكيف لا يحبّ العبد بكلّ قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته؟ فخيره إليه نازل، وشرّه إليه صاعد، يتحبّب إليه بنعمه وهو غنيّ عنه، والعبد يتبغّض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه! فلا إحسانُه وبرّه وإنعامه عليه يصدّه عن معصيته، ولا معصيةُ العبد ولؤمُه يقطع إحسانَ ربّه عنه!

فألأمُ اللؤم تخلّفُ القلوب عن محبة مَن هذا شأنه، وتعلقُها بمحبة سواه!

وأيضًا: فكلّ من تحبّه من الخلق ويحبّك إنّما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله سبحانه وتعالىٰ يريدك لك، كما في الأثر الإلهي: «عبدي، كلٌّ يريدك لنفسه، وأنا أريدك لك»، فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة، وهو مُعرِضٌ عنه، مشغولٌ بحبّ غيره، قد استغرق قلبَه محبةُ سواه؟

وأيضًا: فكلّ من تُعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يُعاملك، ولا بدّ له من نوع من أنواع الربح، والربّ تعالىٰ إنّما يعاملك لتربحَ أنت عليه أعظمَ الربح وأعلاه؛ فالدرهم بعشرة أمثاله إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة، وهي أسرع شيء محوًا.

وأيضًا: فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كلَّ شيء لك في الدنيا والآخرة، فمن أولىٰ منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته؟

وأيضًا: فمطالبُك بل مطالبُ الخلق كلِّهم جميعًا لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأعطىٰ عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمّله.

يشكر القليل من العمل وينمّيه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا يغلّطه كثرة المسائل، ولا يتبرّم بإلحاح الملِحّين، بل يحبّ الملحّين في الدعاء، ويُحِبّ أن يُسألَ، ويغضب إذا لم يُسأل،

يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلىٰ كرامته ورضوانه، فأبىٰ، فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليه معهم عهدَه، ثم نزل سبحانه إليه بنفسه، وقال: «**من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فاغفر له**»[(١)]؟

أدعـوكَ للوصـل تأبَـىٰ أبعَـثْ رسـولي في الطلَبْ
أنـزِلْ إليـكَ بنفسـي ألقـاكَ في النُّـوّامْ!

وكيف لا تحبّ القلوبُ من لا يأتي بالحسنات إلّا هو، ولا يذهب بالسيّئات إلّا هو، ولا يجيب الدعَوات إلّا هو، ولا يُقيل العثَرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكرُبات ويُغيث اللهفات ويُنيل الطلَبات سواه؟

فهو «أحقُّ مَن ذُكِر، وأحقّ من شُكِر، وأحقّ من عُبد، وأحقّ من حُمِد، وأنصَر من ابتُغِي، وأرأف من ملَك، وأجود من سُئِلَ، وأوسع من أعطىٰ، وأرحم من استُرْحِم، وأكرم من قُصِد»، وأعزّ من التُجئ إليه، وأكفىٰ من تُوُكِّل عليه، أرحَمُ بعبده من الوالدة بولدها، وَأشدّ فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة، إذا يئس من الحياة ثمّ وجدها.

وهو الملِك لا شريك له، والفرد فلا ندّ له، كلُّ شيء هالك إلّا وجه. لن يُطاع إلّا بإذنه، ولن يُعصىٰ إلّا بعلمه، يُطاع فيَشْكرُ، وبتوفيقه ونعمته أطِيعَ، ويُعصَىٰ فيغفر ويعفو، وحقُّه أضِيعَ.

فهو أقرب شهيد وأجلّ حفيظ، وأوفىٰ وفيّ بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار»، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسرّ عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكلّ أحد إليه ملهوف.

---

(١) سبق تخريجه (١٤٤).

عنَتِ الوجوه لنور وجهه، وعجزت القلوب عن إدراك كنهه، ودلّت الفِطَر والأدلّة كلّها علىٰ امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، «لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفظ القسط، ويرفعه، يُرفَع إليه عملُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه».

ما اعتاض باذلُ حبّه لسواه مِن عوضٍ ولو ملَكَ الوجودَ بأسرِهِ

فصل

ص(٥٤٠)

وهاهنا أمرٌ عظيمٌ يجب علىٰ اللبيب الاعتناء به، وهو أنّ كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنّه أولىٰ بإيثار الحبّ من كلّ ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته، واستفرغ الوسع في حبّه، وإيثار قربِهِ والوصولِ إليه علىٰ كلّ شيء.

وكلّ عاقل يعلم أنّ اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلّما كانت المحبة أقوىٰ كانت لذّة المحبّ أكمل، فلذّة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتدّ جوعه بأكل الطعام الشهيّ ونظائر ذلك علىٰ حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عُرف هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كلّ حيّ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها، فهي تُذَمّ إذا أعقبَتْ أَلَمًا أعظمَ منها، أو منعتْ لذةً خيرًا وأجلّ منها. فكيف إذا أعقبت أعظمَ الحسرات، وفوّتت أعظم اللذّات والمسرّات؟ وتُحمَد إذا أعانت علىٰ لذة عظيمة دائمة مستقرّة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجهٍ ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ:١٦-١٧]، وقال السحرة

لفرعون لَمّا آمنوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٢، ٧٣].

والله سبحانه خلق الخلق ليُنيلَهم هذه اللّذّة الدائمة في دار الخلد، وأمّا الدنيا فمنقطعة، ولذّاتها لا تصفو أبدًا ولا تدوم، بخلاف الآخرة فإنّ لذّاتها دائمة، ونعيمها خالص من كلّ كدر وأم، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين مع الخلود أبدًا، ولا تعلم نفس ما أخفىٰ الله لعباده فيها من قرة أعين، بل فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

وهذا المعنىٰ الذي قصده الناصح لقومه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾(١) [غافر:٣٨، ٣٩]، فأخبرهم أنّ الدنيا متاعٌ يُسْتَمْتَعَ بها إلىٰ غيرها، وأنّ الآخرة هي المستقَرّ.

وإذا عُرِف أنّ لذّات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلىٰ لذّات الآخرة، ولذلك خُلقت الدنيا ولذّاتها، فكلّ لذة أعانت علىٰ لذة الآخرة وأوصلتْ إليها لم يُذَمَّ تناولُها، بل يُحمَد بحسب إيصالها إلىٰ لذّة الآخرة.

إذا عُرِف هذا، فأعظمُ نعيم الآخرة ولذّاتها: النظرُ إلىٰ وجه الربّ عَزَّوَجَلَّ، وسماعُ كلامه منه، والقربُ منه؛ كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه»(٢).

---

(١) في النسخ: «اتبعوني»، بإثبات الياء، وقد أثبتها أبو عمرو وقالون في الوصل، وابن كثير في الحالين. انظر: «الإقناع» (٧٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٨١).

وفي حديث آخر: «إنّه إذا تجلّىٰ لهم ورأوه نسُوا ما هم فيه من النعيم»(١).

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمّار بن ياسر عن النبيِّ ﷺ في دعائه: «وأسألك لذّةَ النظر إلىٰ وجهك والشوق إلىٰ لقائك»(٢).

وفي «كتاب السنّة» لعبد الله ابن الإمام أحمد(٣) مرفوعًا: «**كأنّ الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذا سمعوه من الرحمن، فكأنّهم لم يسمعوه قبل ذلك**».

وإذا عُرِف هذا، فأعظمُ الأسباب التي تُحصِّل هذه اللذّةَ هو أعظمُ لذّات الدنيا علىٰ الإطلاق، وهو لذّةُ معرفته سبحانه ولذّةُ محبته، فإن ذلك هو جنّة الدنيا ونعيمها العالي؛ ونسبةُ لذّاتها الفانية إليه كتَفْلةٍ في بحرٍ، فإنّ الروح والقلب والبدن إنّما خلق لذلك، فأطيبُ ما في الدنيا معرفتُه ومحبّتُه، وأنشد ما في الجنّة رؤيتُه ومشاهدتُه، فمحبّتُه ومعرفتُه قرّة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها؛ بل لذّاتُ الدنيا القاطعةُ عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقىٰ صاحبها في المعيشة الضَّنْك، فليست الحياة الطيبة إلّا بالله.

وكان بعض المحبّين تمرّ به أوقات، فيقول: إنّ كان أهل الجنّة في مثل هذا، إنّهم لفي عيش طيّب!(٤)

وكان غيره يقول: لو علم الملوكُ ما نحن فيه لَجالَدونا عليه بالسيوف(٥).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥) وابن أبي الدنيا في «صفة الجنّة» (٩٨) وغيرهم بنحوه، بإسنادٍ لا يصح.

(٢) سبق تخريجه (٢٦٠).

(٣) لم أجده في المطبوع، والحديث أخرجه الرافعي في «التدوين» (٢/ ٤٠٣) من طريق إسماعيل بن رافع، وهو ضعيف.

(٤) سبق في ص (١١٣).

(٥) سبق أيضًا في ص (١١٣).

وإذا كان صاحب المحبّة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحبّ يقول في حاله:

وما الناسُ إلّا العاشقون ذوو الهوىٰ ... ولا خيرَ فيمن لا يحِبّ ويعشقُ[١]

ويقول الآخر[٢]:

أفٍّ لِلدّنيا متىٰ ما لم يكن ... صاحبُ الدنيا محِبًّا أو حبيبا

ويقول الآخر[٣]:

ولا خيرَ في الدنيا ولا في نعيمها ... وأنتَ وحيدٌ مفرَدٌ غيرُ عاشقِ

ويقول الآخر[٤]:

اسكُنْ إلىٰ سكَنٍ تلَذُّ بحبّه ... ذهب الزمانُ وأنتَ منفردُ

ويقول الآخر:

تشكّىٰ المحبّون الصبابةَ ليتني ... تحمّلتُ ما يلقَون مِن بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذّةُ الحبّ كلّها ... فلم يلقَها قبلي محِبٌّ ولا بعدي[٥]

فكيف بالمحبةِ التي هي حياةُ القلوب، وغذاءُ الأرواح، وليس للقلب لذّةٌ ولا نعيمٌ ولا فلاحٌ ولا حياةٌ إلّا بها، وإذا فقدها القلبُ كان ألَمُه أعظمَ من ألم العين إذا فقدَتْ نُورَها، والأذنِ إذا فقدَتْ سَمْعَها، والأنفِ إذا فقد شَمَّه، واللسانِ إذا فقد نُطقَه؟ بل فسادُ القلب إذا خلا من محبةِ فاطرِه وبارئِه وإلهه الحقّ أعظمُ

(١) البيت للعباس بن الأحنف في «ديوانه» (٢٢٢).

(٢) بل صاحب البيت السابق نفسه، كما في «ديوانه» (٥٨).

(٣) «منازل الأحباب» (٥١).

(٤) البيت لبشار بن برد من قصيدة في ديوانه (ابن عاشور: ٣/ ٦٢، إحسان عباس: ٢٦٩).

(٥) سبق البيتان في ص (٢٥٨).

من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا أمر لا يصدّق به إلّا من فيه حياة، و«**ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ**»(١)!

والمقصود أنّ أعظم لذّات الدنيا هو السبب الموصل إلىٰ أعظم لذّة في الآخرة.

ولذّات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلىٰ لذة الآخرة، ويثاب الإنسان علىٰ هذه اللذة أتمّ ثواب؛ ولهذا كان المؤمن يثابُ علىٰ ما يقصد به وجهَ الله من أَكْلِهِ، وشُرْبِهِ، ولبسِهِ، ونكاحِهِ، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوّه، فكيف بلذةِ إيمانه ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلىٰ لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟

النوع الثاني: لذّة تمنع لذة الآخرة، وتُعقِب آلامًا أعظمَ منها، كلذّة الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودةَ بينهم في الحياة الدنيا، يحبّونهم كحبّ الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقُوا ربهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٨-١٢٩]، ولذّةِ أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلوّ بغير الحق.

وهذه اللذّات في الحقيقة إنّما هي استدراج من الله لهم، ليذيقهم بها أعظم الآلام، ويحرمهم بها أكملَ اللذّات، بمنزلة من قدّم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا يستدرجه به إلىٰ هلاكه.

قال تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢، ١٨٣].

---

(١) للمتنبي، وقد سبق في ص (٧٩).

قال بعضُ السَّلف في تفسيرها: كلّما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمةً[1] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالىٰ في أصحاب هذه اللذّات: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقال في حقّهم: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وهذه اللذّات تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام، كما قيل:

مـآربُ كانـت في الحيـاة لأهلهـا عِذابًا فصارت في المعاد عَذابا[2]

النوع الثالث: لذّة لا تعقِبُ لذةً في دار القرار ولا ألَمًا، ولا تمنع أصل لذّة دار القرار، وإن منعَتْ كمالَها، وهذه اللّذّة المباحة التي لا يستعان بها علىٰ لذّة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتُّعُ النفس بها قدر، ولا بُدّ أن تشغل عمّا هو خير وأنفع منها.

وهذا القسمُ هو الذي عناه النبيُّ ﷺ بقوله: «**كلُّ لهوٍ يلهو به الرجل فهو باطل، إلّا رميَه بقوسه، وتأديبَه فرسه، وملاعبتَه امرأته؛ فإنهنّ من الحقّ**»[3].

(١) جاء عن الضحاك نحوه؛ ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٣١)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٨)، وجاء عن عبد الله بن داود الخريبي، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١١٦)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٢٤)، وسنده صحيح.

(٢) سبق البيت في ص (٢٤٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٣٥٨٠)، وابن ماجه (٢٨١١)، وأحمد (٤/ ١٤٤)، والحاكم (٢٤٦٧). من حديث عقبة بن عامر الجهني، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

فما أعان على اللّذّة المطلوبة لذاتها فهو حقٌّ، وما لم يعن عليها فهو باطل[١].

فصـــل ص(٥٤٨)

فهذا الحبُّ لا يُنكَر ولا يُذَمّ، بل هو أحمدُ أنواعِ الحبّ، وكذلك حبُّ رسول الله ﷺ، وإنّما نعني المحبّة الخاصّة، وهي التي تشغل قلبَ المحبِّ وفكرَه وذكرَه لمحبوبه، وإلّا فكلُّ مسلم في قلبه محبةٌ لله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلّا بها، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبّة تفاوتًا لا يحصيه إلّا الله، فبين محّبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما.

فهذه المحبة التي تلطّف الروح، وتخفّف أثقال التكاليف، وتسخّي البخيل، وتشجّع الجبان، وتصفّي الذهن، وتروّض النفس، وتطيّب الحياة على الحقيقة، لا محبة الصور المحرّمة، وإذا بُليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرةُ صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقىٰ لكم في مضمَر القلبِ والحشا   سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبلَىٰ السرائرُ[٢]

وهذه المحبة التي تنوِّر الوجه، وتشرح الصدر، وتحيي القلب.

وكذلك محبّة كلام الله، فإنّه من علامة محبّة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر إلىٰ محبة القرآن من قلبك، والتذاذكِ بسماعه أعظمَ من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنّه من المعلوم أنّ من أحبّ محبوبًا كان كلامه وحديثه أحبَّ شيءٍ إليه، كما قيل:

(١) أشار شيخ الإسلام إلىٰ هذا المعنىٰ مرارًا في الفتاوىٰ وغيرها.

(٢) البيت للأحوص الأنصاري. انظر: «ديوانه» المجموع (١٤٥).

إنْ كنتَ تزعُم حُبّي فلِمْ هجرتَ كتابي

أمَا تأمّلتَ ما فيـ ـهِ مِن لذيذِ خطابي

وقال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو طهرتْ قلوبنا لما شبعَتْ من كلام الله(١).

وكيف يشبع المحِبُّ من كلام محبوبه، وهو غاية مطلوبه!

وقال النبي ﷺ يومًا لعبد الله بن مسعود: «**اقرأ عليّ**»، فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزِل؟ فقال: «**إنّي أحبّ أن أسمعه من غيري**»، فاستفتح، وقرأ سورة النساء، حتّىٰ إذا بلغ قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «**حسبك**»، فرفع رأسه، فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرِفان من البكاء(٢).

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسىٰ يقولون: يا أبا موسىٰ ذكّرنا ربَّنا، فيقرأ وهم يستمعون(٣).

فلمحبّي القرآن من الوجد والذوق واللّذّة والحلاوة والسرور أضعافُ ما لمحبّي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل: ذوقَه وجْدَه وطربَه ونشوتَه في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، وهو كما قيل:

تُقرا عليكَ الختمَه وأنتَ جامِدٌ كالحجَرْ

وبيتٌ من الشعرِ يُنْشَدْ تَميلُ كالنَّشْوانْ

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ «الزهد» (٦٧٨)، وفي زوائده علىٰ «فضائل الصحابة» (٧٧٥)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧٢، ٣٠٠) عنه بإسناد منقطع.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٥)، وغيرهما.

(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (٧٩)، والدارمي (٣٥٣٦،٣٥٣٩)، وابن حبان (٧١٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٨) والبيهقي في «الكبرىٰ» (١٠/ ٢٣١) وغيرهم، بإسنادٍ منقطع.

فهذا من أقوىٰ الأدلّة علىٰ فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلّقه بمحبة سماع الشيطان؛ والمغرور يعتقد أنّه علىٰ شيء!

ففي محبة الله وكلامه ورسوله أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه، بل لا حبَّ علىٰ الحقيقة أنفع منه؛ وكلّ حبّ سوىٰ ذلك باطل، إنْ لم يُعِنْ عليه ويشوِّق المحبَّ إليه.

ص(٥٥٢)

فصل

وأمّا محبّة النِّسْوان فلا لوم علىٰ المحِبِّ فيها، بل هي من كماله.

وقد امتن الله سبحانه بها علىٰ عباده فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١]، فجعل المرأة سكنًا للرجل يسكن قلبه إليها، وجعل بينهما خالص الحبّ، وهو المودة المقترنة بالرحمة.

وقد قال تعالىٰ عقيب ذكره ما أحلّ لنا من النساء وما حرّم منهن: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٦-٢٨].

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاووس عن أبيه قال: **إذا نظر إلىٰ النساء لم يصبر**[(١)].

وفي «الصحيح» من حديث جابر عن النبيِّ ﷺ أنّه رأىٰ امرأةً، فأتىٰ زينب، فقضىٰ حاجته منها، وقال: «**إنّ المرأة تُقبل في صورة شيطان، وتُدبر في صورة**

(١) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (١١٧)، وابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (١٦٤)، وسنده صحيح.

شيطان، فإذا رأىٰ أحدُكم امرأةً فأعجبته فليأتِ أهلَه، فإنّ ذلك يرُدّ ما في نفسه»[١].

ففي هذا الحديث عدّة فوائد:

منها: الإرشادُ إلىٰ التسلّي عن المطلوب بجنسه، كما يقوم الطعام مقام الطعام، والثوب مقام الثوب.

ومنها: الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورِثِ لشهوتها بأنفع الأدوية، وهو قضاء وطره من أهله، وذلك ينقض شهوته لها.

وهذا كما أرشد المتحابَّين إلىٰ النكاح، كما في سنن ابن ماجه[٢] مرفوعًا: «**لم يُرَ للمتحابين مثلُ النكاح**».

فنكاح المعشوقة هو دواء العشق الذي جعله الله دواءه شرعًا وقدرًا، وبه تداوىٰ داود ﷺ، ولم يرتكب نبي الله محرَّمًا، وإنّما تزوّج المرأةَ، وضمَّها إلىٰ نسائه لمحبته لها، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلوّ مرتبته، ولا يليق بنا المزيد علىٰ هذا[٣].

وأمّا قصة زينب بنت جحش، فزيد كان قد عزم علىٰ طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير النبيَّ ﷺ في فراقها، وهو يأمره بإمساكها، فعلم رسولُ الله ﷺ أنّه مفارقها ولا بدّ، فأخفىٰ في نفسه أن يتزوَّجها إذا فارقها زيدٌ، وخشي مقالة الناس أنّ رسول الله ﷺ تزوّجَ زوجة ابنه، فإنّه كان قد تبنّىٰ زيدًا قبل النُّبوّة، والربُّ تعالىٰ يريد أن يُشرِّع شرعًا

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٣).

(٢) برقم (١٨٤٧)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢٢٥٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٣٤)، والطبراني في «الكبير» (١١/ رقم ١١٠٠٩)، وتمام في «فوائده» (الروض البسام: ٧٣٢ - ٧٣٤) وغيرهم من طريق طاوس عن ابن عباس فذكره.

(٣) بل القصة نفسها باطلة من أكاذيب اليهود، ولم يسلَم نبي من أنبيائهم من القبائح التي افتروها عليهم، وانظر ما سبق في ص (٣٢٥).

عامًّا فيه مصالح عباده، فلما طلّقها زيد، وانقضت عدّتها منه، أرسله إليها يخطبها لنفسه، فجاء زيدٌ، واستدبر الباب بظهره، وعظُمتْ في صدره لَمّا ذكرها رسول الله ﷺ، فناداها من وراء الباب: يا زينب إنّ رسول الله ﷺ يخطبكِ، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتىٰ أؤامرَ ربّي، وقامت إلىٰ محرابها، فصلّتْ، فتولّىٰ الله ﷻ نكاحها من رسولِه بنفسه، وعقد النكاح له فوق عرشه، وجاء الوحي بذلك: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧]، فقام رسولُ الله ﷺ لوقته، فدخل عليها، فكانت تفخر علىٰ نساء النبيِّ ﷺ بذلك وتقول: أنتن زوّجكنّ أهاليكن، وزوّجني الله من فوق سبع سماوات(١)! فهذه قصة رسولِ الله ﷺ مع زينب.

ولا ريب أنّ النبيَّ ﷺ كان قد حُبِّب إليه النساءُ، كما في الصحيح من حديث أنس عنه ﷺ: «**حُبِّب إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعِلت قرّةُ عيني في الصلاة**»(٢).

هذا لفظُ الحديث، لا ما يرويه بعضهم(٣): «حُبِّب إليّ من دنياكم ثلاث ...»، زاد الإمام أحمد في «كتاب الزهد»(٤) في هذا الحديث: «**أصبر عن الطعام والشراب، ولا أصبر عنهنّ**».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠، ٧٤٢١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وأحمد (١٢٣١٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٦٠)، والحاكم (٢٦٧٦)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٣٥) وغيرهم، وفي إسناده مقال، وقد صححه غير واحد.

(٣) كالزمخشري في «الكشاف»، والغزالي في «الإحياء»، والقاضي عياض في «مشارق الأنوار» وغيرهم. انظر: «لسان الميزان» (١/ ١٣٩)، (٩/ ٥٨)، و«كشف الخفا» (١/ ٤٠٦)، وتكلم في هذا اللفظ جماعةٌ منهم: شيخ الإسلام والمؤلف والزيلعي وابن حجر والعراقي والسخاوي والمناوي والزركشي وغيرهم. راجع «فيض القدير» (٣/ ٣٧٥).

(٤) تقدم الكلام علىٰ هذه الزيادة في ص (٢٩٦).

وقد حسده أعداءُ الله اليهودُ علىٰ ذلك، فقالوا: ما همّه إلّا النكاح، فردّ الله سبحانه عن رسوله، ونافح عنه، فقال: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤][١].

وهذا خليلُ الله إبراهيم إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحبّ هاجَر، وتسرّىٰ بها.

وهذا داود كان عنده تسعة وتسعون امرأةً، فأحبّ تلك المرأة، وتزوّج بها، فكمّل المائة[٢].

وهذا سليمان ابنه كان يطوف في الليلة علىٰ تسعين امرأةً[٣].

وقد سئل رسول الله ﷺ عن أحبّ الناس إليه، فقال: «عائشة»[٤].

وقال عن خديجة: «إني رُزِقت حبَّها»[٥].

فمحبة النساء من كمال الإنسان؛ قال ابن عباس: «خيرُ هذه الأمة أكثرها نساءً»[٦].

وقد ذكر الإمام أحمد[٧] أن عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم جلولاء جاريةٌ،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ رقم ٥٤٧٠)، والطبري من طريق العوفي عن ابن عباس، وسنده ضعيفٌ جدًّا، وجاء عن غيره أيضًا، وهو بعيدٌ من السياق، والصواب: «أن معنىٰ الفضل في هذا الموضع: النبوة التي فضل الله بها محمدًا وشرّف بها العرب إذ آتاها رجلًا منهم دون غيرهم ...»، كما قال ابن جرير (٨/ ٤٧٩).

(٢) قصة باطلة، كما سبق (٣٢٣، ٣٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٤٢) وفيه: «بمائة امرأة»، وبرقم (٣٤٢٤): «علىٰ سبعين»، وفيه: قال شعيب وابن أبي الزناد: «تسعين»، وهو أصح، وأخرجه مسلم (١٦٥٤).

(٤) سبق تخريجه ص(٢٧١).

(٥) أخرجه مسلم (٢٤٣٥).

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٦٩).

(٧) في «العلل ومعرفة الرجال» (٢/ ٢٦٠)، وذكره الدوري في «تاريخه» (٤/ رقم ٤٩٨١) وأخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (١٥١)، وغيرهم، بإسناد ضعيف.

كأنّ عنقها إبريق فضّة، قال عبد الله: فما صبرتُ أنْ قبّلتُها، والناس ينظرون.

وبهذا احتجّ الإمام أحمد علىٰ جواز الاستمتاع من المسبيّة قبل الاستبراء بغير الوطء، بخلاف الأمة المشتراة.

والفرق بينهما أنّه لا يتوهَّم انفساخ الملك في المسبيّة، بخلاف المشتراة فقد ينفسخ فيها الملك، فيكون مستمتِعًا بأمةِ غيره(١).

وقد شفع النبيُّ ﷺ لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزّوج به، فأبت - وذلك في قصة مُغيث وبَريرة - فإنّه رآه يمشي خلفها بعد فراقها، ودموعه تجري علىٰ خدّيه، فقال لها: «**لو راجعتيه**»! فقالت: أتأمرني يا رسول الله؟ قال: «**لا، إنّما أشفع**»، فقالت: لا حاجة لي به، فقال لعمّه: «**يا عبّاس ألا تعجَب من حبِّ مغيثٍ بريرةَ، ومن بغضها له**»(٢)؟ ولم ينكر عليه حبّها، وإنْ كانت قد بانَتْ منه، فإنّ هذا ما لا يملكه.

وكان النبيُّ ﷺ يسوّي بين نسائه في القَسْم، ويقول: «**اللهمّ هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلُمْني فيما لا أملك**»(٣)، يعني الحبّ.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:١٢٩]، يعني: في الحبّ والجماع.

ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون في العشّاق إلىٰ معشوقهم الجائز وصلُهن، كما تقدّم من فعل أبي بكر وعثمان.

---

(١) وهي إحدىٰ الروايتين عن أحمد، والظاهر عنه تحريم مباشرتها فيما دون الفرج لشهوة؛ قاله ابن قدامة في «المغني» (١١/ ٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١)، وأحمد (٢٥١١١)، وابن حبان (٤٢٠٥)، والحاكم (٢٧٦١) وغيرهم، وقد صححه بعضهم، وضعّفه آخرون.

وكذلك عليّ أُتِيَ بغلام من العرب وُجِدَ في دار قوم بالليل، فقال له: ما قصّتك؟ قال: لستُ بسارقٍ، ولكنّي أَصدُقك:

تعلّقـتُ في دار الرِّياحـيِّ خَـودةً … يذِلّ لها من حسن منظرها البدرُ
لها في بنات الروم حسـنٌ ومنظرٌ … إذا افتخرتْ بالحسن جانبَها الفخرُ
فلما طرقتُ الدار من حَرِّ مُهْجةٍ … أتيـتُ وفيها مـن توقّدها الجمرُ
تبـادَرَ أهـلُ الدار لي ثـمّ صيَّحوا … هو اللصُّ محتومًا له القتلُ والأسرُ

فلما سمع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شعره رَقَّ له، وقال للمهلَّب بن رِياح: اسمح له بها، فقال: يا أمير المؤمنين سَلْه مَن هو؟ فقال: النهّاس بن عُيينة[1]، فقال: خذها، فهي لك[2].

واشترىٰ معاوية جاريةً، فأعجب بها إعجابًا شديدًا، فسمعها يومًا تنشد أبياتًا منها:

وفارقتُه كالغصن يهتزُّ في الثرىٰ … طريـرًا وسيمًا بعد ما طرَّ شـاربُه

فسألها، فأخبرته أنّها تحِبّ سيّدَها، فردّها إليه، وفي قلبه منها [3].

وذكر الزمخشري في «ربيعه»[4] أنَّ زبيدة[5] قرأت في طريق مكة علىٰ حائط:

أمَـا في عبـاد الله أو في إمائـه … كريمٌ يُجلّي الهمَّ عن ذاهبِ العقلِ
لـه مقلـةٌ أمّـا المآقـي قريحـةٌ … وأمّا الحشا فالنارُ منه علىٰ رِجْلِ

فنذرَتْ أن تَحتال لقائلهما إن عرفَتْه حتّىٰ تجمع بينه وبين من يحبّه.

فبينا هي بالمزدلفة إذ سمعتْ من ينشد البيتين، فطلبته، فزعم أنّه قالهما في ابنة

---

(١) كذا وقع في النُّسخ والمصادر، وهو تصحيف، والصواب: «عُتيبة».

(٢) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٢٣٢ - ٢٣٣) من طريق أبي مخنف عنه، وسنده تالف.

(٣) نقل المؤلف هذه القصة في روضة المحبين (٥٢٢)، وفيه تفصيل.

(٤) انظر: «ربيع الأبرار» (٣/ ١٢١).

(٥) بنت جعفر، زوج هارون الرشيد.

عمّ له، نذر أهلُها أن لا يزوّجوها منه، فوجّهتْ إلىٰ الحيّ، وما زالت تبذل لهم المال حتّىٰ زوّجوها منه؛ وإذا المرأة أعشق له منه لها، فكانت تعدّه من أعظم حسناتها، وتقول: ما أنا بشيء أسرَّ منّي من جمعي بين ذلك الفتىٰ والفتاة.

قال الخرائطي(١): وكان لسليمان بن عبد الملك غلامٌ وجاريةٌ يتحابّان، فكتب الغلام لها يومًا:

ولقد رأيتكِ في المنام كأنّما عاطيتِني من ريقِ فيكِ الباردِ
وكأنّ كفّكِ في يدي وكأنّنا بتنا جميعًا في فراشٍ واحدِ
فطفقتُ يومي كلّه متراقدًا لأراكِ في نومي ولستُ براقدِ

فأجابته الجارية؟

خيرًا رأيتَ وكلَّ ما أبصرتَه ستناله منّي برغم الحاسدِ
إنّي لأرجو أن تكون معانقي فتبيتَ منّي فوق ثديٍ ناهدِ
وأراكَ بين خَلاخلي ودَمالجي وأراك فوق ترائبي ومجاسدي(٢)

فبلغ ذلك سليمانَ، فأنكحها الغلامَ، وأحسن حالهما، علىٰ فرط غيرته.

وقال جامع بن مُرخية:

سألتُ سعيدَ بن المسيب مفتيَ الْـ ـمدينةِ هل في حبّ دهماءَ من وِزْرِ(٣)
فقال سعيدُ بن المسيّب إنّما تلام علىٰ ما تستطيع من الأمرِ

(١) لم أجدها في «اعتلال القلوب»، وهي في «ربيع الأبرار» (٣/ ١٢٢).
(٢) «الدمالج»: جمع دُمْلُج، وهو ما يحيط بالعضد من الحليّ، و«المجاسد»: جمع مِجسَد، وهو الثوب الذي يلي الجسد.
(٣) «دهماء» صاحبة الشاعر، ذكرها في أبيات أخرىٰ أيضًا (فرحة الأديب: ١٠٣).

فقال سعيد: والله ما سألني أحدٌ عن هذا، ولو سألني ما كنتُ أجيبُ إلّا به(١).

فعشق النساء ثلاثة أقسام:

- عشق هو قربة وطاعة، وهو عشق الرجل امرأته وجاريته:

وهذا العشق نافع؛ فإنّه أدعىٰ إلىٰ المقاصد التي شرع الله لها النكاح، وأكفُّ للبصر والقلب عن التطلّع إلىٰ غير أهله؛ ولهذا يُحْمَد هذا العاشق عند الله وعند الناس.

- وعشق هو مقتٌ من الله، وبعدٌ من رحمته:

وهو أضرّ شيءٍ علىٰ العبد في دينه ودنياه؛ وهو عشق المردان، فما ابتلي به إلّا من سقط من عين الله، وطرده عن بابه، وأبعد قلبَه عنه، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله، كما قال بعض السلف: إذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبّة المردان.

وهذه المحبة هي التي جلبت علىٰ قوم لوط ما جلبت، فما اتوا إلا من هذا العشق قال تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

ودواء هذا الداء الدويّ: الاستعانة بمقلّب القلوب، وصدق اللجأ إليه، والاشتغال بذكره، والتعوّض بحبّه وقربه، والتفكّر في الألم الذي يُعقِبه هذا العشقُ، واللذّةِ التي تفوته به؛ فيترتّب عليه فواتُ أعظم محبوب، وحصولُ أعظم مكروه، فإن أقدمت نفسُه علىٰ هذا وآثرتْه، فليكبّر عليها تكبيرَه علىٰ الجنازة، ولْيعلَمْ أنّ البلاء قد أحاط به!

- والقسم الثالث من العشق: عشق مباح لا يُملَك:

كعشق من وُصفت له امرأةٌ جميلةٌ، أو رآها فجأة من غير قصد، فأورثه ذلك عشقًا لها، ولم يُحدِث له ذلك العشق معصيةً؛ فهذا لا يُملَك، ولا يعاقَب عليه،

---

(١) ذكر القصة صاحب «الظرف والظرفاء» (١٦٠) عن ثعلب.

والأنفع له مدافعته، والاشتغال بما هو أنفع له، والواجب علىٰ هذا أن يكتم، ويعفّ، ويصبر علىٰ بلواه، فيثيبه الله علىٰ ذلك، ويعوّضه علىٰ صبره لله، وعفّته، وتركِه طاعة هواه، وإيثارِ مرضاة الله وما عنده.

ص(٥٦٧)

فصل

والعُشَّاق ثلاثةُ أقسام:

- منهم من يعشق الجمال المطلق.
- ومنهم من يعشق الجمال المقيّد، سواء طمع بوصاله أو لم يطمع.
- ومنهم من لا يعشق إلّا من يطمع في الوصول إليه.

وبين هذه الأنواع تفاوتٌ في القوة والضعف: فعاشق الجمال المطلق قلبه يهيم في كلّ واد، وله في كلّ صورة جميلة مراد!

يومًا بِحُزْوَىٰ ويومًا بالعُذَيب ويَو ... مًا بالعقيق ويومًا بالخُلَيصاءِ

وتارةً تنتحي نجدًا وآونةً ... شِعْبَ العقيق وطورًا قصرَ تيماءِ[1]

فهذا عشقُهُ واسعٌ، ولكنّه غير ثابت كثير التنقّل.

يهيم بهذا ثم يعشق غيرَه ... ويسلاهُمُ من وقته حين يُصبحُ[2]

وعاشق الجمال المقيّد أثبتُ علىٰ معشوقه، وأدوَمُ محبةً له، ومحبته أقوىٰ من محبة الأول؛ لاجتماعها في واحد، وتقسُّم الأولىٰ، ولكن يضعفها عدم الطمع في الوصال.

---

(١) البيتان من قصيدة صاحبيّة لأبي محمَّد الخازن، انظر: «اليتيمة» (٣/ ١٩١).

(٢) البيت من أبيات لسمنون بن حمزة، وقد أوردها المؤلف في «طريق الهجرتين» (٣٢) دون نسبة، وعزاها صاحب «الزهرة» (٦٢) إلىٰ بعض أهل هذا العصر.

وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقَلُ العشّاق وأعرَفهم، وحبّه أقوىٰ؛ لأنّ الطمع يُمِدّه ويُقوّيه.

فصل

ص(٥٦٨)

وأمّا حديث «من عشِقَ فعفَّ»، فهذا يرويه سُوَيد بن سعيد، فقد أنكره حفّاظ الإسلام عليه[١].

قال ابن عدي في «كامله»[٢]: هذا الحديث أحد ما أُنكِر علىٰ سويد.

وكذا ذكره البيهقي، وابن طاهر في «الذخيرة»، و«التذكرة»[٣]، وأبو الفرج ابن الجوزي، وعدّه في «الموضوعات»[٤]، وأنكره أبو عبد الله الحاكم[٥] - علىٰ تساهله - وقال: أنا أتعجّب منه.

قلت: والصواب في الحديث أنه من كلام ابن عبّاس رضي الله عنهما موقوفًا عليه، فغلِط سويد في رفعه[٦].

قال محمَّد بن خلف بن المرزبان[٧]: حدّثنا أبو بكر الأزرق، عن سويد به، فعاتبته علىٰ ذلك، فأسقط ذكرَ النبيِّ ﷺ، فكان بعد ذلك يسأل عنه، فلا يرفعه[٨].

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٢٤).

(٢) ليس في المطبوع فلعله مما سقط منه، وما أكثره!.

(٣) «تذكرة الموضوعات» (٩١).

(٤) وكذا قال المؤلف في «الزاد» (٤/ ٢٧٧)، و«الروضة» (٢٨٩)، وقد ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٧١).

(٥) في «تاريخ نيسابور»، كما في «زاد المعاد» (٤/ ٢٧٧).

(٦) وقال المؤلف في الزاد (٤/ ٢٧٧): «وفي صحته موقوفًا علىٰ ابن عباس نظر».

(٧) انظر: «ذم الهوىٰ» (٣٢٩).

(٨) انظر: «المقاصد الحسنة» (٤٩١ - ٤٩٣).

ولا يشبه هذا كلام النبوة.

وأمّا رواية الخطيب[١] له عن الأزهري: حدّثنا المعافىٰ بن زكريا، حدثنا قُطبة ابن الفضل، حدثنا أحمد بن محمَّد بن مسروق، حدثنا سويد، حدثنا ابن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعًا؛ فمن أبيَنِ الخطأ، ولا يحتمل هشام عن أبيه عن عائشة مثلَ هذا عند من شمّ أدنىٰ رائحة من الحديث.

ونحن نُشهد الله أنّ عائشةَ ما حدّثت بهذا عن رسول الله قطّ، ولا حدّث به عنها عروة، ولا حدّث به عنه هشام قطّ.

وأمّا حديث ابن الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعًا؛ فكذِبٌ علىٰ ابن الماجشون، فإنّه لم يحدِّث بهذا، ولا حدّث به عنه الزبير بن بكّار، وإنّما هذا من تركيب بعض الوضّاعين.

ويا سبحان الله! كيف يحتمل هذا الإسنادُ مثل هذا المتن؟ فقبّح الله الوضّاعين!

وقد ذكره أبو الفرج[٢] من حديث محمَّد بن جعفر بن سهل، حدثنا يعقوب بن عيسىٰ من ولد عبد الرحمن بن عوف، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد مرفوعًا.

وهذا غلط قبيح، فإنّ محمَّد بن جعفر هذا هو الخرائطيّ، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاث مائة، فمحال أن يدرك شيخُه يعقوبُ ابنَ أبي نَجيح، لا سيّما وقد رواه في كتاب «الاعتلال»[٣] عن يعقوبَ هذا، عن الزبير، عن عبد الملك، عن عبد العزيز، عن ابن أبي نجيح.

(١) في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٤٧٥)، وابن الجوزي في «ذم الهوىٰ» (٢٥٨)، فيه أحمد ابن محمَّد بن مسروق: قال الدارقطني: ليس بالقوي، يأتي بالمعضلات.

(٢) في «العلل المتناهية» (١٢٨٨)، و«ذم الهوىٰ» (٣٢٦).

(٣) «اعتلال القلوب» (٧٩).

والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية، ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء[١].

وكلام حُفَّاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع في هذا الشأن، وما صحّحه، بل ولا حسّنه أحدٌ يُعوَّل في علم الحديث عليه، ويُرجَع في التصحيح إليه؛ ولا مَن عادتُه التساهل والتسامح، فإنّه لم يُطنِّف[٢] نفسَه له، ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف، ويروي منها الغثّ والسمين والمنخنقة والموقودة قد أنكره، وحكم ببطلانه[٣].

نعم، ابن عبّاس غير مستنكَر ذلك عنه، وقد ذكر أبو محمَّد ابن حزم عنه أنَّه سئل عن الميت عشقًا، فقال: قتيل الهوىٰ، لا عقل ولا قود![٤].

ورُفِع إليه بعرفات شابٌ قد صار كالفرخ، فقال: ما شأنه؟ قالوا: العشق. فجعل عامّة يومه يستعيذ من العشق[٥]، فهذا نفَس من قال: من عشِق وعفَّ وكتَم ومات، فهو شهيد.

وممّا يوضح ذلك أنّ النبي ﷺ عدّ الشهداء في الصحَيح، فذكر المقتول في الجهاد، والمبطون، والحرِق، والنفَساء يقتلها ولدها، والغرِق، وصاحب ذات

---

(١) لم يذكره ابن الجوزي في «كتاب الضعفاء» (٣/ ٤٦ - ٤٧)، وإنما ذكر رجلين آخرين أحدهما محمَّد بن جعفر المدائني، والآخر محمَّد بن جعفر بن عبد الله بن جعفر، فلعل المؤلف رحمه الله قد وهِمَ.

(٢) طنّفه بالأمر: اتهمه به، وطنّف للأمر: قارفه، وطنّف نفسه إلىٰ الشيء: أدناها إلىٰ الطمع فيه، ولعل المقصود أن المتساهل أيضًا لم يدفع نفسه إلىٰ تصحيح الحديث.

(٣) وذكره في «تذكرة الموضوعات» (٩١) كما سبق.

(٤) «طوق الحمامة» (٦).

(٥) سبق تخريجه (٣٠٤).

الجنب (١)، ولم يعُدّ منهم العاشق يقتله العشق.

وحسب قتيل العشق أن يصحّ له هذا الأثر عن ابن عباس (٢) علىٰ أنّه لا يدخل تحته حتّىٰ يصبر لله، ويعفّ لله، ويكتم لله، وهذا لا يكون إلا مع قدرته علىٰ معشوقه، وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه.

وهذا من أحقّ من دخل تحتَ قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وتحتَ قولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فنسأل اللهَ العظيمَ ربَّ العرش العظيم أن يجعلنا ممّن آثر حبّه علىٰ هواه، وابتغىٰ بذلك قربه ورضاه.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٥٥٥)، بإسناد صحيح.

(٢) قال المؤلف في «زاد المعاد» (٤/ ٢٧٧): وفي صحته موقوفًا علىٰ ابن عباس نظر.

فهرسُ المحتوى